الموسوعة الإسلامية العربية

١٠

الفصحى لغة القرآن

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان

مكتبة المدرسة
بيروت - لبنان

دار الكتاب اللبناني
ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقياً (كتالبنان)
هاتف ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٤٠٢ هـ
١٩٨٢ م

الموسوعة الإسلامية العربية

آفاق البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل
خصائص الفصحى

قال الخليل بن أحمد في كتاب العين : إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢,٣٠٥,٤١٢) كلمة وهو يعني ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثي والرباعي .

ويقول الحسن الزبيدي : إن عدد الألفاظ العربية (٦,٦٩٩,٤٠٠) لفظ لا يستعمل منها إلاّ ٥٦٢٠ لفظاً والباقي مهمل .

ويقول آخرون : إن اللغة العربية تتألف من ثمانين ألف مادة المستعمل منها عشرة آلاف فقط والمهجور من ألفاظها سبعون ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم . وهذه الإشارات على اختلاف أرقامها وتعدد مصادرها تكشف عن طبيعة اللغة العربية وتاريخها دون حاجة إلى أي قدر من الإشادة أو المبالغة ، وهي في مجموعها تعطي صورة الثراء والغنى في الحصيلة وتكشف عن البعد التاريخي والنمو والحيوية في نفس الوقت .

(ثانياً) إذا كانت اللغة العربية هي اللغة القومية لمائة مليون من العرب فإنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة لألف مليون من المسلمين ، وهي لم تتراجع عن أرض دخلتها لتاثيرها الناشيء من كونها لغة دين ولغة مدنية ، وساعدها على النماء أنها كانت لغة السياسة والتجارة ولغة العلم والفكر قرابة ألف سنة وقد كان لها أثرها الواضح في الفارسية والتركية والهندوستانية والجاوية والملاوية وبفضل (١) القرآن بلغت ذلك الاتساع وبفضل الإسلام حققت هذا النمو بما لم تعرفه لغة أخرى من لغات العالم .

ولم تبق لغة أوربية (٢) واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي المبين ، حتى اللغة اللاتينية الأم الكبرى فقد صارت وعاء لنقل المفردات العربية إلى بناتها .

ولقد كانت كل اللغات أداة لنقل الأفكار ، بينما تميزت اللغة العربية بأنها كذلك ، وأنها بالإضافة إلى ذلك لغة فكر من حيث هي لغة القرآن الكريم الذي ألقى إلى العربية وإلى الفكر الإنساني كله أضخم شحنة من القيم والمبادىء .

(ثالثاً) إن اللغة العربية لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية والجرمانية ، وهي اللغات التي تكتب بالحروف اللاتينية ، فإذا قابلنا العربية باللغات الاشتقاقية كالإنجليزية والفرنسية نجد أن العربية امتازت بخصائص أكفل بحاجة العلوم ، فمن ذلك سعتها فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألفاً وكلمات اللغة الإنجليزية مائة ألف ، أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة ، ومعجم لسان العرب يحتوي على ٨٠ ألف

---

(١) بروكلمان .

(٢) ميلين : اللغات في أوربا الحديثة .

مادة (لا كلمة) ومواد اللغة العربية تتفرع إلى كلمات ، فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم منصرفة ، بلغ عدد ما يشتق منها نصف مليون كلمة ، وليس في الدنيا لغة اشتقاقية أخرى غنية بكلماتها إلى هذا الحد . وبسبب غنى العربية وسعتها تجد فيها للمعاني الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل معنى مهما كانت درجة التفاوت(١) وبالمقارنة بينها وبين اللغة الإنجليزية التي يتكلم بها معظم سكان العالم الآن فإننا نجدها تفوقها في الأصوات وفي الألفاظ ، ففيها ٢٨ حرفاً في حين أن في اللغة الإنجليزية ٢٦ حرفاً وليس في هذه الحروف الثمانية والعشرين حروف تدل على أصوات مكررة ، بخلاف حروف الأصوات في الإنجليزية .

وفي اللغة العربية حروف لأصوات لا توجد في كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف .

(رابعاً) تتميز اللغة العربية بتنوع الأساليب والعبارات . فالمعنى الواحد يمكن أن يؤدى بتعبيرات مختلفة : كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية .

وهي تحسب حساب الفكرة والخاطر والمثال .

ومن(٢) أهم خصائصها : قدرتها على التعبير عن معان ثانوية لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها ، فالفرنسية مثلاً لا تعنى إلا بالتعبير الواحد ، أما في العربية فمذاهب وأساليب تعرب عن مختلف الأحاسيس فضلاً عن استعمال العربية للحركات

---

(١) إبراهيم مصطفى – مجلة الأزهر ١٨٩٢ .
(٢) عن نص لريجستير بلاشير .

الطويلة والقصيرة في بقية اللفظ فتحصل على مشتقات لأنها عديدة مختلفة المعاني مع بقاء الأصل ثابتاً واضحاً للعين .

(خامساً) تتميز اللغة العربية بأنها أقرب لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث إن عبارتها سليمة طيعة تهون على الناطق الصافي الفكر أن يعبر بها عما يريده من دون تصنع أو تكلف .

وإن العربية تكتب كما تقرأ ، بحيث إن الذي يتعلم حروفها وحركاتها يهون عليه بدون مشقة أن يقرأ حيثما شاء ، وليس فيها من شذوذ الخط إلاّ ما لا يحتفل به ، وهذه الخلة لا تجدها في لغة أخرى فإن أكثر اللغات تحتاج ممن يتعلمها بعد أن يتعلم أوائل كتابتها يلتزم أن يتعلم أيضاً قراءتها كلمة كلمة . وهي غنية بنفسها عن كل ما يحتاج الإنسان إلى نطقه فلا يحتاج إلى لغة أعجمية والعرب لم يتركوا شيئاً إلاّ استنبطوا له اسماً من لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخصي والأفق وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى وما إلى ذلك(١) .

(سادساً) ضربت اللغة العربية رقماً قياسياً في الكمال حيث تقدمت للفكر بكل المخططات الصوتية الممكنة وميزت مفاصل الفكر تمييزاً واضحاً مبيناً وقد توصل علم اللغات المقارن إلى حقيقة ثابتة بالنسبة للغة العربية هي أنها معبرة بسيكولوجيتها العلوم الباطنة والظاهرة(٢) .

(سابعاً) من خصائص العربية أن جميع مشتقاتها تقبل التصريف إلاّ فيما ندر ، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين ، وقد وضع علماء اللغة العرب باجتهادهم أبنية اللغة

---

(١) المطران يوسف داود (مقدمة كتابه في الأصول النحوية) .

(٢) من نص للأستاذ محمد أديب السلاوي .

الكلاسيكية وكذلك مفرداتها في حالة كمال تام .

وليست اللغة العربية غنية بالمفردات ولكنها غنية أيضاً بالصيغ النحوية ، وتهتم العربية بربط الجمل بعضها ببعض .

وللفعل العربي صيغ تبلغ الاثنتي عشرة صيغة كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي

والإسناد في اللغة العربية يكفي في إنشاء علاقة ذهنية بين الموضوع والمحمول ، أو المسند إليه دون حاجة إلى التصريح بهذه العلاقة نطقاً أو كتابة في حين أن هذا الإسناد الذهني لا يكفي في اللغات الأجنبية إلا بوجود لفظ صريح يشير إلى هذه العلاقة .

نقول : فلان شجاع دون حاجة الى أن نقول « فلان موجود شجاعاً » ولا تحتاج العربية في طبيعة بنيتها وتركيبها إلى الجمل الخبرية فيها إلى ما يثبت ما يسمى في اللغات الغربية فعل الكينونة (to be) .

وأسباب الترادف في اللغة العربية أعمق مما يتصور بعض الباحثين ، بل إن هناك من علماء اللغة كابن فارس وابن علي الفارسي من أنكر المترادفات أصلاً ، واعتبرها ألفاظاً جديدة لها معان تختلف في قليل أو كثير بعضها عن بعض ، وكان الإمام الرازي يرى وجوب تحديد الترادف بعدم التباين في المعنى .

وتتميز اللغة العربية بخاصية إظهار الأفكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها كما تتميز في إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من إسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوربية ، وفي أن الألفاظ العربية تعود غالباً إلى أصل ثلاثي(١) وللعربية . خاصية

---

(١) من بحث كتبه لويس ماسينيون .

عجيبة في تعريب الكلمات الأجنبية تدل على استقرار نظام الصرف في هذه اللغة بحيث لا يؤثر فيها نظام صرف اللغة المأثورة ، فإذا كانت الكلمات الطارئة من أصل سامي شديد الشبه بالعربية تضاعفت صعوبة القول بما إذا كانت دخيلة أم أصيلة .

(ثامناً) سعة اللغة العربية بالنسبة لجميع اللغات أمر واضح ويذهب الباحثون إلى أن من يتتبع جميع اللغات لا يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية في سعتها ، ويضاف إلى جمال الصوت ثروتها المدهشة في المترادفات كما تزينها الدقة ووجازة التعبير ، وليس لها ضريب من اليسر في استعمال المجاز فضلاً عما فيها من كنايات ومجازات واستعارات وهي مع هذه السعة والكثرة أكثر اللغات اختصاراً في إيصال المعاني وفي النقل إليها . وإن الصورة العربية لأي مثل أجنبي أقصر في جميع الحالات ، وقد أشار الخفاجي عن أبي داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبحت وخست وإذا نقل الكلام المختار من السرياني إلى العربية ازداد طلاوة وحسناً (١) .

(تاسعاً) إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ، ذلك أن الاشتقاق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان على نظام معين .

لنأخذ مثلاً : الجذر (س ل م) سَلِمَ معناها : نجا ؛

سلم : حيا ، ألقى السلام والتحية ،

سالم : دخل السلم .

أسلم : انقاد وخضع .

---

(١) عن بحث لـ (جوستاف جرونيباوم) .

ومنها : الإسلام : الخضوع لله .
تسلم : أخذ شيئاً من يد غيره .
السلام : التحية .
السلم : خلاف الحرب .
سليم : صحيح ، غير مريض .
التسليم : الرضا والقبول .
الاستلام : لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد (التقبيل) .
وهناك مسلم ومتسلم ومسالم وغيرها مما يعيا على الحصر(١) .

(عاشراً) في اللغة العربية نحو مائة ألف كلمة مستقلة ومعظم هذه الكلمات تولدت بالاشتقاق : منها ألفاظ كثيرة بنفس المعاني أو بمعان مختلفة .

وبعض الاشتقاقات كالتفاعل والتفعل والانفعال والافتعال والاستفعال والمفاعلة مثلاً لا يمكن التعبير عنها في اللغات الأعجمية عادة إلاّ بلفظة أو أكثر ، زد على ذلك أنها تحتفظ بالألفاظ البدائية الرسمية الأولى إلى جانب الألفاظ الراقية الحضارية المتفرعة منها(٢)

وللمصدر في كلمات اللغة العربية نيف وثلاثون صورة ، ومثل المصدر الصفة فإن لها من الصور ما يزيد عن صور المصادر أو يساويها على الأقل ، ومن قبيل الاشتقاق في الاسم الأبواب : وهي باب المثنى والجمع والمكسر والسالم وباب النسبة والتصغير ، والاشتقاق في الأفعال في اللغة العربية له أربع عشرة صورة ومن هذا القبيل تفوق كل لغة من لغات الغربيين والشرقيين لا أستثني لغة أصلاً .

---

(١) من بحث لجورج سارطون .
(٢) عن بحث لعبد الحق حامد .

(حادي عشر) غاية ما أخذته العربية من غيرها من اللغات بعض ألفاظ مفردة من باب الأسماء لا يتجاوز بعض المئين ، وأكثرها من الأسماء الجامدة كخز وديباج واستبرق وترياق وفالوذج ، مما وجدوه عند غيرهم من أمتي فارس والروم ولم يوجد عندهم .

أما علماء هذه الأمة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الأولى ونقلوا العلم إليها من الفارسية أو اليونانية أو السريانية ، فلم يحتاجوا إلاّ إلى بعض أسماء حكمها حكم الألفاظ التي ألمعنا إليها سابقاً .

(ثاني عشر) إن علماء العربية حين أخذوا علم المنطق من اليونان إما راساً أو نقلاً من السريانية لم يأخذوا ألفاظ هذا العلم كما هي عند اليونان بل قالوا : موضوع ومحمول وقضية وقياس واستنتاج ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة والمقولات العشر والقول الشارح والتصوير والتصديق وكلي وجزئي ، وقضية كلية وقضية كلية مهملة وقضية كلية مسورة وهلم جرا .

وبذلك استغنت العربية عن اصطلاحات اللغة اليونانية بألفاظ من ألفاظها أدت معانيها تمام التأدية من غير صعوبة ولا التباس .

(ثالث عشر) وما قيل في المنطق يقال في علوم الفلسفة فإن علماء العربية أخذوا هذا العلم عن غيرهم ، أما لغتهم فلم تحتج إلى لغة القوم ، ورأت فيها من الألفاظ ما يؤدي معاني ألفاظ ذلك العلم ، فقالوا : موجود ومعدوم وعرض وجوهر وحال وكسر وانكسار وتأثر وأثر وماهية وهوية ومقتضى ومانع ومعارض وقالوا : الماهيات مجعولة بجعل جاعل ، وغير مجعولة ، والعقل الأول والمبدأ الفياض ، وغير ذلك من مصطلحات الفلسفة كثير .

وهكذا الأمر في العلوم الطبيعية : كالطبيعيات والطب

والكيمياء والفلك والنبات والحيوان ، فإن اللغة العربية لم تحتج في كل هذه العلوم إلاّ إلى الألفاظ التي تستعار استعارة لأن مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة .

(رابع عشر) أعطت اللغة العربية حروفها الهجائية لملايين ملايين من الشعوب في بلاد الترك والهند وجزائر البحر ، فإن المورو في جزائر الفيليبين يكتبون بالحروف العربية إلى هذه الساعة .

وأعطت نفسها لكثير من الأمم الذين تغلبوا على أهلها أو تغلب أهلها عليهم مئات من السنين ، فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب أوربا ، فإن الأتراك والتتر والفرس ما زال علماؤهم يؤلفون مؤلفاتهم باللغة العربية .

كذلك أعطت لغات الأتراك والتتر والفرس والأردو المئات والألوف من ألفاظ المعاني ومئات الألوف من الجمل التامة ، بل أعطت أكثر هذه اللغات ولا سيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر .

كما أعطت لغات أوربا الأرقام العربية وكثيراً من أسماء المعاني والمصطلحات العلمية .

وقد هضمت علوم اليونان والفرس والسريان دون أن يظهر فيها عجز أو ضعف (١) ؛

(خامس عشر) من أبرز خصائص اللغة العربية أن أبناءها اليوم وبعد ألف وخمسمائة سنة يفهمون أسفار الجاهلية والمخضرمين كما يفهمون أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي أو كما يفهمون أشعار أبي العلاء والشريف الرضي ويفهمون أشعار فحول المتقدمين ؛

---

(١) من بحث لجبر ضومط .

يقول بلاشير : إن وحدة اللغة العربية هي وحدة أخلاقية ودينية قبل كل شيء ، مؤسسة على وحدة تاريخ اللغة . وإننا كلما درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً فإذا قارنا حالة اللغة الفرنسية في العصور الوسطى وجدنا أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر ، وهذه أيضاً مختلفة عن لغتنا اليوم ، هذه الوحدة في اللغة الفرنسية لا تتضح إلاّ بالبحث والمقارنة في حين أن وحدة اللغة العربية تتضح للقارىء ولو كان أجنبياً لأول وهلة : نعم : لغة القرآن هي لغة اليوم وهذا ما تتميز به العربية عن اللغات الأخرى .

(سادس عشر) جمعت اللغة العربية بين أربعة عناصر تتكامل معاً في كلّ متسق تبدو واضحة في إظهار الأفكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها ، وفي الاستثناء إلى المقابلة لتوضيح الغرض المقصود كاستعمال الاستثناء أو التعارض الجدلي ، وفي إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من اسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوربية وفي أن الألفاظ العربية تعود غالباً إلى أصل ثلاثي (١) .

(سابع عشر) حققت اللغة العربية سيطرة كاملة على الفكر الإسلامي وأصبحت هي لغة العلم والثقافة . فتلاشت الآرامية في مناطق الشام والعراق ، وتخلت الفارسية لوقت ما عن مكانها للغة العربية وانمحت القبطية واليونانية والبربرية واضطر رجال الكنيسة إلى تعريب مجامعهم وصلواتهم ، وقد رفع القرآن من شأن اللغة العربية حتى صارت إحدى اللغات الرئيسية الهامة في العالم ، غنية في مفرداتها ، غنية في صيغ قواعدها ، بلغ المهجور من ألفاظها

---

(١) عن بحث للويس ماسينيون .

سبعين ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم ، وسعت كل ما ترجم إليها
من الفلسفة والحكمة والطب والكيمياء والمنطق والفلك ،
وقد ترك اللسان العربي أثره واضحاً في اللغات الإسلامية الأخرى .

(ثامن عشر) للغة العربية طريقة عجيبة في التوليد والاشتقاق ، جعلت آخر
هذه اللغة يتصل بأولها في نسيج ملتحق من غير أن تذهب معالمها
أو ينبهم ما خلفه السلف من تراث على الأجيال بعدهم ، فإذا
أخذنا مثلاً كلمة « كتب » واشتققنا منها كاتب وكتاب ومكتبة
ومكتوب ومكتب وجدنا أن الحروف الأصلية موجودة في كل
كلمة من هذه الكلمات المشتقة ، وأن معنى الكتابة موجود
كذلك ، على عكس اللغات الأوربية حيث لا توجد في كثير
من الأحيان صلة ما بين كلمات الأسرة الواحدة ، فكتب في
الإنجليزية (Write) والكتاب (Book) ومكتبة (Library)
ولا علاقة بين حروف هذه الكلمات ، وهذا ما جعل لغة مثل
الإنجليزية تختلف من جيل إلى جيل ولا توجد تلك الصلة اللغوية
بين ماضيها وحاضرها ، فلغة شكسبير وهو من أدباء القرن السابع
عشر لا تكاد تفهم عند جمهرة المثقفين اليوم ، اللهم إلاّ المتخصصين
في الأدب الإنجليزي ، وهذا يرجع إلى اختلاف النطق وتطوره
من جيل إلى جيل وإلى نمو اللغة بطريقة غير طريقة الاشتقاق
العربي وانقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة في غالب
الأحيان (١) .

---

(١) من بحث لعمر الدسوقي .



الكتابُ الأوّل

اللغةُ العربيّةُ : لغةُ القرآن

البابُ الأوّل

تاريخ اللغةِ العربيّة

الفصل الأول

ما قبل الاسلام

من بين ثلاثة آلاف لغة تستعمل اليوم في العالم حسب آخر تقديرات الباحثين تبدو اللغة العربية نتاجاً متميزاً وشيئاً مختلفاً من العسير أن يخضع في دراسته للقوانين التي وضعت لدراسة اللغات .

وإن نظرة واحدة على تاريخ نشأتها قبل أن تتصل بالقرآن الكريم لتكشف عن ذلك الإطار الذي احتواها منذ عصرها الأول والظروف والأوضاع التي أحاطت بها والتي ظهر من بعد كيف كانت تعدها لأخطر مهمة ولأكبر رسالة : لأن تكون لغة الكتاب الخاتم المنزل من السماء ورسالة الدين الذي جاء للعالمين وللناس كافة .

ولا يعني هذا أن اللغة العربية لغة مقدسة أو لها طابع غامض أو سحري أو نحو ذلك ، ولكن يعني هذا أن تركيبها الأساسي كان غاية في القوة بحيث استطاعت أن تحمل رسالة السماء وكلمات الله وأن تؤدي ذلك كله للبشرية على نحو غاية في القدرة والاقتدار .

ولكن اللغة العربية بعد هذا تجري عليها سنن الأمم والحضارات من

ضعف وقوة وامتداد وتقلص ، وقد مرت في القرون الأخيرة بفترة تحدٍّ غاية في الخطورة ولا تزال تواجه التحدي في صلابة وقوة بعد أن استمرت أكثر من عشرة قرون لغة العلم والفكر والسياسة في العالم كله .

واللغة العربية فرع من مجموعة اللغات التي ظهرت في الموطن العربي (ولا أقول إنها فرع من فروع اللغات السامية) كما ذهب الكثيرون بعد أن ثبت خطأ النظرية السامية وفسادها وارتباطها بالدعوة الصهيونية التلمودية في العصر الحديث في محاولة اتخاذ العهد القديم أساساً لتاريخ اللغات والأجناس ، مما جرى عليه البحث الغربي الوافد وتابعه دعاة التغريب والمبشرون والمستشرقون جميعاً دون تدبر أو اعتبار للحقائق التاريخية .

وهي أخت اللغات التي كان يتكلم بها الكلدانيون والآشوريون في العراق والسريانيون والفينيقيون في الشام والحبشة فيما وراء الساحل الغربي من البحر الأحمر (بحر القلزم) ، ولها صلة عظيمة جداً بلغة قدماء المصريين .

« وكانت هذه اللغات في العصور الأولى متشابهة بحيث يعتبرن كلهن لهجات لغة واحدة » : هي اللغة الأولى القديمة التي انصهرت في هذه اللغات من بعد .

« ومن هنا استطاع سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام أن ينتقل بين العراق والشام ومصر والحجاز وأن يتفاهم مع جميع سكان تلك الأقطار ، إذ لم يكن يومئذ بين لغاتها من فرق إلاّ كما يوجد الآن بين لهجات العربية في المغرب ومصر والشام وسائر هذه البلاد » (١) .

ويرجح الباحثون أن اللغة الأم « التي ترجع إليها كل هذه اللغات ذابت فيهن » .

ومن الواضح نتيجة الدراسات المختلفة التي أجريت على مأثورات اللغات التي ظهرت في الموطن العربي قبل الإسلام « تحمل على القول بكل حزم وتأكيد أن العربية أرقاهن ، ومعنى هذا أنها أعرقهن في القدم ، فلا تبعد أن تكون البنت البكر لأمها الأولى » (٢) .

(١ و ٢) السيد محب الدين الخطيب : الزهراء م١ .

٢

كانت اللغات التي اتصلت بالعربية من ناحية الأم هي السريانية والعبرية والفينيقية والآشورية والبابلية والحبشية ، وفي وقت ظهور الإسلام ونزول القرآن كانت القبطية في مصر والبونيفية في الشمال الإفريقي والنبطية في العراق واللاتينية في الشام ، وكانت القبطية في مصر تطوراً من اللغة المصرية القديمة والبونيفية لغة القرطاجيين وغيرهم في شمال أفريقيا . وكانت هناك اللغة الفارسية القديمة في فارس والرومية في الشام .

ومن مقارنة هذه اللغات بالعربية (كالكلدانية والآشورية والفينيقية والعبرية) يظهر الفرق البعيد المدى والبون الشاسع بين كمال العربية ووضوحها وفقر اللغات الأخرى وغموضها . ويرجع سبب ذلك إلى « عراقة العربية وقدم تطورها حتى بلغت مرتبة الكمال والنضج ، عندما كانت اللغات السامية الأخرى في أوائل مراحل التطور (١) » .

وإذا كانت اللغة العربية هي أرقى لغات اللغة الأم أو البنت الكبرى على حد تعبير أغلب الباحثين فإن لغة قريش كانت أرقى لهجات اللغة العربية وهي التي بها نزل القرآن الكريم ، ويرجع ذلك إلى أن القبائل العربية كانت تتوارد إلى مكة في موسم الحج ، وكان القرشيون يختطلون بهم فيأخذون من لغاتهم ما رقّ وسهل ، فأصبحت لغتهم من أعذب اللهجات العربية ألفاظاً وأشملها لجميع المعاني والتصورات (١) ، ويرجع مؤرخو اللغة هذا التطور إلى ثلاث مراحل :

(التهذيب الأول) : يرجع إلى عهد إسماعيل عليه السلام فقد حدث اختلاط بين العربية والعبرية فترقت العربية .

---

(١) مجلة الأزهر م ٢٨ سنة ١٩٥٦ .

(التهذيب الثاني) : عهد تشعب القبائل العدنانية من ذرية إسماعيل ، فإن هذه القبائل لما تباعدت بطلب العيش كثرت علاقاتها واتسعت دائرة معاملاتها وطاوعتهم اللغة بما فطرت عليه من قبولها للترقي وصلاحها للاتساع .

(التهذيب الثالث) : اختصت قريش بتهذيب اللغة ، فإنها لما كانت قائمة على سدانة الكعبة ومثابة للقبائل العربية كافة ، كانوا يجتمعون في موسم الحج فيتعارفون ويتعاملون ، وكانت قريش تقوم منهم مقام المضيف ، فتسمع من لهجاتهم ما لم يتسن لسواها فكانت تأخذ ما رقّ من مشهور تلك اللغات ، وكانت قريش ترحل إلى الشام واليمن وفارس والحبشة للاتجار مما سمح لها بدوام التهذيب لأسلوبها ، ومن العوامل التي أثرت في تهذيب اللغة في هذا الدور : الأسواق التي كانت تقيمها العرب للتعامل والتفاخر وتناشد الأشعار .

ولسوق عكاظ بين نخلة والطائف تاريخه الحافل (١) .

٣

كل هذا كان له أثره البعيد في إعداد لهجة قريش لتلقي رسالة وحدة العرب الفكرية واللغوية . يقول السيد محب الدين الخطيب :

« أرى أن من معجزات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي لم يذكرها العلماء في جملة معجزاته أنه أعاد للبلاد السامية وحدتها القومية واللغوية بعد أن فرق بينها كرّ الأزمان وترامي الأوطان ، فأصبحت اللغة العربية لغة الأمم (السامية) كما كانت أمها اللغة (السامية) الأولى لغتهن قبل التشتت والانقسام »

---

(١) محمد فريد وجدي ، دائرة المعارف جـ ٦ .

ويرى الباحثون « أن اللغة الأم قد بلغت قبل ألوف السنين الطور الذي جعلها تتفرع إلى لهجات صارت فيما بعد لغات مختلفة وهكذا كانت (العربية العدنانية) هي بنتها الكبرى تتحول رويداً رويداً إلى لهجات يتباعد بعضها عن بعض » (١) .

« كانت العربية عند ظهور دين التوحيد لغة قبائل : لربيعة في شمال جزيرة العرب لهجة ، ولتميم وقيس ومن انضاف إليهم في وسط الجزيرة لهجة . ولكنانة وهذيل وثقيف وخزاعة وأسد وضبة وألفافها من عرب الحجاز وتهامة لهجة ، فضلاً عن لغة اليمانيين في جنوب الجزيرة ، وكانت لهجة القبيلة الواحدة تفترق عن لهجة غيرها في مادة اللغة وفي كيفية النطق بها » .

وهذا ما وحد العرب مرة أخرى بعد أن اختار القرآن لهجة قريش . وما تزال العربية في جميع الدراسات التي تناولتها قبل الإسلام تشهد بسبقها وامتيازها . يقول المطران يوسف داود مطران السريان في الموصل في كتابه التمرنة في الأصول النحوية :

ومع أن السريانية لغة الأصل الذي يرجع إليه المطران والعبرانية لغة الدين والكتب المقدسة التي تتقيد بها ، فإنه خرج من تلك المقارنة بنتيجة واضحة صريحة هي أن العربية أعرق في الأصالة من جميع اللغات التي تكلم بها الساميون وأنها اكملهن وأجمعهن لما فيهن من محاسن ، ولذلك تمكنت العربيّة من اكتساح العبرية والسريانية وإبادتهما منذ أجيال واستولت على جميع بلاد العبران والسريانية .

---

(١) محب الدين الخطيب ، المصدر السابق .

٤

قرر علماء اللغات في الشرق والغرب على أن اللغة العربية هي أحدث اللغات المنتمية إلى اللغة الأم ظهوراً ، ومع ذلك فإن فيها من الخصائص وعوامل النمو والاكتمال ما أعانهم على تفهم اللغات الأخرى من ذات الأرومة ، وما فيها من المخلفات اللغوية ، وقد أجمعوا — لوجود التشابه في الكلمات وتركيب الجمل والمخلفات اللغوية بين هذه اللغات ذات المصدر الواحد واللغة العربية — على أن ما سمي بالشعوب السامية قديماً قد هاجروا شرقاً وشمالاً وغرباً من جزيرة العرب واستوطنوا العراق والشام ومصر والحبشة ، وأن سيل الهجرات لم ينقطع على مدى العصور وأن كثيراً من القبائل العربية ظلت تنتجع الوديان الخصبة المجاورة للجزيرة قروناً طويلة ، وتقيم فيها إقامة دائمة إلى أن جاءت موجة الهجرة الكبرى بعد الفتح الإسلامي . ومن ثم يصح أن نطلق على هذه الهجرات اسم الهجرات العربية ، وقد قرر إجماع العلماء أن الجزيرة العربية هي مصدر هذه الشعوب جميعاً ، وأنها قد خرجت في موجات متتابعة ، وأن اللغة العربية هي أدنى هذه اللغات إلى اللغة الأم ، حيث لم تتعرض الجزيرة العربية للغزو الخارجي وبقي للغة نقاؤها وخلوها من الدخيل والتأثيرات الأجنبية التي لحقت أخواتها في مهاجرها حيث اختلطت باللغات التي وجدتها ثمة وحيث احتلطت بها البيئات العديدة، فدخل فيها من الكلمات وطريقة النطق ما جعلها لغات مستقلة ، وإن ظل اشتقاقها وطريقة نموها وهندسة جملها والجزء الأعظم من مفرداتها واحداً » (١) .

(١) عمر الدسوقي : وحدة اللغة (ملامح المجتمع العربي) مجلة المجتمع العربي .

٥

ويذهب إلى هذا الرأي بالنسبة لأولية اللغة العربية صاحب كتاب التاريخ العام للغات السامية (أرنست رينان) :

« من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية: (العربية) وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى وعند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، ولقد كانت هذه اللغة مجهولة من الأمم ، ولكنها من يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال وإلى درجة أنها لم تتغير أيّ تغير يذكر ، حتى أنها لم تعرف لها في كل أطوار حياتها ، لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ولا نعلم شبهاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة » .

ويقول رينان :

« لقد استفاض انتشار اللغة العربية فاستولت على أوسع المسافات وأبعد البلدان ، أجل لقد كان لليونانية واللاتينية مثل حظها في أن تصبحا لغتين عالميتين تذيعان عقيدة دينية وتنشران أنظمة سياسية تغلبت على تباين الشعوب والأجناس والمشارب في توحيد الكلمة وتعريف الغاية ، فشاعت اللاتينية في كمبانيا إلى الجزر البريطانية ومن نهر الرين إلى جبال أطلس ، وشاعت اليونانية من صقلية إلى شواطىء دجلة والفرات ومن البحر الأسود إلى بلاد الحبشة ولكن ما أضأل هذا الانتشار إذا قوبل بانتشار اللغة العربية التي تناولت اسبانيا والقارة الأفريقية حتى خط الاستواء وسيطرت على آسيا الجنوبية حتى جاوة واقتحمت من الروسيا ما اقتحمت شاملة كاسوفيا »

٦

يرد الباحثون « نشأة (١) اللغة العربية إلى هجرة بعض القبائل اليمنية إلى الحجاز وإقامتهم به ومنها قبيلة جرهم ، ثم وند إسماعيل وأمه هاجر المصرية وأقاما بمكة مع جرهم وتزوج إسماعيل منهم وترعرع بنوه يأخذون من لغة أمهم القطمانية ولغة أبيهم (وهي ليست العبرانية لأن العبرانية لغة نشأت بعد ذلك بوقت طويل) . وكانت اللغات متقاربة الأصل في ذلك الوقت . ولغة جدتهم المصرية فكانوا نواة العرب المستعربة على نحو ١٩٠٠ قبل الميلاد وكشفت البحوث والكشوف على أن اللغة القطمانية أصل من أصول العربية ، وأن مئات الكلمات فيها تتفق مع العربية نطقاً وتركيباً ، كذلك فقد ثبت صلة المصرية القديمة باللغة العربية مما كشفه الباحث احمد كمال باشا :

يقول : إن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد وإن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلاّ نتيجة إسقاط بعض الكلمات في الجزيرة العربية وبقائها في وادي النيل ، أو العكس ، ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والإبدال ومما يطرأ على اللغات من تغيير بمعاملة الأجانب وخاصة أثناء الامتزاج بالجنس الحامي (٢) .

كذلك فقد أجمع الرأي على وحدة اللغات أخوات العربية وكشف عن خصائص تؤلف بينها منها اعتماد هذه اللغات على الحروف الصامتة دون الأصوات ، وأن أغلب الكلمات ترجع في اشتقاقها إلى ذي حرفين أو ثلاثة ، كذلك فإنه ليس في هذه اللغات كلمات مركبة أو معنى مركب نتيجة إدماج كلمتين في واحدة (٣) .

ويشير الباحثون إلى اندماج اللغة اليمنية في اللغة العربية بعد انهيار سد

---

(١) عمر الدسوقي : وحدة اللغة .

(٢ و٣) محمد عزة دروزة ، تاريخ الجنس العربي .

مأرب ١١٥ ق م ، وهجرة اليمنيين بلسانهم وحضارتهم إلى مكة والمدينة وتغلغلهم في بلاد العدنانيين ومخالطتهم ، وقد حملوا معهم لغتهم السبئية والحميرية وما بها من كلمات جديدة ليس للعدنانيين بها عهد ، وقد اختلطوا بالعدنانيين اختلاطاً شديداً فأدى ذلك إلى اندماج اللغتين وتكوين لغة واحدة يفهمها الجميع .

وقد ظلت اللغتان تتفاعلان مدى خمسة قرون ثم تكونت منهما لغة واحدة أصبحت لغة الشعر والخطابة وهي التي نزل بها القرآن الكريم .

فقد انتشرت هذه اللهجة الموحدة في جميع أنحاء الجزيرة قبل الإسلام وروي بها الشعر الجاهلي كله ، وصار يفهمها حتى أهل اليمن أنفسهم وذلك لتمام نضجها وكمالها وقدرتها الفائقة على التعبير وخلوها من النقائض القبلية ثم لقوة المتكلمين بها من أهل الشمال وسيطرتهم التامة على شؤون الجزيرة .

ومن أسواق عكاظ وذي المجنة وغيرها تأخذ قريش خير ما في لهجات العرب ، وكان لذلك الأثر البالغ في صقل اللغة وتهذيبها (١) ويشير بروكلمان في وصف اللغة العربية قبل الإسلام : إلى أنها « تتميز بثروة واسعة في الصور النحوية ، وتعد أرقى اللغات السامية تطوراً من حيث تراكيب الجمل ودقة التعبير ، أما المفردات فهي فيها غنية غنى يسترعي الانتباه ، ولا بدع فهي نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل حتى بهر ثراؤها علماء اللغة ومؤلفي المعاجم وصار هذا البدوي القوي الملاحظة قادراً على أن يصور بلغته كل دقائق الحياة الصحراوية والصفات والحيوان إلى غير ذلك من الأمور .

ولقد كانت اللغة العربية قادرة على الإيضاح عن أرقى عواطف الحب والشوق وما ماثلها ، وعلى الرغم من نزعتها الواقعية فلها روعة شعرية فتانة » .

---

(١) بتصرف عن عمر الدسوقي ، وحدة اللغة .

الفصل الثاني

أثر القرآن في اللغة العربية

كانت اللغة العربية القرشية قد تأهبت لتلقي هذا الحدث العظيم من خلال الأحداث التي جرت من حولها خلال قرنين كاملين استمداداً من اللغات ذات الأصل الواحد وانتقاءً من أسواق العرب واندماج لغات الجنوب فيها حتى ليصح لباحث من الباحثين أن يقول : إننا « إذا ما قارنا لغة الشعر الجاهلي بلغة القرآن الكريم أدركنا أن الله سبحانه وتعالى قد خاطب العرب في كتابه العزيز بأصفى لغاتهم وآمن أساليبهم وأبلغ تشابيههم واستعاراتهم وألطف كناياتهم وأوجز تعابيرهم ، من أجل ذلك لم يكن أثر القرآن قاصراً على وقف تقهقر العربية الفصحى فحسب ، بل كان عاملاً على ترقيتها بردها إلى ما كانت عليه من الصفاء والمتانة » .

ويقول ابن جني في الخصائص : نزل القرآن بلغة العرب التي كانوا ينظمون فيها شعرهم ويلقون فيها خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم . [وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم] وجاءت صفة (مبين) نعتاً للسان العربي والقرآن وللكتاب والرسول

---

(١) من بحث لعمر فروخ .

اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم [وهذا لسان عربي مبين] .

ولا ريب أننا « إذا أخذنا في الاعتبار وجود لغات عدة وقت التنزيل بدا لنا فضل العربية وشرفها على سائر اللغات وتكريم الله باختيارها لغة لكتابه الأخير [إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون] .

[فإنما يسرناه بلسانك] .

[كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً] .

كل هذه الآيات الكريمة دلائل بينات على وجوب جعل الله العربية لغة المسلمين كافة : ومن ثم فقد أخذت اللغة العربية تمتد مع نمو الإسلام واتساعه حتى غدت اللغة الأولى في العالم الإسلامي كله ، بحسبانها لغة الثقافة والفكر ولغة الصلاة والعبادة ، ولقد ارتبطت العربية بنزول القرآن بها بالإسلام رباطاً محكماً حتى أصبح على كل مسلم في كل مكان أن يعرف العربية وأن يفهم بيانها ليفهم القرآن وليكون دينه صحيحاً وقد أشار الإمام الشافعي إلى هذا المعنى في كتاب الأم حيث قال :

« إذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع ، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا يجوز والله تعالى أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه » .

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، ما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه ، كان خيراً له كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر ».

٢

ما هي المزية التي تفرد بها القرآن دون الكتب المنزلة في أمر اللغة :

يقول فيليب دي طرازي : أصبح المسلمون بقوة القرآن أمة متوحدة في لغتها ودينها وشريعتها وسياستها فقد جمع شتات العرب ، ومن المقرر أنه لولا القرآن لما انتشرت اللغة الفصحى في الخافقين ، ولولا القرآن لما أقبل الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها ، ولولا القرآن لظل أهل كل بلد من البلدان التي انضمت للإسلا م ينطقون بلهجة يستعجمها أهل البلد الآخر، وقد حفظ القرآن التفاهم بالعربية بين الشعوب الإسلامية وبين العرب .

ولما تقهقرت الدولة العربية وتقهقرت معها الحضارة الإسلامية نخشي أن تندثر لغة تلك الدول وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على أمرها ، غير أن اللغة العربية قد استعصت على نكبات الدهر بفضل القرآن .

ومن روائع تأثير القرآن أن اتجه المسلمون من غير العرب يرتلونه بلغته العربية ويحافظون على تجويده ويشرحونه لأبناء لغاتهم .

تلك مزية تفرد بها القرآن دون غيره من الكتب المنزلة فالتوراة مثلاً لا يقرأها بلغتها العبرية إلاّ أحبار اليهود ونفر ممن تفرغوا لدرسها ، أما سائر اليهود فإن كلاً منهم لا يقرأ التوراة إلاّ بلغة سكان البلاد التي يعيش فيها ، وقس عليهم كل المسيحيين في أنحاء العالم بأسره ، فإنهم يقرأون الكتاب المقدس مترجماً إلى اللغة الجارية بالاستعمال لدى كل شعب أو كل ملة منهم ، فلا يقرأه بلغاته الأصلية أعني بالعبرية والسريانية واليونانية إلاّ العلماء فقط ، وفئة من نصارى الشرق الأدنى وفريق من نصارى الملبار في الهند .

« والقرآن هو الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأوطانهم ، وأحدث انتشاره تأثيراً كبيراً في أخلاق الشعوب التي دانت بالإسلام وفي عقولهم وآرائهم وميولهم ، فأدمجوه في كل شأن من شؤونهم دينية ودنيوية . واتخذوه مصدراً لقضائهم ودعامة لمنازعهم السياسية وسائر أمورهم ، وتتجلى الصبغة القرآنية في مؤلفي الإسلام ومؤلفاتهم ولئن كتبوا في مواضيع لا صلة لها بالدين ، تشهد على ذلك مصنفاتهم في الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والطب والفلسفة والتاريخ حتى الصرف والنحو .

« وخلاصة القول أن للقرآن في لغة العربية البحتة تأثيراً عميقاً جداً ، وقد حرص المسلمون بقوة القرآن وما برحوا يحرصون على سننه وفرائضه ونوافله واعتنوا غاية الاعتناء بضبط سوره وآياته وأجزائه وأحزابه وألفاظه وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته ، وتوافروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصريحاته وكناياته ودقائقه ونكاته » (١) .

٣

وقد تأكد أن القرآن الكريم « هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور . وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم كما ماتت لغات حية كثيرة في سالف العصور ، إلا العربية ، فستبقى بمنجاة من الموت وستبقى حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر . ولا غرو فهي متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية ، فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الذي تحتمي به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ودسائسها الهدامة » .

---

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ المصاحف .

ولا ريب أن القرآن هو مصدر تلك الظاهرة الخطيرة الغريبة وهي أننا « نفهم الآن لغة امرىء القيس وقد مضى عليها خمسة عشر قرناً بينما لا تستطيع أية لغة أن تبقى على إهابها أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون ثم تتقمص صورة جديدة أما لغتنا فهي وحدها اللغة الخالدة » (١) .

يقول الدكتور عمر فروخ : نحن نقرأ القرآن الكريم اليوم باللفظ والصوت والأداء والوصل والفصل والوقف التي كانت في أيام الرسول لا نخل بلفظة أو كلمة أو حرف من حركة أو همسة أو نبرة ، بهذه العناية البالغة بالقرآن الكريم عاشت اللغة العربية الفصحى في ثوبها الذي كان لها قبل ستة عشر قرناً أو تزيد . ومضى المسلمون بعد ذلك يتقنون ألسنتهم بلغة القرآن ويقومون كلامهم بكلامه ويطبقون أساليبهم على أساليبه تضميناً واقتباساً وحفظاً ، لا محاكاة وتقليداً ، حتى أصبح القرآن سوراً للغة العربية الفصحى يدفع عنها كل أذى ، ويرد عنها كل عادية ، وبذلك حفظت اللغة العربية الفصحى مما خضعت له سائر اللغات من التقهقر والتشعب والضياع والاندثار . ومن هنا أصبح الطفل العربي اليوم في المدرسة يقرأ نماذج من الشعر الجاهلي فلا يتعثر في لفظها ولا يتردد في معناها ، وإن أثر القرآن الكريم لم يقتصر على العرب وحدهم بل تعدى إلى غير العرب » .

ومن هنا أيضاً نعرف أن لغات ماتت عندما ماتت أممها كالسنسكريتية واللاتينية والسريانية والآشورية . أما اللغة العربية فقد امتازت بمزية ضمنت لها البقاء ألا وهي القرآن .

وكذلك هناك اللغات التي غيرها الإسلام وأثر في تركيبها وكيانها وصاغها من جديد ومنها اللغة الفارسية التي تحولت إلى اللغة الفارسية الجديدة ، وأصبح

(١) ادوار مرقص ، مجلة النور (اللاذقية) م ١ .

نصف معجمها وأساليبها وأوزانها مما جاءها من العربية حتى صارت لساناً آخر غير اللسان الجاهلي ، كذلك الأمر في لغة الترك والأكراد وسائر اللغات في آسيا وأفريقيا فقد « فقدت كل لغة من هذه اللغات أكثر خصائصها الجاهلية وألزمت نفسها الدخول في عربية القرآن » .

٤

وخاصية أخرى من آثار القرآن في بناء اللغة العربية هي ثبات لفظ القرآن العربي ثباتاً ارتبط بالشريعة والأحكام .

وفي هذا يقول أحد الباحثين : « إن لفظ القرآن وهو كلام الله المنزل على رسول الله كما هو ، وكما انحدر إلينا بالتواتر والتوارث الذي منع عن أي لفظ أن يدخله تغيير أو تبديل مرتبط أشد ارتباط لا بعقائد المسلم وعباداته فحسب ، بل بتشريعه واقتصاده وعلمه وفلسفته وحروبه وجهاده بل بتفاصيل حياته اليومية وخطرات نفسه وآداب معاشرته ، فلا يكاد يوجد شيء في حياة الإنسان المسلم إلاّ وله في القرآن هدى هو نص ، أو هدى هو استنباط ولا في خاص أمره ولا في عام أمر المسلمين ولا في علاقة المسلمين بالأفراد من غير أهل ملتهم ، أو الأمم التي لا تدين بدينهم . ويستنبط من النص أحكام للوقائع الحادثة التي تجدّ في حياة الناس وللاستنباط أصول ضابطة بها يتبين الناس كيف يختلفون وأي شيء من أحكامه المستنبطة هو الذي يقبل فيه الاختلاف وأيها الذي لا يقبل فيه الاختلاف ، لأن لفظ القرآن العربي يأباه ، وكذلك الشأن في حديث رسول الله إذا صح عندنا من الوجوه التي يصح بها الحديث وعلم تصحيح الحديث وموقفه من العلوم التي انفرد بها المسلمون وجاوزوا فيها بما لم تأت بمثله أمة من الأمم إلى يوم الناس هذا » .

ومن هنا فإن الدعوة إلى تيسير النحو تحول دون فهم القرآن والأحاديث النبوية والشعر الجاهلي وكلام الأقدمين .

ويكشف المستشرق براون عن وجوه الخلاف بين القرآن والكتب المقدسة فيقول : « نحن نختلف مع المسلمين في كوننا نعتبر الإنجيل إنجيلاً سواء أقرأناه في اللغات الأصلية التي كتب بها أم في لغتنا الحالية ، أما المسلمون فيعتبرون القرآن كلمة الله وأنه تنزيل من رب العالمين وأن الله هو الذي يخاطبهم وليس النبي محمد ، لذلك فإن القرآن لا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى لأن المترجم مضطر أن يورد في ترجمته قدراً من التفسير يستعين به على إظهار معانيه .

« بالإضافة إلى هذا . فإن المسلم سواء أكان فارسياً أم تركياً أم هندياً أم أفغانستانياً أم من أهل الملايو فإنه يؤدي القرآن باللغة العربية فضلاً عن أن يتلفظ بالشهادتين باللغة العربية .

« يضاف إلى هذا أننا نجد أن لغات الشعوب التي اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية يتكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين والفقه .

« ولو أن أحداً أراد أن يكتب شيئاً بالفارسية بحيث تكون كتابته خلواً من الألفاظ العربية لتعذر عليه الأمر كما يتعذر على الذي يريد أن يكتب شيئاً بالإنجليزية بحيث تكون كتابته خالية من كل كلمة يرجع اشتقاقها إلى أصل يوناني أو لاتيني » .

وهكذا تبين مدى عجز اللغة التي يترجم إليها القرآن من استيعابه فالقرآن قد نزل باللغة العربية ولها طابعها البياني الخاص . فإذا ترجم إلى لغة أخرى فقد هذه الخاصية ولم يبق إلا أن يسمى ترجمة معاني القرآن لا القرآن نفسه ، أما القرآن نفسه (أصل الإسلام) فإن الأسلوب العربي بخصائصه الثابتة هو جزء لا ينفصم عن جوهره ولا يمكن التجاوز عنه البتة ، ومقتضى هذا أن العرب هم الذين وكل إليهم فقه الرسالة :

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ .

والعربي كل من يفقه اللغة العربية ولو كان من الزنوج » (١)

٥

ومن الحق أن يقال دون تردد أنه لا يعرف في تاريخ البشر كلام قارب القرآن في قوة تأثيره في القلوب والعقول ، أو بريء من التناقض أو الاختلاف .

[ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] .

وإعجاز القرآن قائم « بأسلوبه ونظمه وبلاغته وبما فيه من علم الغيب ولسلامته من الاختلاف وبعجز الزمان عن إبطال شيء منه وبتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر فضلاً عن مخالفة نظم القرآن لنظم العرب » .

هذا فضلاً عن بلاغته المعجزة « وحد البلاغة أن يبلغ المتكلم به ما يريد من نفس السامع بإصابة موقع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس ولم يعرف في تاريخ البشر كلام قارب القرآن من قوة تاثيره في العقول والقلوب » .

وقد أثر القرآن في وحدة اللغة العربية فبفضل القرآن امتدت الحياة في لغة قريش نحو خمسة عشر قرناً ، ولو أن العرب خلت حياتهم من الإسلام لكان من المستحيل أن يكون في الدنيا إنسان يفهم ما أثر من لغة قريش قبل القرآن بقرن أو قرنين .

ولقد أثر القرآن في الشعر الجاهلي فلم يستبق منه غير ما كان بلغة قريش، والأشعار التي شرقت وغربت بعد الإسلام هي الأشعار التي تساير القرآن من الوجهة اللغوية والنحوية .

---

(١) الشيخ محمد الغزالي ، ظلام من الغرب .

ولولا القرآن لظل الشعر مختلف الصيغ والأوزان والأشكال .

والقرآن هو الذي ساق العرب على اختلاف قبائلهم ومواطنهم ولهجاتهم في تيار واحد بحيث لم يبق من ماضي الجاهلية غير ما أراد القرآن أن يعيش » (١)

بل « إن من الشعراء من كان يتقيد نفسه حتى يحفظ القرآن وإن أبا إسحق الصابي وهو من غير الملة الإسلامية كان يقرأ سوراً من القرآن قبل أن يشرع في النظم والإنشاء حتى صح القول بأن بلاغة القرآن كانت تجري على سنان قلم أبي إسحق(٢) .

كذلك فإن القرآن وحد لهجات اللغة العربية وأحيا قاعدة التضمين لآيات القرآن في الكتابة وكذلك حفظ القرآن اللغة العربية من صروف الزمان وسيظل يحفظها إلى آخر الدهر ، وهو الذي جعل كثيراً من المنصفين يعرفون فضل محمد ومنهم رشيد سليم الخوري وإلياس فرحات ووصفي قرنفلي .

وقد كان القرآن وسيظل وسيبقى سفير اللغة العربية إلى مختلف الشعوب .

كذلك فتح الإسلام أمام اللغة العربية آفاقاً جديدة ونقلها إلى ميادين واسعة من الفكر والبحث بعد أن كانت تدور في فلك المشاعر الساذجة والعواطف اليسيرة من خلال حياة البادية وطبيعة القبيلة ومطامح الصحراء المحدودة . فقد جاء القرآن ليقدم للبشرية رسالة ضخمة واسعة الآفاق في مختلف مجالات السياسة والاجتماع والتربية والاقتصاد والشريعة .

ولا ريب أن القرآن « غيّر العرب تغييراً تاماً حيث نسخ عنهم ظل الجاهلية وأثار نفوسهم وألان قلوبهم وما جاءهم به « من صروف قول لم يعهدوها وفنون كلام لم يعرفوها مشتملة على أمتن قواعد الاجتماع وأصح أصول الشريعة » .

(١ و ٢) من نص للدكتور زكي مبارك .

وفي هذه المعاني يقول بروكلمان إنه « بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تصل إليه أي لغة من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى » .

أما جاك بيرك فيرى أن القرآن إنما يعني الكلمة المنزلة ويقول : إن هناك إجماعاً على سمو الأسلوب القرآني الذي لا يمكن الإتيان بمثله ، أما نولدكه فيؤمن بأن كل كلمة وحرف في القرآن اليوم هو كما كان في أيام محمد .

أما الدكتور ستنجاس فيتساءل :

ماذا كان مصير هذه اللغة العربية لو لم يكن محمد ولو لم يكن القرآن ؟ ويقول في الإجابة : إنه لولا القرآن لذهبوا وذهب معهم لسانهم وشعرهم المليء بالغزل والحرب ولكان للسائح المجازف مجال البحث والمخاطرة في سبيل جمع ما باد من هذا الكنز . ولما جاء القرآن أبقى بطبيعته على هذا التراث وأوجد من مختلف اللهجات العربية لغة موحدة مكتوبة ، هي لغة الأدب العربي إلى اليوم .

٦

جاء القرآن مخالفاً لكلام العرب في الطريقة والمذهب وإن جانس لغتهم في المادة والتركيب وكان تحدياً للعرب وكان حافظاً للعربية مخرجاً لعلومها .

« كذلك فقد وصل إلينا النص القرآني كاملاً خالياً من التحريف أو التغيير سالماً من التناقض الذي أصاب ما سبقه من الكتب المقدسة بحيث اختلط من هذه الكتب ما كان من كلام الله بما هو من حكايات البشر ووضع الكهان وتخيلات أصحاب الأهواء » .

والقرآن من عند الله وليس من كلام النبي ، وإن أسلوب القرآن ومحتوياته لبرهان قاطع على أن القرآن من عند الله ، إذ لم يكن بين عقائد أهل مكة وطقوسهم وبين تعاليم القرآن أي شبه أو اتصال . وقد تميز القرآن تميزاً واضحة عن جميع الأساليب الأخرى ، واختلف عن أسلوب النبي نفسه .

يقول العلاّمة محمد عبد الله دراز :

« أسلوب القرآن لا يعكس نعومة أهل المدن ولا خشونة أهل البادية ، وزن المقاطع في القرآن أكثر مما في النثر وأقل مما في الشعر ، وإن نثره ينفرد ببعض الخصائص والميزات ، فالكلمات فيه مختارة ، غير مبتذلة ولا مستهجنة ، ولكنها رفيعة رائعة معبرة ، الجمل فيها ركبت بشكل رائع حتى أن أقل عدد من الكلمات يعبر عن أوسع المعاني وأغزرها ، إن تعابيره موجزة ، ولكنها مدهشة في وضوحها حتى أن أقل الناس حظاً من التعلم يستطيع فهم القرآن دونما صعوبة وهناك عمق ومرونة في القرآن مما يصلح أن يكون أساساً لمبادىء وقوانين العلوم والآداب الإسلامية ومذاهب الفقه وفلسفة الإلهيات » .

وفي أسلوب القرآن نجد أنه وضع لبعض الألفاظ معاني جديدة وخاصة ما اتصل منها بالفقه الإسلامي كما استحدث ألفاظاً جديدة وأعرض عن ألفاظ فمنع استعمال مدلولاتها وأعاض عنها بغيرها وخاصة حوشي اللفظ .

كذلك أبطل سجع الكهان وطوابع الوثنية وأضعف فنون الفخر والاستعلاء والهجاء وطبع الحوار بطابع السماحة واقامة الحجة والبحث عن الدليل ، وأحل الإيجاز محل الإسهاب والحكمة مكان الإطالة وترك في الأسلوب العربي طابعه الوسيط السمح وأعطاه جزالة وسلاسة وعذوبة ووضوحاً . ذلك أن القرآن رقق القلوب وأفسح للعقول مجال النظر والفكر (١) .

---

(١) عن بحث الدكتور عبد المنعم خفاجي عن اللغة (جريدة الدعوة) .

٧

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن وأثره فيها هو التحدي الخطير الذي واجه الاستشراق والتغريب والغزو الثقافي والتبشير والاستعمار في العصر الحديث، فقد كانت الخطة ولا تزال موضوعة على أساس فصم هذه العلاقة وقطع هذه الصلة وعزل القرآن عن اللغة العربية ودفع اللغة العربية إلى الطريق الذي سارت فيه اللغات من قبل ان تتطور وتتغير ويجرفها تيار العصر ودعوات الهدم حتى ينتهي أمرها إلى مجموعة من اللهجات؛ فالخطر كله من لغة القرآن والهدف كله هو الفصل بين اللغة والقرآن حتى تفقد اللغة ذلك المستوى المرتبط بالقرآن وبيانه؛ فقد وضح من دراسة تاريخ اللغة كيف كان القرآن هو الحافظ لها من الضياع حتى في أشد عصور انحطاط اللغة التي بدأت باكتساح المغول والتتار وامتدت إلى آخر القرن الثالث عشر الهجري.

إن الهدف هو القضاء على قاعدة الثبات الوطيدة في الفكر الإسلامي التي تربط القيم كلها بها من ناحية وتدعها للحركة والتطور من ناحية أخرى دون أن تفلت أو تنعزل. والقرآن الكريم هو قاعدة الثبات الصامدة التي يرتبط بها الفكر الإسلامي واللغة العربية وكذلك الشريعة والتربية والاقتصاد والاجتماع.

ولا ريب أن المسلمين والعرب يعلمون جيداً هدف الغزو، وغرض الحملة، ويثقون تماماً «بأن زوال اللغة العربية لا يبقي للعربي أو المسلم قواماً يميزه عن سائر الأقوام ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان».

ويعلمون أن اللغة العربية ليست كسائر اللغات، وأن صلتها بالإسلام وارتباط القرآن بها قد منحها طابعاً ووضعاً مختلفاً أشد الاختلاف وأن هناك فرقاً واسعاً عميقاً لذلك كله بينها وبين اللغات الأخرى، يتمثل فيما يطلق

عليه (روح اللغة) ويعبر عن هذا المعنى رجل غربي اتصل بالإسلام واللغة العربية (١) .

فيقول : « ولكل لغة مجموعة من الرموز التي تعبر عن الإحس الخاص لشعب ما بقيمه الحياتية وعن طريقته الخاصة في التعبير عن تصوره للحقيقة » . وإن الفرق بين الاصطلاحات العربية وأية اصطلاحات أوربية ليس فقط مسألة قوالب نحوية أو صرفية ، كما أنه لا ينحصر في الطريقة التي يعبر بها عن الأفكار ولا في الحقيقة المعروفة عن اللغة العربية ونعني بها المرونة العجيبة التي تتميز بها قواعدها ونظامها الفريد في الاشتقاق الكثير من مصادر الأفعال ولا حتى تلك الثروة الضخمة من المفردات التي تحتويها العربية .

« إن الفرق في روح اللغة هو في إحساس أصحابها بالحياة وهو الإحساس الذي ينعكس بطبيعة الحال على اللغة باعتبارها وسيلة للتعبير .

« وما دامت لغة القرآن العربية هي اللغة التي بلغت نضجها الكامل في الجزيرة العربية منذ ١٤ قرناً فإنه من الطبيعي أنه لكي يستوعب المرء روح هذه اللغة بصورة صحيحة فلا بد أن يسمع هذه اللغة وأن يحس بها تماماً كما سمعها وأحس بها العرب في الوقت الذي نزل فيه القرآن الكريم وأن يفهم المعاني التي أعطوها هم للرموز اللغوية » .

ومن هنا يدرك المسلمون والعرب أن أعداءهم كلما أدركوا مدى الصلة بين الأمة ولغتها ازدادوا ضراوة في الهجوم عليها ومكراً في الكيد لها .

إن الهدف هو القضاء على القاعدة الثابتة الأصيلة التي تتصل بها القيم والمقومات حتى تسقط اللغة العربية والعرب والمسلمون في هوة التمزق والانهيار.

---

(١) هو : ليوبولد فايس الذي أسلم وتسمى (محمد أسد) .

٨

« أجمع المسلمون على أن القرآن بنصه العربي المنزل المحفوظ حتّى يومنا هذا هو وحده القرآن وأن ترجمته إلى لغة أخرى لا تسمى قرآناً وليس لها أحكامه فلا يكون مصدراً للاستنباط ولا يتعبد بها بل لا يجوز ترجمته ، ولكن ترجمة معانيه بحيث تعتبر الترجمة تفسيراً له باللغة الأجنبية وبناء على هذا الأساس حرص المسلمون على تعلم القرآن بنصّه العربي حفظاً وفهماً وبقدر الطاقة وأكثروا من تلاوته تعبداً بحروفه العربية التي اضطروا إلى تعلمها فكان ذلك عاملاً هاماً في تقوية هذه الصلة بين الإسلام واللغة العربية وفي انتاج النتائج الكثيرة .

الفصل الثالث

اثر الاسلام في العربية

يؤكد الباحثون في تاريخ اللغة العربية أنها كانت في قبيل نزول القرآن تمر بمرحلة الخطر حيث بدأ انحدارها ، « وأخذت تفقد منطق الاعراب جملة وتختلط فيها الصيغ ويعوج التركيب » فلما نزل القرآن « وقف تقهقر اللغة العربية حيث كان قد وصل ، ثم أخذت تستعيد صفوها وجزالتها وتهذبت حواشيها » .

« حدث ذلك لأن القرآن اكتسب في نفوس المسلمين قداسة وحرمة ، فكان هم المسلم أن يحافظ على كل صورة ، بل كل آية وحرف وحركة ، وهكذا أصبح منتهى أمل البلغاء والأدباء أن يطبعوا أساليبهم بأساليب القرآن إذ كان محرماً عليهم أن يعارضوه ، ثم كانوا بطبيعة الحال عاجزين عن مجاراته ، منذ ذلك الحين قدر للغة العربية أن تظل فصحى على الرغم من عوادي الزمن ومن سنة الهرم التي تنزل بالأشخاص والأمم والمؤسسات واللغات »(١) .

---

(١) القومية الفصحى ، عمر فروخ .

وقد نزل القرآن بلسان عربي « مبين » وورد لفظ مبين في القرآن نحو خمسة وخمسين مرة « مما يدل على أن اللغة العربية في الجاهلية كانت قد بدأت تغمض في التخاطب بنشأة اللهجات المختلفة ، وأصبحنا نسمع بلغة قريش ولغة تميم ، أما لغة اليمن فكانت قد انفصلت تماماً عن لغة أهل شمالي بلاد العرب » .

٢

بانتشار الإسلام شقت اللغة العربية طريقها إلى الآفاق ، وأخذت مكانها الصحيح ، عندما أخذ غير المسلمين في تعلمها ورغبوا في نقل كتبهم المقدسة إليها ثم نقلت إليها سائر العلوم ، « وبينما كانت لغات الشعوب المفتوحة في فقر مدقع ، كان اللسان العربي في ذروته ، فقد كانت الفارسية مهملة والقبطية مضطهدة ، والسريانية والعبرانية في مركز ضعف » .

أما في الشام فقد عرب عبد الملك بن مروان الدواوين فأصبحت العربية اللغة الرسمية .

ويرجع بعض الباحثين هذا الاتساع والنمو إلى ارتباطها بالقرآن ، فقد كانت سائر الأديان تقرأ كتبها في لغات مختلفة ، ولا يختص بمعرفة الأصل إلاّ طائفة قليلة من رجال الدين ، « أما المسلمون فقد اعتقدوا بحق أن لغة القرآن جزء من حقيقة الإسلام لأنها كانت ترجماناً لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولساناً لدعوته » .

ومنذ اليوم الأول لانتشار الدعوة الإسلامية : خطا القرآن بالعرب خطوات في سبيل توحيد اللغة شأنه في توحيد العقيدة .

ولقد «كان للتوحيد اللغوي والاجتماعي في الإسلام نوعان من التأثير في لغة العرب ، أحدهما داخلي والثاني خارجي.

« فتوحيد الأمة العربية نفسها جعل لغة قريش التي ظهر الإسلام فيها تحت تأثير لهجات من اختلطت قريش بهم من سائر العرب ، كما أنها هي نفسها قد كتب لها الغلبة عليهن لأن الله اختارها لكتابه وحكمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولأن الدولة الإسلامية مدة الراشدين وبني أمية وصدر من بني العباس كان كبار رجالها وذوو التأثير فيها من قريش وبني عمومتهم من مضر ، فذهب ذلك بلغات القبائل الأخرى ولم يبق منها إلاّ ما حفظه شعرها وما اندمج في لغة قريش فصار منها .

« أما التأثير الخارجي فقد تجلى في اختلاط العرب بسائر الأمم فنشر فيها لغة الضاد وأعاد إلى سلائل الأمم السامية وحدتهم اللغوية .

« غير أن اللغة العامية كانت قد انفرجت مسافة الخلف بينها وبين الفصحى فكان ذلك مما حمل علماء القرن الثاني للهجرة وما بعده إلى جمع مادة اللغة العربية من أفواه عرب البادية وفصحائها وشعرائها ممن لم يصل تأثير الأعاجم إلى بيئتهم ولم تشب ألسنتهم شائبة .

« وكان عملهم هذا من أعظم ما خدم به علماء أمة قوميتهم أنهم حفظوا مادة هذه اللغة ذات الأسرار العجيبة والتكوين المعجز ، ولو تأخروا في جمعها قرناً واحداً لكان ذلك الإهمال كارثة لا يقوى الزمان على تلافيها »(١) .

٣

حقق علماء اللغة العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين ما يمكن أن يطلق عليه « تقنين اللغة العربية » .

---

(١) السيد محب الدين الخطيب ، بحثه في الزهراء م ٢ .

وجمع ما تفرق من تراثها الشعري ووضع الأسس لموازين شعرها وقواعد نقدها الأدبي .

فنشأ المعجم وكان الخليل بن أحمد أول من فكر في وضع المعجم في اللغة العربية على النحو الذي رسمه في كتاب (العين) وتابعه عليه كثيرون من أمثال أبي منصور بن الأزهر في معجمه (تهذيب اللغة) ثم أبي الحسن بن سيده الضرير الأندلسي في معجمه (المحكم) .

وتطورت الطريقة على أيدي أمثال العلامة إسماعيل بن نصر بن حماد الجوهري الذي نظر إلى أواخر الكلمات المجردة لا إلى أوائلها ثم ظهرت طريقة النظر في الترتيب إلى أوائل حروف الكلمات المجردة وهي التي عمل بها أبو الحسن بن فارس في معجمه (المجمل) ثم نشأت علوم اللغة والفقه والكلام واتسع نطاق اللغة العربية اتساعاً بعيد المدى ،

وكان للقرآن أثره في اللهجات العربية في مختلف أنحاء الجزيرة فإنها لم تلبث أن تحولت بقوة إلى لغة القرون وتوحدت في لهجة الحجاز .

ثم استوعبت اللغة العربية ما ترجم إليها من الحكمة والطب والكيمياء والمنطق والفلك ومختلف العلوم .

وقد علل ابن خلدون انتشار اللغة العربية بقوله :

« كما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة » .

يقول كردعلي : « هذا اللسان على سعته وسلاسته لم يقف ولم يجمد فنقل

ألفاظاً من الفارسية والرومية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبطية والهندية وترك ألفاظاً عربية كانت مألوفة في الجاهلية واصطلح على كلمات عربية كانت تؤدي معاني أخرى قبل الإسلام » .

٤

قدمت اللغة العربية في ظل الإسلام مئات المصطلحات والاصطلاحات في مختلف الميادين :

(١) الاصطلاحات الدينية والشرعية والفقهية .

(٢) الاصطلاحات الفنية (كالإيلاء والظهار والعدة والحضانة) الخ .

(٣) الاصطلاحات اللغوية التي اقتضتها علوم النحو والعروض والشعر والأدب والإدغام وغيرها من أسماء البحور .

(٤) المصطلحات النحوية .

(٥) مصطلحات الحضارة والعلم والفلسفة والطب والكيمياء والطبيعة والرياضة والفلك والجبر والمقابلة .

٥

استطاعت اللغة العربية بوصفها لغة الثقافة والعلم والفكر والبيان أن تكسب عدداً كبيراً من أعلام المسلمين غير العرب فعملوا في محيطها وكتبوا آثارها بها من أمثال سيبويه ونفطويه والحسن البصري وابن سيرين وابن سلام والزمخشري والفارابي والفيروزابادي .

ولقد أحب هؤلاء اللغة العربية وربطوا أنفسهم بها رباطهم بالإسلام إيماناً بتلك العروة الوثقى بين الإسلام واللغة العربية .

ومن أمثال الصور الرائعة في هذا المجال شهادة الزمخشري في مقدمة كتابه (المفصل في علوم العربية) :

« الحمد لله الذي جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية لهم وإيماني أن أنفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وانضوي إلى لفيف الشعوبية وانحاز ، وعصمني عن مذهبهم الذي لا يجبه عليهم إلاّ الرشق بألسنة اللاغبين » .

لقد آمن هؤلاء أن الإسلام دين وجنسية وأنه أضاف الأمم إلى عربية القرآن كما جمعها على كلمة التوحيد .

ولقد ظهرت عشرات من الترك والفرس والأفغان والهنود والروس والأفريقيين من غير العرب ممن احتفظوا بإسلامهم ودانوا للعربية بالمقام الأول على لغاتهم الأصلية .

ومن هنا حق للدكتور عمر فروخ أن يقول : لا نعرف لغة كانت قبل العربية أو معها ثم استمرت مثلها مقروءة مكتوبة كما كانت قبل ألف وخمسمائة عام أو أكثر .

٦

يقول سير دنسون ردس في بحثه عن أثر اللغة العربية في العالم الإسلامي :

إن أثر اللغة العربية في تلك الممالك التي تتكلم لغات أخرى لا يقوم على أنها واسطة لفهم العقائد وإقامة الشعائر الدينية بل لأنها عامل منتج في الثقافة العامة ، وليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الأصلية للكتب المقدسة بذلك الشأن الخطير كما هو في الإسلام .

فإذا اعتبرنا البوذية والمسيحية وهما ديانتان تقومان بالدعاية فإننا نلاحظ

أن كتبهما المقدسة إذا أذيعت في ممالك أخرى فإنها تذاع بلغة تلك الممالك . وقل مثل ذلك عن التوراة والإنجيل فإنهما يقرآن في الأمم المسيحية بلغة كل منها ؛ إن دخول الشرق الأدني والأوسط والهند تحت نفوذ العرب قد أدى إلى ثورة عظيمة في الأدب والثقافة . ويرجع هذا في أساسه إلى ذلك التأثير المعجز الذي أحدثه القرآن في نفس كل من اعتنق الإسلام .

« فإن القرآن الذي هو كلام الله الذي أنزله على رسوله قد قوبل من المسلمين قاطبة بالاحترام والإجلال (أولاً) من أجل عبارته ذاتها لأنها تنزيل من الله (ثانياً) لما اشتمل عليه من الآيات البيّنات ، من أجل ذلك كان لزاماً على من يقبل الإسلام أن يقبل معه اللغة العربية : تلك اللغة التي نزل بها القرآن وأرسل بها الرسول .

« ومن هنا لا نجد لغة عربية غير مستعملة لا يفهمها إلاّ عدد محصور من العلماء كما كان الحال في ديانة زرادشت والديانة الهندية بل نجد لغة حية يتكلمها أولئك القوم الذين دعوا سكان الممالك التي فتحوها إلى الدخول في الدين الجديد .

ولقد أمدت العربية المستنيرين في أواسط آسيا بثقافة تعتبر جديدة من جميع الوجوه ، وبثت في قلوب هؤلاء أفكاراً طريفة وفتحت أمام عيونهم عوالم جديدة ، كما أمدت العربية الفرس والأتراك والهنود بلغة جديدة ، كذلك أمدت العربية بلاد فارس بخزائن من العلم إلى جانب لغة مكتوبة منظمة ، أو قل أمدت الفرس ببعث قومي جديد مع ثقافة جديدة ، فعلت هذا بينما الإغريق وقد حكموا الفرس نحو قرنين لم يتركوا فيها أي أثر أدبي كما أنهم لم يتركوا شيئاً في الهند ولم يترك الفارسي في مصر أي أثر » (١) .

---

(١) بتصرف ، مجلة الرسالة (المجلد الأول) .

٧

أجمع الباحثون على أن سعة اللغة العربية ترجع إلى مصادر ستة (١) : هي الارتجال والاشتقاق والقلب والإبدال والنحت والتعريب .

الارتجال : هو وضع ألفاظ جديدة للدلالة على المعاني الطارئة .

الاشتقاق : هو أخذ كلمة من كلمة أخرى مع تناسب بينهما في المعنى وتقارب في اللفظ .

القلب : ويسمى الاشتقاق الكبير وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى واللفظ دون الترتيب .

الإبدال : ويسمى الاشتقاق الأكبر وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى والمخرج .

النحت : وهو نوع من أنواع الاشتقاق وهو أن نعمد إلى كلمتين أو جملة كلمات فننتزع من مجموع حروف كلماتها كلمة واحدة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة كلها .

التعريب : تحويل كلمة أعجمية إلى عربية وقد جرى العرب في هذا السبيل شوطاً كبيراً فعربوا كثيراً من الكلمات الحبشية واليونانية والفارسية والهندية » .

ونستطيع أن نرى كيف تكون مادة (علم) في الاشتقاق :

علمنا ، أعلم ، يعلم ، نعلم ، اعلمْ ، اعلمي ، علم ، نعلم ، تعلم ، تعالم ، علم ، يعلم، علم ، علامة ، علماء ، عالمون ، فتعلم ، معلم ، معالم ، معلم ، معلوم ، عالم ، عالمون ، عالم ، عوالم .

---

(١) فريد وجدي ، دائرة المعارف مادة ، اللغة العربية .

وهذا ما لم تصل إليه أي لغة أخرى .

ومن يراجع لسان العرب لابن منظور الإفريقي يجده محتوياً على ستين ألف مادة فإذا كانت كل مادة تخضع للاشتقاق وما يتفرع منه على هذا النحو وجدنا أن مفردات اللغة العربية لا تكاد تدخل تحت حصر .

وقد كشف ابن جني في الخصائص ، وابن سيده في المخصص ، والثعالبي في فقه اللغة وأبو منصور محمد الأزهري في تهذيب اللغة عن أمثال بعيدة المدى في هذه الفنون الستة المختلفة .

هذا فضلاً عن أسماء السيف والأسد والمطر والريح والناقة والماء والبئر وغيرها .

٨

ويرد الباحثون إلى القرآن المرجع الأول الأساسي لرواة اللغة فقد اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج .

« وقد أثبتت جميع الدراسات اللغوية في وضوح أن سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها هو القرآن الكريم قبل غيره ، وذلك أن ألفاظاً كثيرة يرددها القرآن كانت مثار أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول » .

وكذلك يرجع إلى القرآن نشوء علم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو .

ويعد الشعر من المراجع الأساسية لحفظ اللغة وقد جمع منه كثير في كتاب الحماسة لأبي تمام والأغاني ، وتشكل الألفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد ثروة ضخمة .

وكذلك تعد (الأمثال) من المصادر الأصيلة للغة العربية «وهي ذات أهمية بالغة من حيث ارتباطها اجتماعياً وأدبياً بحياة العرب».

وقد اشتملت مصادر كثيرة لغريب الألفاظ كالأمالي لأبي علي القالي، والبيان والتبيين للجاحظ.

٩

من خصائص اللغة العربية «ثبات الحروف الأصلية الثلاثة في كل مادة مهما يطرأ على الكلمة من تبدل في اشتقاقها وصيغتها كحروف (ع ل م) فإن جميع الألفاظ التي اشتقت أو يمكن أن تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلماء والاستعلام والمعلومات والمعالم والتعليم والإعلام وغيرها من الألفاظ المشتقة من هذا الأصل تشتمل على جميع الحروف الثلاثة، ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الأصلي والمفهوم المشترك بين الألفاظ، وهكذا تبدو خاصية ثبات الأصول في صورتها اللفظية ودلالتها المعنوية.

«وهذه الخاصة هي التي يتطلبها الإسلام لإمكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه وأحكامه مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند أبنائها دون أن تحدث فجوة واسعة بين الأصل اللغوي المستعمل وما انتهى إليه في صورته ومعناه، وهكذا يبقى أبناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما بطل العهد به» أما اللغات الأخرى فإن الألفاظ فيها يعتريها التبديل والتحويل في صورتها حتى تتغير حروفها وأصواتها فلا تكاد تعرف أصلها ولا دلالتها المعنوية كذلك.

«وبهذا يصبح بين ألفاظ النص القديم وما انتهت إليه هذه الألفاظ في تطورها بون كبير، يؤدي إما إلى جهل المعنى القديم أو الوقوع في خطأ جسيم.

« فألفاظ الحق والمدعي والقضاء والحكم واليمين والبينة والشاهد والرهن والأجل والعقد والشرط والخصم وغيرها كذلك من ألفاظ العقائد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة من الناس إلى يومنا هذا » (١) .

١٠

لا ريب أن القرآن هو الذي حمل اللغة العربية معه إلى مختلف الأقطار المفتوحة وفسرها وأذاعها ، فلما انحسرت العربية عن بعض هذه الأقطار بقي القرآن علامة واضحة وبقيت العربية لغة ثقافية وفكرية لا سبيل إلى تخلفها واندثارها ، فالقرآن هو الذي جمع الأقطار الآسيوية والأفريقية على وحدة الفكر ، ثم هو الذي جمعها على وحدة التعبير والكتابة بالفصحى .

كذلك فإن لغة القرآن فرضت على العربية التزامها الإعراب الذي لم يكن شائعاً ولا مستعملاً على نحو ما التزمته نصوص القرآن . « فلغة التنزيل هي التي جعلت الإعراب سمة لازمة للعربية » كما أنها هي التي ابتكرت المجازات الدقيقة اللطيفة : من مثل « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، وقد قام المجاز بدور كبير في تطور اللغة وفي مسألة الدلالة » (٢) .

وعندما تعرضت اللغة العربية إلى محنة التتار وأزمة الغزو وما تبعها من تفكك سياسي وتخلف ثقافي اعتصمت بالمساجد والمعاهد ، وصمدت في وجه المحنة ، وكان مصدر صمودها القرآن الذي بقي يتلى ويقرأ في الصلوات والمجامع ، « لقد وقف القرآن سداً منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة وحال دون استشراء التفكك وذلك لكونه عربياً ولكون الإسلام يفرض على جميع المسلمين حفظ طائفة من آياته وتلاوتها »(٣) .

---

(١) من بحث للأستاذ محمد المبارك عن خصائص العربية .
(٢) من أبحاث مجلة اللسان العربي عن اللغة العربية والإسلام. (٣) ساطع الحصري.

وبذلك جماها القرآن من خطر التفكك التام وأنقذها من أخطر أزماتها .

وبالجملة فقد كان « الإسلام هو القوة الواقية التي أكسبت اللغة العربية نوعاً من المناعة ضد عوامل التفرع والتفتت » .

١١

وليس يستطيع الباحث تقويم اللغة العربية حقيقة إلاّ إذا كانت له تجربة ضخمة في اللغات الأخرى قديمها وحديثها ، ومن أبرز هؤلاء سليمان البستاني الذي ترجم إلياذة هوميروس إلى اللغة العربية ، يقول :

« إن اللغة العربية أطول اللغات الحية عمراً وأقدمهن عهداً والفضل في ذلك راجع إلى القرآن ، فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيورس على علو منزلتهما لم تقم للغة اليونانية دعامة ثابتة حتى في بلادها ولم تقو على مقاومة التيار الطبيعي . ولكن القرآن وطد لغة قريش في بلادهم وأذاعها في جميع البلدان العربية وفي سائر البلاد ،أو حيث كثرت مخالطة العرب للضاربين في أقطار الأرض للجهاد والتجارة .

« لا الماهابهارتا السنسكريتية ، ولا كتاب تاو للاوتسة ولا كتابات كونفوشيوس في اللغة الصينية ، ولا التوراة ولا الأناجيل قامت اللغات التي كتبت بها مقام القرآن للغة العربية ، فلولا القرآن لكان العرب اليوم يتخذون لهجاتهم وسائل إلى التعبير عن وجدانهم وأفكارهم ومجتمعاتهم ، ولكانت أمتنا العربية أصبحت شعوباً تتكلم لغات مستقلة كالألمانية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية .

١٢

« إن الواقع التاريخي للشعوب الإسلامية يؤكد التلازم بين اللغة العربية والإسلام ، فاللغة العربية سارت في ركاب الإسلام وحلت حينما حل ، ثم مضى الإسلام وحده إلى كثير من الأرجاء التي لم تتمكن اللغة العربية من اقتحامها أو انحسر مد اللغة وبقي الإسلام » .

وكذلك فإن أهل البلاد الناطقة باللغة العربية كانوا ولا يزالون « أقدر على فهم الإسلام لقدرتهم على فهم القرآن والحديث وهما المصدران الأساسيان لتعاليم الإسلام » .

وكذلك فإنه « بدون اللغة العربية لا ينتشر الإسلام لأن القرآن الكريم — — الذي أنزل على النبي العربي في غاية البلاغة والفصاحة ولا يمكن للغات الأجنبية أن تعبر عما جاء فيه — قد تحدى الأمم بأسرها :

[قل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً] ، كذلك الأحاديث النبوية . « فالإسلام كان أكثر ذيوعاً وانتشاراً في البلاد التي تحمل طابع العربية أو تتكلم بالعربية أو إن الإسلام يكون أكثر انتشاراً عندما ينفر المرشدون والموجهون العالمون باللغات الأجنبية بالإضافة إلى اللغة العربية .

« إن الإسلام ثقافة مبتكرة مستقلة ؛ تستمد نورها من وحي القرآن الكريم والسنة المطهرة دون أن يكون لأي أمة من أمم الأرض على المسلمين يد فيها .

« وقد أراد الله تعالى اللغة العربية لهذا الدين لما فيها من طاقة فذة في التعبير والبيان ، ولما فيها من المرونة والاتساع ، وهي أقدر اللغات على الأداء واقواها على الاشتقاق والنحت والتصريف وأغناها في المفردات والصيغ والأوزان ،

ومع ذلك كله فهي مرنة غاية المرونة تتسع لتعريب أسماء الأشياء التي تجد في حياة الإنسان » .

ولقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقة بين العربية والإسلام على نحو واضح صريح : إنما العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي، ووصف عمر اللغة العربية فقال إنها تثبت العقل وتزيد في المروءة .

وكتب علي إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي ، وتعلموا العربية فإنها من دينكم .

« إن العربية من الدين لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها وهما من تفاعلهما كشجرة خضراء ممتدة الأغصان وارفة الظلال طيبة الأكل ومن هنا استمد الفقهاء أحكامهم التي تقرر أنه لا يجوز للمسلم أن يتعبد لله في الصلاة إلاّ باللغة العربية .

يقول ابن تيمية : إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله ، واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً. وإن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنّة فرض ولا يفهم إلاّ بالعربية وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب ، ويكره التخاطب والتعاقد بغير العربية إلاّ لحاجة »

وكذلك أعطى القرآن اللغة العربية معنى أكثر من كونها لغة والدعوة إلى القرآن هي التي تحمي الفصحى .

والعربية لا تدين للإسلام بانتشارها فحسب ولكنها تدين له كذلك بكل عواملها الأصيلة التي نشأت أساساً لخدمة كتاب الإسلام (١) .

---

(١) بتصرف عن العدد الخاص عن اللغة العربية والإسلام (مجلة البيان العربي) .

١٣

يرجع الباحثون أسباب رقي اللغة العربية إلى ثلاثة مصادر :

(أولاً) القرآن الكريم وما جاء به من صورة النظم البديع ، والتصرف في لسان العرب على وجه يملك العقول فإنه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الأساليب المعتادة للفصحاء قاطبة وإن لم يخرج عما تقتضيه قوانين اللغة .

(ثانياً) ما تفجر من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينابيع الفصاحة وما جاء في حديثه من الرقة والمتانة والإبانة عن الغرض بدون تكلف .

قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، لقد طفت في أحياء العرب فما رأيت أحداً أفصح منك .

قال النبي : وما يمنعني وأنا قرشي وأرضعت من بني سعد ، وبنو سعد أفصح قبيلة في العرب بعد قريش .

(ثالثاً) ما أفاضه الإسلام على عقولهم بواسطة القرآن والحديث من العلوم السامية وما نتج عنه من تعارف الشعوب والقبائل (١) .

١٤

أشار السيوطي في المزهر إلى أفضلية اللغة العربية وجمعها في عدة عناصر :

* كثرة المفردات والاتساع في الاستعارة والتمثيل .
* قلب الحرف مثل قولنا ميعاد بدلاً من موعاد وكذلك الإدغام وتخفيف الكلمات بالحذف .
* الإعراب : وهو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه نستطيع التمييز

(١) بتصرف عن العدد الخاص عن اللغة العربية والاسلام (مجلة البيان العربي)

بين الفاعل والمفعول وبين التعجب والاستفهام . والنعت والتأكيد .

* التعويض : وهو إقامة الكلمة مقام الكلمة كإقامة المصدر مقام الأمر ، والفاعل مقام المصدر ، مثل (ليس لوقعتها كاذبة) .

* التقديم والتأخير : كما هو الحال في تقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفاعل .

* زادت على الأصوات في أخواتها السامية :

الثاء — الذال — الغين — الضاد .

* إن مجموع أصوات حروفها لسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها .

* الحروف العربية تندرج وتتوزع في مخارجها بين الشفتين من جهة وأقصى الحلق من جهة أخرى .

* من أوسع أخواتها السامية في قواعد النحو والصرف وأدقها ، فقد انفردت بصيغ التصغير دون أخواتها مع كثرة مفرداتها .

١٥

عقد المطران يوسف داود مطران السريان في الموصل دراسة دقيقة مقارنة تحت عنوان (تفوق العربية على جميع لغات الدنيا) في كتابه (التمرنة في الأصول النحوية) مقارناً بين العربية والسريانية والعبرانية : ومما جاء منه :

(أولاً) غناها واتساع ألفاظها أصلا وفرعاً واشتقاقاً حتى أننا بغير خوف الخطأ يسوغ لنا أن نقرر أن اللغة العربية أوسع لغات الدنيا المعروفة .

(ثانياً) إنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث إن عبارتها

سلسة طبيعية يهون على الناطق الصافي الفكر أن يعبر بها عما يريده من دون تصنع أو تكلف باتباع ما يدله عليه القانون الطبيعي .

وهذه الخاصة إن كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية من وجه من الوجوه ، فقلما تجدها في اللغات المسماة (الهندية الجرمانية) ولا سيما الإفرنجية منها .

قال قريع الدهر في علم الأدب العربي (أحمد فارس الشدياق) في كتابه (منتهى العجب) « إن لغات الإفرنج لم تزل في ذلك – أي في ضم الكلام بعضه إلى بعض – في حالة الطفولية ، أعني أنهم يوردون جملة بعد جملة اقتضاباً من دون حرف عاطف ، وكثيراً ما يوردون الجمل من دون مناسبة أو ارتباط ، فمن ثم كانت الترجمة من العربية إلى الإفرنجية أسهل من الترجمة من هذه إلى تلك .

فأما نسق الكلام وتأليفه فعندهم من الشذوذ والخروج فيه كثير ، من ذلك عدم ذكر أداة السبب ووجه التعليل والتفريع .

ومن ذلك عدم المطابقة ومن ذلك المعاظلة (وهو تشبث الكلام بعضه ببعض) ومن ذلك إطلاق المقيد وتقييد المطلق من الظروف والأحوال .

ومن ذلك النعت المقتحم والابتداء بالمعرفة اقتضاباً وأشياء أخرى كثيرة.

(ثالثاً) الفصيلة الثالثة : إن العربية تكتب كما تقرأ ، بحيث إن الذي تعلم حروفها وحركاتها يهون عليه بدون مشقة أن يقرأ حينما شاء ، وليس فيها من شذوذ الخط إلاّ ما لا يحتفل به ، وهذه الخلة قلما تجدها في لغة أخرى فإن أكثر اللغات من أراد أن يتعلمها فبعدما يتعلم أوائل كتابتها يلتزم أن يتعلم أيضاً قراءتها كلمة كلمة،وقد أفرط في هذه الشائبة الفرنسيون والإنجليز حتى أن كتابة لغتي هاتين الأمتين مع تقدمهما في المعارف ومراتب الحكمة وسمو العلوم تحسبها اختراع صبيان .

ومن الشوائب المستهجنة غاية ما تكون في لغات الإفرنج على العموم اختلافهم في كثير من الحروف المجائية التي هي عامة لكلهم ، فإن الأمم الإفرنجية مع أنها قد اصطلحت على قواعد ورسوم مضطردة عامة شاملة فيما يختص بالأكل والشرب واللباس وسائر ما يتعلق بالمعيشة الإنسانية والعمرانية مما لا بأس في اختلافه لم يمكنهم للآن أن يدبروا هذا الأمر العظيم المهم وهو أن يتفقوا على طريقة واحدة لتصوير مقاطع الحروف بعلامات عامة لكلهم ، فإن اللفظة الواحدة مثل *Chuce* يلفظها الإيطاليون (كوجا) بالإمالة ، والجرمانيون (ختسا) بالإمالة أو ختسى ، والفرنسيون (شوسْ) بضم الشفتين والإنجليز (تشوش) وغيرهم غير ذلك .

ومن ذلك أن أغلب الألفاظ الأعجمية كالصينية والهندية والأمريكية وغيرها المصورة بالحروف الإفرنجية قد ضاعت حقيقة لفظه وصارت كل أمة تنهج تلفظه بلفظ لغته ، وبذلك صار اسم المدينة الواحدة مثلاً مع كونه مصوراً بحروف واحدة لا تتغير ، يختلف لفظه باختلاف الأمم التي تقرأه .

ومع ذلك فإن اللاتينية وهي اللغة العلمية لجميع الأمم الإفرنجية لا يلفظونها لفظاً واحداً ، بل كل أمة منهم تلفظها لفظاً مختصاً بها حتى أنه ربما لا يفهم أحدهم عن الآخر .

(رابعاً) الفضيلة الرابعة أن العربية غنية بنفسها في كل ما يحتاج الإنسان إلى نطقه ، فلا تحتاج إلى لغة أعجمية ولو أراد أهلها لنفوا جميع الألفاظ الأعجمية التي دخلت فيها بنوع الخلسة واستغنوا عنها بغيرها من بحر لغتهم الزاخر .

ومما يستحق الذكر أن العرب لم يتركوا شيئاً إلا استنبطوا له اسماً في لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخص والأفق وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى والعرش والشعر والشاعر والقصيدة إلى غير ذلك . فإن

هذه الأشياء مع كون أكثرها طبيعياً ومحسوساً وباقيها من أخص ما يتعلق بعيشة الناس العمرانية لا تجد لها أسماء في كثير من اللغات المعروفة ، فاضطر أصحابها إلى أن يسموها بأسماء أعجمية ، فإن اللاتين والسريان والجرمانيين وسائر الأمم الإفرنجية يسمون تلك الأشياء بأسماء يونانية إلاّ واحداً أو اثنين اتخذوه من اللاتينية .

هذا عدا الألفاظ الاصطلاحية المختصة بالعلوم والصناعات فإن هذه كلها إلاّ قليلاً قد أخذتها جميع الأمم من اليونان ما عدا العرب ومما يبين فضل العرب وإنفاذ ذهنهم غاية ما يكون ، أنهم أول ما باشروا فنون أدب لغتهم ، في القرن الأول من تملكهم على بلاد المشرق ، نالوا في قليل من الزمان الغاية من ذلك ، ومنذ أول مباشرتهم وضعوا أصول علم النحو ورسموا اصطلاحاته وتوغلوا فيه وتفننوا في دقائقه حتى أنهم في قليل من السنين أوصلوه إلى غاية الكمال . وفي كل ذلك لم يحتاجوا إلى كتب أجنبية ولا إلى ألفاظ أعجمية في هذه الحلة قد فاقوا سائر أمم العالم .

كذلك عرف للعربية ثباتها وعدم تقلبها ، فكم بعث بها تعبير معتبر منذ آلفي سنة وهو بعد ذلك من مظاهر كمالها » .

هذا موجز ما أورده المطران يوسف داود وقد خلص من ذلك كله إلى القول بأنه مع أن السريانية لغة الأصل الذي يرجع إليه المطران والعبرانية لغة الدين والكتب المقدسة التي يتعبد بها فإنه خرج من هذه المقارنة بنتيجة واضحة هي أن العربية أعرق في الأصالة من جميع اللغات التي يتكلم بها الساميون وأنها أكملهن وأجمعهن لما فيهن من محاسن ، ولذلك تمكنت من اكتساح العبرية والسريانية وإبادتهما منذ أجيال واستولت على جميع البلاد .

الباب الثاني

اللغة العربية والعالم الإسلاميّ

(١) أثرها في اللغات المعاصرة لظهور الإسلام
(٢) العربية في مصر
(٣) « في إيران
(٤) « في البلاد التركية
(٥) « بين مسلمي الهند
(٦) « في جنوب شرق آسيا

الفصل الأول

أثرها في اللغات المعاصرة لظهور الاسلام

كانت اللغة العربية بعيدة الأثر في اللغات المعاصرة لظهور الاسلام : شرقية وغربية ، وكان هذا الأثر بالإحياء والاستمداد كما حدث للغات التركية والفارسية والسواحلية ، أو بالإفناء والإبادة كما حدث للغات القبطية والسريانية والعبرية ، أو بدخول مئات الألفاظ إليها كما حدث للغات الغربية : الانجليزية والفرنسية والإسبانية .

ويمكن القول بوجود الظواهر الآتية :

أولاً : قضت على اللغة الإغريقية العالمية في بعض بلاد الشام والعراق وخرجت من الصراع سالمة ولم تكد تتأثر بشيء من خصائص اللغة الإغريقية إلاّ عدداً محدداً من الكلمات الإغريقية .

ثانياً : قضت على لغة عالمية أخرى كانت على ألسنة الناس في العراق والشام بل وفي بعض جهات مصر وهي اللغة الآرامية . وكانت قد تمكنت من ألسنة المفكرين في تلك المناطق وعاشت مع الإغريقية قروناً .

ثالثاً : قضت على اللغة القبطية حتى أنه لم تنقض عدة قرون على حكم العرب لمصر حتى اندثرت القبطية وانزوت في الأديرة والكنائس واضطرت الكنائس المسيحية في البلاد العربية إلى جعل العربية لغة الصلوات والمواعظ وترجم البروتستانت الإنجيل إلى اللغة العربية .

رابعاً : تقهقرت البربرية في شمال أفريقيا أمام العربية وانعزلت في بعض مناطق الصحراء فلم تكد تبرك البربرية على ألسنة المتكلمين بالعربية في هذه المناطق إلا آثاراً ضئيلة .

٢

ظهر أثر اللغة العربية واضحاً في اللغات الشرقية : كالفارسية والأفغانية والهندستانية ، وقد جاء أثرها في لغات الشعوب الإسلامية من ناحيتين :

أولاً : من ناحية المعاملات الفقهية والتنظيمات السياسية والمفاهيم الأخلاقية والمدنية .

ثانياً : من ناحية الحرف العربي باعتباره أداة لكتابة لغات الشعوب الإسلامية فأصبحت اللغة الفارسية والتركية والأوردية والجاونية (لغة أندونيسيا والملايو) وغيرها تكتب بالحروف العربية .

كذلك أصهرت إلى اللغات الأفريقية السواحلية والهوسا .

ومع وجود هذه اللغات فقد كانت اللغة العربية هي لغة المعاملات الدينية ولغة العلم والشريعة ، وقد اشترك أبناء هذه الأمم جميعاً في الكتابة بها حتى فاق بعضهم كتاب العرب وعلماءهم .

ويرجع ذلك إلى (١) حقيقة التلازم بين انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية ، (٢) نزول القرآن باللغة العربية ، (٣) الحقيقة القائمة في نفس كل

مسلم وعقله عربياً كان أو غير عربي أن القرآن كلام الله وأن على المسلم أن يتعلم لغة القرآن ليفهمه .

واللغة العربية بذلك ليست لغة دينية بالمعنى الذي تعتبر به اللغة اللاتينية لغة دينية ، ولكن بمعنى يختلف عن ذلك كثيراً ، ذلك أن العربية هي الرباط الذي يربط العرب كافة والمسلمين كأصحاب فكر واحد ، ولقد تأكد أن العلم بالعربية عند المسلمين كالعلم بالسنن عند أهل الفقه .

وإن الإيمان بوحدة الفكر هو الذي دفع عديداً من المسلمين غير العرب إلى إنهاض العربية والمدافعة عنها والكتابة بها .

٣

لا توجد لغة من اللغات الشرقية (الأوردية والفارسية والتركية) تعتمد على موادها وحدها دون الالتجاء إلى العربية ، ولا تجد سطراً من سطور اللغة التركية إلاّ وهو مزدحم بالكلمات العربية والفارسية ، وكذلك بالنسبة للغتين الفارسية والأوردية وقد انتشرت الحروف العربية بانتشار الحضارة الإسلامية وكتبت بها اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والترية والمغولية والبربرية والسودانية والزنجية والساحلية كما كتبت بها لغة أهل الملايو ، حدث هذا منذ ألف سنة ودونت به آدابها وعلومها وفنونها .

فقد استعمل الفرس الحروف العربية لكتابة لغتهم الفهلوية ، كذلك استعملها الأفغان لكتابة لغتهم (البامرية) وكذلك المسلمون الهنود في كتابة اللغة الأردية وسكان أرخبيل الملايو في كتابة لغاتهم الخاصة والمسلمون الصينيون في كتابة لغاتهم المحلية والأمم الترية والتركية في كتابة لغاتهم الخاصة في المناطق الكائنة بين سيحون وجيحون الممتدة طوال بحر قزوين شمالي البحر الأسود وجنوبي الأورال وجنوبي الروسيا .

ولم يقف الأمر عند الأبجدية العربية وحدها بل تعدى ذلك إلى استعارة الكثير من الكلمات والعبارات والجمل ، حتى يقال إن نحو نصف آلفاظ اللغة الفارسية اليوم عربي . وثلاثة أرباع الكلمات في اللغة الأوردية عربي أيضاً .

كذلك تأثرت بالكلمات العربية اللغات البربرية في أفريقيا والسودان الجنوبي واللغة العربية في السنغال اليوم هي لغة المسلمين ، وتعتمد بقية اللغات الوطنية على الحروف العربية في كتابة لغتها .

وما تزال اللغة العربية شائعة في السودان الفرنسي وفي شاطىء العاج ، وفي النيجر يعتمدون على الحروف العربية ، وفي نيجيريا تكتب اللغات الوطنية بحروف عربية ، وكذلك اللغات الأربع التي يتكلم بها أهل موريتانيا وأكثرها استيعاباً للكلمات العربية : اللغة الحسانية .

ومن هنا تكونت ما أطلق عليها أسرة اللغات الإسلامية في آسيا وأفريقيا التي تشكلت بعد مرور قرنين على ظهور الإسلام حين غلبت العربية على الجماعات الناطقة بالفارسية واللاتينية واليونانية والقبطية والآرامية

وحيث نقلت إلى لسان العرب على حد تعبير (البيروني الفارسي) العلوم من أقطار الأرض فازدانت وحلت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة . وإن الهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية .

وقد وقف من اللغة العربية هذا الموقف كثيرون في مقدمتهم سيبويه الفارسي والبخاري الفارسي والزمخشري وأبو حنيفة .

وقد جرت مقارنات كثيرة حول أثر اللغة العربية في لغات التتر وآخواتها التركية في الشمال ولغة الملايو وأخواتها الهندية في الشرق وفي لغة الأكراد وغيرها من اللغات الفارسية ولغة السواحل وغيرها من اللغات الأفريقية فوجد آن ما دخلها من الألفاظ العربية ـ بالإضافة إلى الحروف العربية كثير .

ويقول (ا. أبيان) في بحث له عن مقارنة اللغتين العربية والأرمنية إنه وجد أن بين ٢٠ ألف كلمة هي مجموع كلمات اللغة الأرمنية يوجد ١٥٠٠ كلمة عربية (١) .

ولم يقف عطاء اللغة العربية عند حد الحروف الهجائية مئات الألوف من الألفاظ والمعاني بل وألوف الجمل التامة ، فقد أعطت مصطلحات اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات الفلسفة والعلوم كما أعطت اللغات الأوربية الأرقام العربية وكثيراً من أسماء المعاني والمصطلحات العلمية .

وقد أشار الباحثون إلى أن كثيراً من التعابير والآيات القرآنية تمازجت مع اللغات المحلية واللهجات الإقليمية للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها حتى غدت جزءاً من هذه اللغات واللهجات .

٤

قضت العربية على الآرامية والسريانية في سورياوالقبطية في مصر والفهلوية في فارس . كما حررت مصر وسوريا وشمال أفريقيا من آثار اليونانية واللاتينية أما اليونانية فقد كانت سائدة في مصر والشام والجزيرة،وأما اللاتينية فقد كانت سائدة في شمال أفريقيا دون أن تقهر إحداهما اللغات الوطنية . ولكن اللغة العربية جاءت فقهرت اللاتينية واليونانية وقهرت معهما اللغات الوطنية وعربت اللغة الفارسية أربعة قرون .

أما اللغة الآرامية فقد ذاعت في القرن الثامن قبل الميلاد وتمزقت إلى لهجات في القرن الثامن بعد الميلاد (أي في القرن الثاني الهجري) وكانت لغة ذائعة ، تمتد من البحر المتوسط إلى نحو إيران ومن طور سينا إلى جزيرة العرب ،

---

(١) م ١٢ مجلة المجمع العلمي العربي ص ٤٣٩ .

وقد أطلق على الآرامية بعد المسيحيةِ « السريانية » وكان لهذه اللغة ذات الأسم المستجد أدب زاهر استمر من القرن الثالث إلى القرن السادس بعد الميلاد وتلاشت بعد مضي قرن على الفتح الإسلامي ، ولم تستعمل إلاّ أداة لنقل المترجمات الفلسفية من الأدب اليوناني إلى اللغة العربية .

وقد بقي اليونان في سوريا نحواً من ٢٧٠ عاماً والرومان ٧١٢ سنة ولكن لغتهم عجزت عن محو اللغة السريانية واللغة العربية التي يتكلم بها العرب الغساسنة ، وكذلك الفرس في العراق ، وبقي الترك في الأستانة نيفاً وأربعة قرون فلم تقدر لغتهم على مزاحمة اللغة الرومية .

أما اللغة الرومية فإنها لم يمض على طرد الروم من سوريا والفرس من العراق زهاء قرن حتى تلاشت اللغات الرومية والفارسية والسريانية .

٥

وفي الأندلس نسي الأندلسيون لغتهم بعد دخول العرب فما انقضى ثلاثون عاماً على الفتح حتى أصبح الناس ينسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية ، وبعد خمسين عاماً أصبح الناس كلهم يتكلمون بالعربية وتحرر بها العهود والمواثيق حتى بين الاسبان أنفسهم ، واتخذ النصارى من اللغة العربية ترجماناً لعواطفهم ومشاعرهم وأقام الرهبان شعائرهم الدينية في الكنائس باللغة العربية .

وكان من الضروري على كل من يحب الاطلاع من أهل القرن السابع الهجري في الأندلس على آثار عصره أن يتعلم اللغة العربية ، وقد تعلمها روجر باكون وغيره ، وكان ملوك الأندلس يفاوضون جيرانهم باللغة العربية وهؤلاء يجيبونهم بها على لسان مترجمين لهم يجيدون العربية ، وأصبح من الضروري على أكثر شعراء الإفرنج عند ملوك الأندلس أن يلموا ولو إلماماً خفيفاً بلغة العرب .

٦

لا يزال سكان داغستان في روسيا يتكلمون باللغة العربية ويستخدمونها في التخاطب والكتابة ونظم الشعر وفق الأوزان العربية الأصيلة ، وقد أشار (محمود رشاد) في كتابه (سياحة في روسيا) أن للداغستان لغة لها قراءة وكتابة خاصة بها وحروفها هي نفس الحروف العربية وأن العربية في الداغستان هي لغة العلم والثقافة العامة ولغة الكتابة الغالبة .

وما يزال القرآن يقرأ بالعربية في جزر الفيليبين ووراء هملايا والصين وسومطرة .

الفصل الثالث

العربية في مصر

يردد المؤرخون أن لغة مصر قبل الإسلام كانت اليونانية في دوائر الحكومة والقبطية لغة الكنيسة والحكومة بعد اليونانية .

« وسارت(١) اللغة القبطية إلى جنب اللغة اليونانية التي بقيت لغة البلاد الرسمية بعد الفتح زمناً ليس بالقصير ، وعلى الرغم من نهوض القبطية فإن أهلها لم ينتجوا بها أدباً ينافس الآداب اليونانية التي ظلت صاحبة الغلبة والنفوذ ، وإلى جانب اليونانية والقبطية ، وما كان لهما من أدب خاص، كان هناك لغة ثالثة هي لغة السريان الذين هاجروا إلى مصر تحت ضغط الغزو الفارسي على بلدان آسيا الغربية ، وأصبحت السريانية لغة العلم ولا سيما العلم الطبي » غير أنه لم تلبث هذه اللغات بعد انصرام القرن الأول الهجري أن تلاشت أمام قوة اللغة العربية ونفوذها .

« ولم ينقض القرن الثالث الهجري حتى وجدت سبيلها إلى الكنائس القبطية فوعظ بها رجال الدين وكتبوا بها سير الآباء المسيحيين وخطوا بها الإنجيل » وفي القرن الرابع للهجرة قام الأسقف ساديرس بن المقفع بمعاونة

(١) من بحث لمجلة الثقافة ١٩٤٣ .

نفر من رجال الدين الأقباط بنقل ما وجدوه بالقلم القبطي والقلم اليوناني إلى القلم العربي .

ولم تقو اليونانية أو السريانية أو القبطية على الوقوف في سبيلها « وكان الإسلام دافعاً لمعتنقيه إلى تعلم العربية حتى يتمكنوا من قراءة الكتاب والسنة وتفهم أصول الدين .

« وجاءت حركة الاستعراب الكبرى فذهب القبط فيها إلى إهمال كثير من مظاهر قوميتهم وسارعوا إلى اعتناق الدين الجديد واتخاذ لغته في أمورهم الخاصة ومعاملاتهم ، وأصبحت اللغة القبطية في المحل الثاني من اللغة العربية التي غدت لغة الحكومة منذ عربت الدواوين في ختام القرن الأول الهجري ، ولغة الأفراد منذ زمن أكثر تبكيراً من ذلك .

ولم تلبث اللغة القبطية أن أصبحت لغة كمالية لا يحذقها إلا المثقفون » .

٢

تضم اللغة المصرية القديمة أربع لغات هي الهيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية والقبطية . وتسمى لغة قدماء المصريين وقد دخلها بعض التغيير والتبديل بمرور الزمن وكتبت بحروف يونانية بعد دخول الديانة المسيحية إلى مصر ؛ يقول أرمن العالم الأثري الألماني : إن اللغة المصرية القديمة قريبة من اللغات السامية كالعبرية والعربية ومن لغات سكان أفريقيا الشرقية كصومالي وجالا ومن لغات البربر الواقعة شمالي أفريقيا ، ولا بد أن يكون منشؤها من بلاد العرب لما انتشر بنو سام في بلاد بين النهرين وإن حروفها ساكنة كاللغات السامية .

ويشير أنطون ذكرى في بحث له إلى أن اللغة المصرية القديمة أهملت في

أواخر القرن الرابع بعد الميلاد حين حرم الأمبراطور ثيودوس الديانة الوثنية على المصريين واستمر الأقباط يتكلمون بهذه اللغة بيد أنهم أبطلوا إشاراتها المصورة التي سماها اليونان الإشارات الهيروغليفية أي المقدسة واستعملوا لكتابتها الأحرف اليونانية وسميت باللغة القبطية .

« وبقيت اللغة المصرية القديمة مجهولة حتى جاء العرب وسموها لغة العصافير » .

وكان للمصريين ثلاثة خطوط : الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي وهي شبيهة بالخط الكوفي والرقعي والنسخي والثلث في اللغة العربية .

وقد اكتشفت اللغة المصرية القديمة في أوائل القرن التاسع عشر عندما استعان الأثري شامبليون بآراء مجموعة من الباحثين الأجانب وراجع ما كتب على حجر رشيد باللغتين اليونانية والقبطية

٣

وقد أكد هذه الرابطة بين اللغتين العربية والمصرية القديمة العلامة أحمد كمال باشا الذي ألف قاموساً ضخماً أورد فيه ألوفاً من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية المصرية في الغالب ، إما موافقة تامة ، أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال .

ويرى أحمد كمال باشا أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالقلم الهيروغليفي ومن لوازم هذا أن أصحابها كانوا من العرب .

وقد وجد نص منقوش في الدير البحري (الأقصر) من زمن الدولة الثامنة عشرة (١٦٠٠ ــ ١٣٨٠) ق.م وفيه أن المصريين الأولين اشتهروا باسم الاعناء ولم يبين النص أصلهم ، ولا من أين جاؤوا ولكنهم استعمروا

الجهة الجنوبية من مصر وأسسوا المدن بأسمائهم ، وفيه أن بعضهم هاجر إلى القيروان وتونس والجزائر وبعضهم إلى أواسط أفريقيا والصومال وبعضهم قطع البحر الأحمر إلى بلاد العرب وانتشر فيها وسار من هناك إلى جنوب فلسطين وأطلق كلمة (عنو) من أولئك الأعناء المهاجرين اسم مركب تركيباً إضافياً فصار يقال (أعناء كذا) . ولفظ أعناء عربي معناه الاخلاط من الناس يكونون من قبائل شتى. هؤلاء الأعناء هاجروا من جزيرة العرب وهنا يلتقي في الرأي مع (رونسن) الذي رجح كون المدنية المصرية الأولى جاءت من بلاد العرب والعراق .

الفصل الثالث

في ايران

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام : لقد نشأت اللغة الفارسية وترعرعت في رعاية العربية وكفالتها ، وهي اللغة الفهلوية التي كانت لسان الدولة ولغة العلم أيام الساسانيين ، ولكن كتبت بالخط العربي واشتملت على ألفاظ عربية كثيرة . فقد استعمل شعراء الفرس الأوزان العربية والقوافي ولكن تصرفوا فيها بعض التصرف كما أخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك فهو يستمد من الإسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس .

ويجد قارىء النثر الفارسي أحياناً ألفاظاً عربية متوالية ليست للفارسية فيها إلاّ التراكيب والصلات ، ولا تزال العربية تمد الفارسية بألفاظ جديدة .

ولقد كتب كبار المسلمين من الفرس باللغة العربية :

ابن سينا والبيروني والغزالي والرازي والبيضاوي والطوسي ، كما كتبوا بالفارسية ، ولكن كتبهم الخالدة بالعربية .

فالرازي له ثلاثون كتاباً بالعربية بينما له كتاب واحد بالفارسية (١)

---

(١) م ٢١ مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٤٦ .

واللغة الفارسية الحديثة التي ظهرت بعد الإسلام والتي أصبحت لغة التدوين في القرن الثالث الهجري وعرفت باسم الفارسية الإسلامية ، وهي اللغة التي ما زالت مستعملة في إيران إلى اليوم، هي مزيج عجيب من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية .

وهي غير التي كانت شائعة في إيران قبل الإسلام .

فقد انقرضت الفهلوية تماماً أمام اللغة العربية بسبب الفتح العربي (١) وحلت محلها اللغة الفارسية الحديثة التي نشأت في الإسلام وسرت إليها التأثيرات اللغوية العربية الإسلامية ، ولا سيما على أثر قيام الدولة العباسية إذ انخرط الفرس في تلك الدولة سياسة وعلماً وأدباً ، وذهبت الفهلوية وخطها الفهلوي الذي استبدل بالخط العربي للكتابة الفارسية الحالية التي نشأت من إدغام اللغة الفارسية بالألفاظ العربية (٢) .

هذه الفارسية الحديثة أثرت فيها العربية بعد الإسلام أيما تأثير ، فقد ظل شعراء الفرس لا يقولون الشعر نحو قرنين إلا بالعربية ، ثم هي رقت الفارسية من السذاجة التي كانت عليها الفهلوية والفارسية إلى أواخر القرن الرابع فأصبحت الآن ثلث كلماتها عربي الأصل (٣) .

وقد أشار (نولدكه) إلى أثر اللغة العربية على اللغة الفارسية فقال : إن اللغة اليونانية لم تؤثر في الحياة الفارسية إلا تأثيراً سطحياً ، ولكن العربية قد أثرت فيها كل التأثير ، فقد تبنت إيران الإسلام والأخلاق والعادات العربية .

وإذا كانت اللغة الفارسية قد استقلت عن العربية بعد القرن الرابع ، فإن الخط العربي ما زال هو خط الكتابة الفارسية الحالية وقد كتبت به الأعمال الأدبية الجديدة التي حرصت على استقلال اللغة الفارسية عن العربية وخاصة

---

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران .

(٢ و٣) دكتور إبراهيم محمد الشواري : تاريخ الأدب في إيران للمستشرق براون

ما كتبه الفردوسي وعمر الخيام وما زالت هي حروف الكتابة إلى اليوم .

وكان الفردوسي قد قصد في كتابه الشاهنامه إلى إحياء الكلمات الفارسية البحتة ولم يستعمل في قصيدته أكثر من خمسين ومائتين من الكلمات العربية ، غير أنه لم يخرج عن العروض العربي ، فالعروض العربي كان قد أمات الأساليب الفارسية القديمة موتاً نهائياً .

وبالرغم من هذه المرحلة التي بدأها الفردوسي فإن اللغة العربية ظلت تشكل مكاناً هاماً في آداب الفرس (١) .

يقول الدكتور محمد أسعد طلس : لقد شهدت بعيني في بلاد إيران منذ سنوات قليلة أناساً يتكلمون باللغة العربية في أقصى بلاد إيران بلهجة عربية فصيحة وما ذلك إلاّ بفضل القرآن المعجز ، ودين الإسلام العظيم ، كما رأيت القوم يؤلفون كتبهم بها ويحرصون على تدريسها في مدارسهم حرصهم على العناية بلغتهم القومية .

لقد حافظت إيران على التأليف بالعربية في عصور الظلمات وما تزال خزائن الكتب في إيران حافلة (٢) .

---

(١) في عهد ملوك الدولة الصفارية ٣٠١ هـ وملوك سامان ٣٨٩ هـ أعاد هؤلاء اللغة الفارسية وأخذ الشعراء ينظمون بها فانقرضت حثيثاً اللغة العربية من البلاد ولكن نشأت لغة جديدة من بعض الكلمات العربية والكلمات الفارسية .

(٢) م ٤٧ مجلة العرفان .

الفصل الرابع

في البلاد التركية

امتدت اللغة العربية إلى كل البلاد التي اعتنقت الإسلام ، ووصلت إلى ما وراء النهر وكان لها أثرها في مختلف اللغات التركستانية وخاصة لغة تركستان الشرقية موطن الأتراك العثمانيين ، وتركستان الغربية التي تسمى اليوم تركستان الروسية (وكان نهر جيحون في العصور المختلفة هو الحد الفاصل بينها وبين إيران) .

أما لغة الثقافة والتأليف في هذه المناطق فكانت العربية .

ولما قامت الدولة العثمانية شرعت تستعمل التركية في رسائلها مع استعمال الفارسية والعربية .

وتؤلف العربية القسم الأكبر من الأقسام الثلاثة التي تتألف منها اللغة التركية العثمانية (١) فقد دخلها من الألفاظ العربية أكثر من خمسين في المائة من مجموع ألفاظها بل إن قواعد صرفها ونحوها هي الأصول المتحصلة من القواعد التي اقتبسها العجم من العرب .

---

(١) عبد الفتاح عبادة ، الهلال ١٩١٥ .

ولما كانت اللغة الفارسية هي لغة الأدب والسياسة عند السلاجقة ، فلما اقتبس الأتراك آدابهم من الفارسية اقتبسوا معها كثيراً من آثار اللغة العربية وآدابها التي كان الفرس قد اقتبسوها قبلهم ، وذلك غير الذي اقتبسه الأتراك من اللغة العربية رأساً من الألفاظ والآداب الدينية ، ولذلك كانت الألفاظ العربية في اللغة التركية أضعاف الألفاظ الفارسية فيها ، أو بمعدل لفظ تركي مقابل ثلاثة ألفاظ عربية .

أما التأليف في العلوم العقلية والشرعية واللغوية فقد غلبت عليه اللغة العربية شأنها في إيران وتركستان ولم يخل عصر من التأليف بالعربية في بلاد الترك العثمانيين على اختلاف أطوار العربية والتركية على مر العصور ولم يخل أديب أو شاعر من معرفة العربية قليلاً أو كثيراً حتى عصرنا هذا (١) .

وقد أشار كثير من الباحثين إلى تأثير اللغة العربية في اللغة التركية « حين صارت لغة كتابة وأداة لتسجيل العلم والأدب منذ القرن الثامن الهجري » . فقد أثرت في التركية تأثيراً مباشراً وبواسطة اللغة الفارسية إذ كانت الفارسية بعد العربية هي لغة الأدب والعلم في تركستان ، والقول باستئثار العربية بأمهات كتب العلم في البلاد التي تتكلم التركية كالقول في استئثار العربية بالعلم في ادان ، إلا أن التركية لم تصر لغة علم وأدب إلا بعد الفارسية بخمسة قرون .

---

(١) عبد الوهاب عزام م ٢١ المجتمع العلمي العربي

الفصل الخامس

بين مسلمي الهند

دخلت اللغة العربية الهند مع دخول الإسلام واتخذها مسلمو الهند كسائر مسلمي العالم لغة علم وأدب على مر العصور .

« وكان دخول العربية إلى الهند عن طريقين : الأولى في ثنايا اللغة والآداب الفارسية ، فالفارسية قد أخذت من العربية ثم صارت لغة الدولة ولغة التدوين في الهند منذ عهد الغزنويين ولا سيما في عهد الدولة المغولية .

وقد عد الشيخ شبلي النعماني في كتابه (شعر العجم) واحداً وخمسين شاعراً فارسياً جاؤوا إلى الهند في عهد السلطان جلال الدين (٩٦٣ — ١٠١٤ هـ) وعد المدائني أكثر من هؤلاء . كما عدد من العلماء والفلاسفة والأطباء الذين عاشوا في كنف هذه الدولة أكثر من مائة وخمسين .

ومن الهندية المشوبة بالعربية والفارسية نشأت اللغة الأوردية بالخط العربي ونبغ شعراؤها وكتابها في القرن الثاني عشر الهجري(١) وقد ألف بالعربية كثيرون منهم ولي لله الدهلوي (حجة الله البالغة) شبلي النعماني ، كرامت حسين ، عبد العزيز الميمني .

---

(١) مراحل تاريخ دخول الإسلام الهند .

٢

والأردية منسوبة إلى كلمة (أردد) التركية ومعناها المعسكر أو الجيش وهي لغة نشأت من اختلاط الهنود بجيوش المسلمين فتكونت لغة هندية في أساسها النحوي ولكن تكثر فيها الألفاظ العربية والفارسية والتركية ، ثم أخذت تقوى تدريجياً عند استعلاء نفوذ المسلمين وتأسيسهم الأمبراطورية المغولية في الهند على يد أحفاد تيمورلنك ، حتى أصبحت أوسع اللغات انتشاراً في شبه القارة الهندية .

ويؤكد الباحثون أن احتلال اللغة الأردية لمكان الصدارة بين اللغات المحلية في الهند والباكستان إنما يرجع إلى غزارة مادتها وذخائر أدبها وانتشارها المذهل . وقد استمدت الأردية هذه المكانة بسبب اختلاطها مع الثقافة الإسلامية قرابة تسعة قرون .

وتوجد في شبه القارة (١) الهندية التي انقسمت إلى الهند والباكستان نحو اثنين وثلاثين لغة كل منها مستقلة عن الأخرى لأنها لغة إقليم لا يعرفها إقليم آخر ، غير أن اللغة الأردية هي اللغة السائدة بين المسلمين وهي لغة حديثة أقرها المغول عام ١٣٢٨ هجرية للاتصال والتفاهم بين السكان الأصليين وهي مزيج من العربية والفارسية والسنسكريتية وليست كما يزعم بعض المستشرقين فرعاً من فروع الهندية الغربية (٢) .

٣

واللغة العربية لها مكانها في المجتمع الهندي على أنحاء مختلفة ، فهناك تأثيرها الواضح في اللغات الهندية بوجه عام وفي اللغة السندية بوجه خاص ، عن

---

(١) مبارك الباكستاني م ٢٩ المجمع .
(٢) عبد الستار ست ، م١٩٥٠ الرسالة .

طريق الجيوش العربية التي دخلت السند بقيادة محمد بن القاسم عام ٩١ هجرية وتوسع سلطانهم فيما بعد إلى ملتان وما جاورها ، حتى أصبحت العربية في السند لغة التخاطب ، وما تزال السندية حتى الآن تكتب بالخط العربي وتضم مفردات عربية قد تتجاوز الحصر .

« ويرجع تأثير اللغة العربية غير المباشر في اللغات الهندية عن طريق الفارسية التي هي أيضاً لم تستطع أن تقاوم تيارها خلال الفتوح الإسلامية وقد غمرتها العربية مادة واشتقاقاً وغلبتها نفوذاً وانتشاراً . وهذا النوع من التأثير حصل عن طريق الفاتحين المسلمين من الأتراك والمغول والفرس والأفغان الذين كانوا تحت سيطرة اللغة العربية من ناحية الدين .

« والكلمات العربية تكاد تكون أكثرية غالبة بين اللغات التي تضمها الأردية ، حتى فاقت الكلمات الفارسية عدداً وتتراوح نسبتها بين عشرين وستين بالمائة وذلك مما يدل على قوة انتشار اللغة العربية وسيطرتها على اللغات .

« هذه الكلمات على قسمين : قسم طرأت عليه تطورات جردته من عروبته حتى أصبح كالكلمات الأعجمية وقسم دخل عن طريق مباشر باستيلاء المسلمين على السند وعن طريق غير مباشر بواسطة الفارسية التي كانت لغة البلاط في عهد المغول (١) .

ويرد البعض الألفاظ العربية في جميع لغات باكستان المحلية بين ٣٠و٦٠ في المائة وهي الأردية والسندية والبنغالية والبلوشية والكشميرية والتيجانية والبشتمية ومعظمها تكتب بالخط العربي .

ويمكن معرفة أثر اللغة العربية في اللغة السندية مما قاله الرحالة الشهير الاصطخري الذي زار السند في القرن الثامن من أن اللغات الدارجة في منصورة وملتان هي العربية والسندية .

---

(١) مبارك الباكستاني م ٢٩ المجمع ١٩٥٤ .

ويرجح أن عدد الكلمات العربية في الأردية تبلغ عشرات الألوف ولا تزال اللغة الأردية تستمد من لغة القرآن وتأخذ من ألفاظها ويؤثر علماؤها الألفاظ العربية فيما يحتاجون إليه من المعاني .

٤

الأثر الثاني هو نمو اللغة العربية نفسها في مجتمع المسلمين وانشغال الكثيرين بالكتابة بها وهم يعدون بمئات الألوف ، وقد نشأت ركائز ضخمة للغة العربية من أهمها ندوة العلماء في لكنو التي تدارست كتب الأدب العربي للجرجاني والدينوري والجاحظ وأبي هلال العسكري .

ولا ريب أن هذا الرعيل الذي يجيد اللغة العربية ويحسن الخطابة والكتابة ويحفظ أشعارها هؤلاء قد حملوا دوماً الدعوة إلى أن تكون اللغة العربية هي اللغة العامة في باكستان .

وتجري الدعوة إلى نشر اللغة العربية في باكستان لأنها لغة القرآن . أو كما توصف بأنها (اسبرانتو الشرق) .

ويرى مسلمو الباكستان أن معرفة اللغة العربية أمر ضروري جداً حتى تتخذ الوحدة الفكرية الإسلامية صورتها العملية ، وأنه ليس في مكنة العالم الإسلامي أن يدعم روابطه إلا إذا اتخذ اللغة العربية لغة مشتركة أتقن دراستها كما جرت الدعوة إلى اتخاذ الحروف المطبعية العربية حروفاً تكتب بها اللغات الإسلامية (١) .

---

(١) من محاضرة للأستاذ حسين الهمزاني .

الفصل السّادس

في جنوب شرق آسيا

يتكلم المسلمون في جنوب شرق آسيا لغة تسمى لغة الملايو منتشرة في شبه جزيرة الملايو نفسها وفي الجزر التي تقع في شرقها خاصة ما يعرف اليوم بأندونيسيا ، هذه اللغة هي لغة السياسة ولغة العلم والتجارة ولغة الملايو تكتب بالحروف العربية ما عدا في أندونيسيا .

وقد انتشرت اللغة العربية عندما اعتنق أهل البلاد الإسلام وكانوا من قبل على ديانات الهند البوذية والبرهمية .

وتضم اللغة الملاوية لغة البلاد (القومية) ألوفاً من الكلمات العربية، وقلما يتكلم إنسان في الملاوية جملة واحدة دون أن يلفظ بكلمات عربية .

وتأثير اللغة العربية في الملاوية أكثر وأقوى من تأثيرها في اللغات الجاوية والسوندانية .

وقد استعملت الحروف العربية حروفاً لكتابة اللغة الملاوية بعد الإسلام وتقدمت دراسة اللغة العربية فألف بها علماء الحديث والفقه (١) وفي مقدمتهم العالم السومطري الشيخ خطيب فنانكبو والشيخ محفوظ .

---

(١) م ٩ الفتح ، عبد القهار مذكر .



الباب الثالث

أثر اللغة العربية في اللغات الأوروبية



الفصل الأول

في الاسبانية

كان من الطبيعي بعد أن دخل الإسلام القارة الأوربية أن تدخل اللغة العربية إلى عديد من اللغات الأوربية كالإسبانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية .

وقد دخلت اللغة العربية أوربا حين فتح العرب صقلية والأندلس ، ولا تزال كلمات اللغة العربية موجودة في مختلف قواميس اللغات الأوربية .

يقول العلاّمة محمد كردعلي : إنه لم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتّى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى ، لأن هؤلاء زهدوا في اللغة اليونانية ونشأ لهم غرام بالعربية ، فأخذوا ينقلون آدابها ويتغنون بأشعارها ويكتبون بها كأبنائها ، وأصبح أهل البلاد يتكلمون بالإسبانية والبرتغالية والعربية على السواء ، ثم أخذوا لا يتعاقدون بينهم إلاّ باللغة العربية ؛ وقد وجد من عقودهم نحو ألفي صك كتبها المستعربة من الوطنيين الأصليين باللغة العربية (١) .

٢

ألف أنكلمان ودوزي معجماً بالكلمات الإسبانية والبرتغالية الّتي من

---

(١) الإسلام والحضارة العربية .

أصل عربي أو اشتقت من أصل عربي . كما ألف (اغرويلز – يانغواز) كتاباً في هذا المعنى ، وفي سنة ١٩٢٠ نشر (دلغادو) معجماً بالكلمات التي هي من أصل شرقي .

واكتشف داوين لويس أستاذ العربية في جامعة لشبونة وعضو المجمع العلمي : [العجمية البرتغالية] وهي كتابة البرتغالية بحروف عربية .

أما العجمية الإسبانية فكانت معروفة منذ زمن بعيد لأن العرب الذين كانوا في إسبانيا كانوا على جانب من العلم والفضل (١) .

كذلك ألف أنطون الياس أحد أدباء العرب في الأرجنتين كتاباً باللغة الإسبانية ذكر فيه الكلمات الإسبانية الكثيرة التي هي من أصل عربي ، وقد انتهى به البحث إلى الحكم بأن العربية أقدم لغة حية ، وقد أرجع كثيراً من الكلمات الإنجليزية واللاتينية واليونانية إلى أصلها العربي ، وبرهن على أنها ليس لها من غير العربية تحليل ولا تركيب ، فهي في غير العربية غريبة ، وفي العربية ذات نسب ودلالة .

وأكد صاحب مجلة الشمس أن نصف اللغة الإسبانية من أصل عربي (٢) .

٣

ويقرر الباحثون أن اللغة اللاتينية ماتت بعد أن ولدت اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية ، ولم تكن اللغة اللاتينية هي لغة الغرب كله ولم تستطع التغلب على اليونانية ، وكانت اللاتينية لغة ارستقراطية لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة ولم تتغلغل في طبقات العوام .

---

(١) عن بحث للويس نوفا .   (٢) م ٣ الزهراء .

٤

ولما كان العرب قد استوطنوا إسبانيا وأسسوا فيها حضارة راقية استمرت ما يقرب من ثمانية قرون فكان من الطبيعي أن تؤثر اللغة العربية في الإسبانية تأثيراً كبيراً فاقتبست منها بعض الأصوات التي لم يكن في اللغة اللاتينية ما يماثلها كما اقتبست آلاف الكلمات اليومية التي تختلف عن الكلمات اللاتينية اختلافاً جوهرياً.

ومن هنا تغلبت العربية على اللاتينية في الأندلس حتى بعد زوال دولة العرب اتخذت الحروف العربية للكتابة الإسبانية ، وبها كتب القشتاليون كتب الحديث والفقه والتصوف والقرآن ،

يقول كردعلي : لا يستغرب أن نرى في الإسبانية كثيراً من الألفاظ العربية كأسماء البلاد والأنهار والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات وكل كلمة عندهم تبدأ بال التعريف العربية : هي عربية لا محالة ومن الأسماء ما يبدأ ببني ومنها ما يبدأ بوادي .

ويؤكد (لانجلمان) أن العربية ظاهرة كل الظهور في اللغتين الإسبانية والبرتغالية ، بل ليس في الأرض لغة تقرب بتعابيرها ومترادفاتها وجمالها وأمثالها من اللغة العربية كاللسان الذي يتحدثون به اليوم في البرازيل والبرتغال ، والبرتغاليون أجداد البرازيليين . وقد دخلت اللغة البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية ، وربع الإسبانية مأخوذ من اللغة العربية (١) .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أنه بالرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الألفاظ العربية في الإسبانية لا تزال اللغة الإسبانية اليوم أكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الأصل وهو يشكل أكثر من أربعة آلاف كلمة ولم يقتصر التأثير العربي على المفردات يل تعداه إلى تركيبات وتعبيرات لغوية كثيرة ترجمت حرفياً من العربية لتعبر عن نفس المعنى بالإسبانية .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ، عن لانجمان .

الفصل الثاني

في الفرنسية والايطالية

ومن اللغة الإسبانية سرت اللغة العربية إلى اللغات الجرمانية والسكسونية فنجد ألفاظاً عربية في الإنجليزية والغالية القديمة والألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوربا وفي الروسية والبولندية واللغات الصقلبية الأخرى (١) وفي الإيطالية وفي بعض لهجات فرنسا وإيطاليا .

ويرجع ذلك إلى ما ترجمه الأوربيون عن مسلمي الأندلس ونقل علومهم إلى اللاتينية ودخولهم جامعات الأندلس ، هذا كله لم يترك لغة من لغات غرب أوربا إلا وللعربية أثر فيها تقريباً .

• • •

أما في فرنسا فإن أثر اللغة العربية بعيد المدى :

يقول هنري اوسيل : إن الدارس للغة العربية يجد تركيبات مختلفة كل الاختلاف عما يجده في الفرنسية أو في اللاتينية أو في اللغات الأوربية فهو

---

(١) كرد علي : الإسلام والحضارة .

يتعلم الكتابة من اليمين إلى الشمال ، ثم هو يكتشف نظاماً لغوياً أصيلاً داخل الكلمة لا يعتمد على الإضافات في بداية الكلمة أو نهايتها ، واللغة العربية تسمح أيضاً بنوع من التركيب المجرد والذي نجده في الوقت نفسه رقيقاً جداً كما تسمح بتغيير وتبديل الأسلوب ، وهذا الأسلوب نجده رقيقاً وبسيطاً في الوقت نفسه .

« كما أن اللغة العربية تسمح بنظام في تعريف الأفعال ذي بساطة ولكنه أقرب إلى المنطق ، هذه المميزات وغيرها تعطي الطفل أو المدرس المبتدىء فكرة عن نوع من التعبير الإنساني جديد وفني بكل تأكيد .

وإن اللغة العربية تسهل بشكل عجيب التكيف الصوتي السريع مع حروفها ».

هذه آثار اللغة العربية في علم اللغات المقارن كما رآه هنري لوسيل والمعروف أن العربية أقامت في جنوبي فرنسا مدة مائتي سنة ، وكذلك في جزائر صقلية واقريطش .

٢

ويقول رينالدي : لقد ترك المسلمون عدداً عظيماً من كلماتهم في اللغة الصقلية والإيطالية . وانتقل كثير من الكلمات الصقلية التي من أصل عربي إلى اللغة الإيطالية ثم تداخلت في اللغة الإيطالية الفصحى ، ولم تكن الكلمات فقط هي التي دخلت إيطاليا وإنما تسربت أيضاً بعض جداول من الدم العربي في الجالية العربية التي نقلها معه إلى مدينة لوشيرا الملك فردريك الثاني .

« ولا يزال الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في لغتنا الإيطالية التي تفوق الحصر ، دخلت اللغة بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار .

« إن وجود هذه الكلمات في اللغة الإيطالية يشهد بما كان للمدنية العربية من نفوذ عظيم في العالم المسيحي .

الفصل الثالث

في اللغة الانجليزية

أما أثر اللغة العربية في اللغة الإنجليزية فهو بالغ الخطر ، ذلك « أن اللغة الإنجليزية تحوي ألف كلمة عربية الأصل ، وهناك سبع ومائتي كلمة من أصل عربي تستعمل في اللغة الإنجليزية يومياً منها كلمة أمير أو أمير البحر التي أصبحت (أميرال) .

« إن عدداً كبيراً من هذه الكلمات لم تجد طريقها رأساً من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية بل اندمجت في الإنجليزية عن طريق اللغة اللاتينية ثم الإفرنسية والإسبانية .

« والكلمات التي اندمجت مباشرة من العربية إلى الإنجليزية لم تتجاوز ٣٤ في المائة .

« ويرجع بدء تسرب الكلمات العربية إلى اللغة الأنجليزية نحو عام ١١٥٠ م وكان ذلك عن طريق اللغات اللاتينية ثم الإفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية ، وفي ذلك القرن ترجمت مؤلفات عربية كثيرة إلى اللغات الأوربية، وكانت غاية المترجمين طلب العلم والاستفادة من العرب .

« أما هذه الكلمات العربية التي انضمت إلى اللغة الإنجليزية فقد تغيرت

وتقلبت في قالبها وشكلها وأحياناً في معناها أيضاً على مر الزمن ولكثرة استعمالها .

وقد أورد جرجس فتح الله عدداً من هذه الكلمات والمفردات التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من اللغة الإنجليزية (١) .

٢

وقد وجد بعض العلماء في لغات الهنود في أمريكا كلمات عربية ترجع إلى القرن السادس الهجري (١٢٩٠ م) أي إلى قرنين قبل وصول كولمبس إلى أمريكا ، ويرجعون ذلك إلى أن أصحاب هذه الكلمات قد اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين وهناك مستعمرات عربية وجدت بين ١١٥٠ و ١٢٠٠م

وقد شوهدت آثار عربية على شاطىء الخليج المكسيكي خاصة . وتدل الدلائل على أن العرب كانوا يتجرون مع أمريكا قبل كولمبس بزمن طويل وثبت أن سفن العرب أقلعت من جزيرة كناريا ومن هنا إلى ازوارد وسط الأطلنطي ونزلت أيرلاندا وجزائر إنجلترا الغربية .

وكان في لشبونة مصور لبلاد أمريكا من صنعة العرب .

ويقول محمد بن عمار الورتناني في كتابه كشف الحجب : ولنا أن نقول إن التجارة بين العرب وهنود أمريكا كانت قبل موافاة كولمبس لها بخمسة قرون ، ولما أبحر كولمبس من أوربا كان مزوداً بمصورات وخرائط للعرب ، وبها اهتدى إلى تلك الأرض واستصحب رجلين من العرب كانا قد عبرا إلى أمريكا قبل ذلك وعرفا الطريق كما عثر أحد علماء الأثريات على ألواح مكتوبة بحروف عربية ولغة عربية (٢) .

(١) راجع المجمع العلمي العراقي م ٣ سنة ١٩٥٥ .
(٢) راجع محمد كرد علي الإسلام والحضارة العربية .

٣

وقد صدر عام ١٣٤٢ م في أمريكا كتاب عنوانه أفريقية وكشف أمريكا تأليف ليووينر Leowiener من علماء جامعة هارفرد ، أثبت فيه وجود كلمات عربية في لغات هنود أمريكا . وهذا المؤلف يعرف ٢٦ لغة وقد شرع في تعلم لغات هنود أمريكا ليرى ما فيها من الكلمات والتعابير .

وقد أشار إلى أنه يوجد فيها كثير من الكلمات الإنجليزية والإسبانية والفرنسوية والبرتغالية وأقدم من هذه كلها : كلمات عربية . وقال إنه يرجع أقدم هذه الكلمات إلى ١٢٩٠ م أي إلى قرنين قبل وصول كولمبس إلى أمريكا ، وقد يكون أصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين .

وذهب بعض الباحثين إلى أن عمران (الأزدوالمايه) عمران عربي محض وأنها مستعمرات عربية وجدت في أمريكا بين سنتي ١١٥٠ — ٢٠٠٠ م والعمران العربي بلغ أوجه في أفريقيا في القرن التاسع المسيحي وامتد جنوباً إلى مندنجو في غرب أفريقيا ومن هناك وصل إلى شداكان على شاطىء خليج المكسيك ، لأن آثار العرب في لغات أمريكا ترد كلها إلى هذا المكان وإلى مندنجو وهي الكلمات التي تنتقل عادة من لغة الغالب إلى لغة المغلوب كالكلمات الطبية والسياسية (١) .

كذلك أثبت عالم الأجناس الأمريكي جيفريز ١٩٥٥ في أبحاثه عن أصل الشعوب الأمريكية القديمة فأكد أن العرب كانوا على صلة بشواطىء الأمريكيين قبل مجيء كولمبس بأربعة قرون ، ومما استدل به على صحة رأيه أن الأذرة وهو نبات أمريكي قد انتشر في العالم القديم منذ ذلك الزمن على أيدي العرب .

---

(١) المقتطف (أغسطس ١٩٢٦) .

وفي كتب العرب (نزهة المشتاق للشريف الإدريسي) أشار إلى محاولتين عربيتين عبر أمواج المحيط الأطلسي ، كما أشار إليها مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وصبح الأعشى للقلقشندي .

٤

ويشير أحد الباحثين إلى أثر اللغة العربية في اللغات المختلفة فيقول :

لو أخرجت من قواميس الأسبانيول والبرتغيز وسكان أمريكا الجنوبية والوسطى جميع المفردات العربية والحلى التي اكتسبتها رطانتهم من العرب لما عرفت تلك الأمم أن تبدي فكراً سامياً ومن ذلك ما ذكره جول فيرن في إحدى قصصه تقديراً للغة العربية فقد كتب أن سياحاً في أجواف الأرض تحت قعر البحر العميق ، اخترقوا طبقات القرى الأرضية حتى وصلوا إلى وسطها أو ما يقرب من ذلك ولما أرادوا الرجوع إلى وطنهم فكروا في ترك أثر يحفظ ذكرهم إلى أبد الآبدين ، إذا وصلت علماء الأجيال المستقبلة إلى محط رحالهم فاتفقوا فيما بينهم أن ينقشوا في الصخر كتابة باللغة العربية ، ولما سئل جول فيرن عن سبب اختياره اللغة العربية قال إنها لغة المستقبل ولا شك في أن يموت غيرها وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه .

* * *

ومما يضاف إلى ذلك أن انتقال اللغة العربية إلى اللغات الأوربية بمصطلحاتها وتعابيرها ليس وحده ما نقل ، بل لقد انتقل إلى الغرب استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع ما لحقها من التعديل .



الكتاب الثاني

اللغة العربية في مواجهة التحديات

(١) في مقاومة نموها وتوسعها

(٢) حرب اللغة العربية

(٣) الدعوة إلى العامية

(٤) الاستشراق ومقاومة الفصحى



الباب الأوّل

محاولات مقاومة نموّها وتوسّعها

الفصل الأول

محاولات ايقاف نموها وتوسعها

منذ أن قدم الاستعمار إلى عالم الإسلام وكان في مخططه عمل واضح متكامل الخطة في مواجهة نمو اللغة العربية وتوسعها وذلك بتجميدها وإيقافها : واتخاذ الوسائل كل الوسائل إلى تحقيق هذا التجميد وهو عمل مكمل لتحقيق غاية أساسية هي هدم قيمها ومفاهيمها .

وإن نظرة إلى تطور اللغة العربية في السنوات الثلاثين والمائة الأخيرة يكشف عن علامات واضحة وأدلة صادقة .

فقد استطارت في ظل الاستعمار الدعوة إلى العامية واللهجات المحلية واللغات القديمة والحروف اللاتينية ، وظهرت كتابات مختلفة تحاول أن تجدد ما اندرس من اللغات القديمة كالقبطية في مصر مثلاً إذ ظهر من يهتم بجمع الكلمات العربية العامية التي لها أصل قبطي ، وتعالت الصيحات بدعوة المصريين إلى التماس لغتهم القديمة ، وعمد البعض إلى وصف اللهجة العامية المصرية بأنها لغة مستقلة سابقة للغة العربية ، ومنهم من قال إن اللغة العربية لغة أجنبية ، وأنه يجب أن تحول لتعود مصر إلى لغتها القديمة .

وقد واجه كثير من الباحثين هذه المحاولة المؤيدة بالنفوذ الأجنبي فقال

الدكتور زكي مبارك : إن أهل مصر تكلموا اللغة العربية نحو ثلاثة عشر قرناً فهل تعرفون أن المصريين تكلموا اغة واحدة ثلاثة عشر قرناً قبل أن يتكلموا اللغة العربية . إن التاريخ يؤكد أن المصريين قبل الإسلام كانت لهم لغة في الشمال ولغة في الجنوب ويؤكد أنهم عرفوا لغة ثالثة هي اللغة اليونانية ، وكانت لهم لغة رسمية في بعض العهود ، وربما استطاع التاريخ أن يقول إن مصر كان فيها ثلاث لغات : لغة لأهل مصر الوسطى ولغة لأهل الجنوب ولغة لأهل الشمال .

والتشابه بين اللغة المصرية واللغة العربية أثبته كثير من الباحثين منهم المرحوم أحمد كمال باشا .

« إن مصر — لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين — هي البلد الوحيد الذي انقرضت لغاته القديمة لتحل محلها اللغة العربية ، وهذا حظ لم تظفر بمثله أمة عربية . فالأقطار الشامية تحيا فيها اللغة السريانية واللغة العبرانية والبلاد العراقية تحيا فيها اللغة البابلية واللغة الكردية . والجزيرة العربية تحيا فيها لهجات مختلفات والبلاد المغربية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة بعضها قديم وبعضها حديث » وقد عصفت الظلمات بلغة القرآن في كثير من الممالك فاضطرت بغداد وكانت عروس العروبة إلى أن تتكلم الفارسية بضعة قرون ثم قهرها الظلم بعد ذلك إلى أن تتكلم التركية زمناً غير قليل .

والشام في مختلف أقطاره تعرض كارهاً لأمثال تلك الخطوب ، ومع هذا لطف الله بمصر فظلت موئل اللغة العربية وكانت المساجد في القاهرة وفي سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين ، وما يزال الناس يذكرون كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفرس والهنود والعراقيين والشوام والمغاربة والأندلسيين في ميادين المعقول والمنقول .

« فالذين يهمسون بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية : هم قوم مجرمون

يستأهلون التأديب ، وكيف تكون لغة أجنبية وقد تغلغلت في دمائنا وأرواحنا نحو ثلاثة عشر قرناً وكنا الدرع الذي يصد ما يوجه إليها من سهام ونبال .

« إن اللغة العربية في مصر أرسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الألمانية في ألمانيا ، لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا ، والفرق بيننا وبينهم أنهم سلموا من الدسائس وابتلينا نحن بالدسائس .

« وهل في الدنيا لغة عاصرت القرآن وبقيت مفهومة لأهلها على نحو ما يفهم القرآن في جميع البيئات العربية .

« إن مصر هي التي حفظت لغة القرآن بلا جدال ولا نزاع فمن العار أن يوجد في أبنائها من يقول إنها لغة أجنبية .

« إن اللغات المصرية القديمة لن تعود أبداً ، ولو أنفقنا في سبيلها غاليات الأنفس والأموال ، فهل ترون أن نتكلم بعض اللغات الأوربية وهي أجنبية أجنبية .

« وهل يدعو إلى هذا الرأي غير مخلوق جهول ، هل تستطيع مدينة في الشرق أن تقول إنها أدت للدراسات العربية والإسلامية ما أدت القاهرة ، وهل أذيعت تفاسير القرآن في أي بلد عربي قدر ما أذيعت في القاهرة ، وهل نشرت عيون المؤلفات العربية إلاّ بفضل مطابع القاهرة .

٢

أما في الهند فقد جرت محاولة خطرة لإيقاف اللغة العربية وتجميدها والحيلولة دون أن تكون لغة المسلمين في شبه القارة ، وقد قاد (غاندي) هذه المواجهة حين أعلن صيحته المشهورة بمعاداة اللغة العربية فقال :

إن من الخير لسكان الهند ألا يلجأوا إلى اللغة الأردية لأنها تكتب بأحرف القرآن وهو كتاب المسلمين وحدهم ، وعلينا أن نختار اللغة المحفوظة عن الأمهات فقط وهي اللغة السنسكريتية .

وقد رد عليه أحد زعماء الفكر الإسلامي (محمد حسن الأعظمي) فقال : إن المسلمين ليس لهم أمهات سوى أزواج نبيهم ، ولغة أولئك الأمهات هي اللسان العربي المبين .

فالمسلمون في الهند يعتبرون اللغة العربية : لغتهم الأولى .

غير أن القضية بدأت قبل ذلك بوقت طويل ، فقد اتخذ الاستعمار البريطاني للهند أسلوباً خطيراً للقضاء على اللغة العربية حين اتخذ في كلية فورت . (وليم) لغتين (أولاهما) الأردية وهي للمسلمين والهندية للهندوس ، واتخذ من ذلك ذريعة لإحداث الفرقة بين الهندوس (١) والمسلمين وبث السموم التي ترمي إلى القول بأن الأردية لا تصلح لأن تكون لغة مشتركة إلا للمسلمين فقط لأنها حافلة بالفكر الإسلامي ، أما الهندوس فعليهم أن يشقوا طريقاً مستقلاً عن نفس اللغة وذلك عن طريق شطب الكمية الكبيرة من الكلمات العربية والفارسية وحروفها من ناحية وإخراجها من اللغة وإدخال كلمات سنسكريتية وحروفها من ناحية أخرى .

« وبذلك تكونت في مستهل القرن ١٩ لغتان ، مع أنها لغة مشتركة واحدة وقد انتهى ذلك إلى اشتداد الخلاف بين أنصار كلتا اللغتين وزيادة هوة الخلاف بينهما عمقاً واتساعاً اثر قيام دولتي الهند وباكستان »

وكلية فورت أنشأها الإنجليز في كلكتا عام ١٨٠٠ واستهدفت منذ اليوم الأول القضاء على اللغة العربية وتضييق شقة اللغة الأردية وجعلها لغة ثقافية بينما أتيحت الفرصة للغة الإنجليزية لتكون اللغة الأولى بين المسلمين والهندوس

---

(١) دكتور محمد إسماعيل الندوي : مجلة الثقافة سنة ١٩٦٥ .

وعندما استقامت للهندوس لغة خاصة بدأت المحاولات للنفور من الآثار الإسلامية المتلبسة باللغة الأردية ، كما أخرجوا جميع الكلمات والحروف العربية والفارسية التي كانت تستخدم في اللغة الأردية ووجهوا عنايتهم إلى الأدب الهندي القديم وإحيائه وجعله نبراساً لمستقبل اللغة الهندية بل لقد حاول الهنود فرض اللغة الهندية لغة مشتركة .

ولما قامت دولة الباكستان عام ١٩٤٨ تجددت الجهود لمقاومة توقف اللغة العربية ومحاولة إعادة الحروف العربية إلى اللغة البنغالية وقامت جمعية لهذا الغرض أطلق عليها جمعية حروف القرآن الثقافية .

غير أنه من الناحية الأخرى فقد اتجه دعاة الغزو الثقافي إلى استعمال الحروف اللاتينية في كتابة اللغة الأردية بدلاً من الحروف العربية .

وقد توالت الجهود التي قام بها صفوة من أعلام الفكر الإسلامي الهندي وفي مقدمتهم عبد الستار ست . إلى إعادة اللغة العربية إلى مكانها مما نتج عنه قرار المؤتمر الإسلامي في كرتشي عام ١٩٥١ باتخاذ اللغة العربية لغة دولية في العالم الإسلامي تتفاهم بها الدول الإسلامية في كتاباتها الرسمية (باكستان — إيران — تركيا — أندونيسيا) وافتتح على أثر ذلك معهد لتعليم اللغة العربية في باكستان وأندونيسيا .

وقد جاء قرار مؤتمر الدراسات العربية والإسلامية في جامعة بشادر (باكستان) برئاسة خوجة شهاب الدين (١٩٥٤) هاماً حيث جاء فيه .

إذا كانت اللغة العربية هي المعين الأساسي للثقافة الإسلامية ، وإذا كانت هي العروة الوثقى للتقريب بين المسلمين في كافة أنحاء العالم ، فإن المؤتمر يوصي الحكومة المركزية والحكومات الإقليمية أن تعيد اللغة العربية إلى مكانها الصحيح في النظم والمناهج التعليمية ، وأن تجعلها مادة إجبارية تدرس في كل المدارس .

كذلك إنشاء مدارس لتحفيظ القرآن للأطفال الصغار وهم بعد في سن الطفولة والقدرة على الاستيعاب والحفظ فليس أقوى من القرآن وسيلة لتقويم الألسنة على العربية وإذا كانت انجلترا قد استطاعت مدة استعمارها للهند أن تجعل اللغة الإنجليزية هي اللغة السائدة بين الباكستانيين وبين المثقفين منهم خاصة وعلى اختلاف لغاتهم القومية يتفاهمون معاً باللغة الإنجليزية فإن الباكستان تستطيع أن تصل إلى نفس النتيجة باللغة العربية وأن تحقق أثراً سريعاً لأن اللغة الأوردية هي لغة غالبة في الباكستان الغربية تحتوي على نسبة كبيرة من الألفاظ والمفردات والتعابير العربية .

وعندما أصدر البرلمان في أبريل ١٩٥٤ قراراً باتحاد لغتين قوميتين هما الأوردة والبنغالية تجددت الدعوة إلى لغة واسعة هي اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والثقافة الإسلامية .

ذلك أن اللغة الأردية ليست غنية في تعبيراتها أو في قواعدها بحيث يمكن أن تكون لغة حية في النواحي العلمية والاقتصادية ، أما اللغة البنغالية فهي خليط من اللغات العربية والفارسية والسنسكريتية (الهندية القديمة) فاللغة العربية أكثر شمولاً واستيعاباً .

ولقد كانت كل هذه المحاولات لمعارضة اللغة العربية كسباً لتوسع اللغة الانجليزية والاعتماد عليها . وفي الوقوع تحت سيطرتها متابعة وولاء للفكر الذي تحمله .

٣

وتتمثل المؤامرة الكبرى الثانية في تركيا حين أعلن مصطفى كمال إقصاء الحروف العربية وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وقد انطوت هذه الخطوة على حملة ضخمة مركزة على اللغة العربية ، بدا ذلك عام ١٩٢٧ ثم

جرى تصفية اللغة من الكلمات العربية حيث عقد عدد كبير من المؤتمرات التي قامت بإخراج ١٣٦٥٠ كلمة عربية حلت بدلاً منها كلمات تركية حيث اعتبرت الكلمات العربية كلمات أجنبية . ولا ريب أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية قد أفقدهم تراثاً ضخماً يتمثل في مئات المجلدات من الأدب والفن والثقافة التي كتبت باللغة القديمة ، فضلاً عن أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية أفقدهم تصوير الأحرف المتشابهة كالفاء والحاء والصاد والضاد والحاء والطاء والعين ، فإن هذه الأحرف لا يمكن أن نجد في اللاتينية ما يصورها بحرف واحد يقوم مقامها .

٤

وقد حاولت حملة التغريب على اللغة العربية أن تمتد إلى فارس وغيرها ، أما في فارس فقد توقفت وعجزت عن تغيير الحروف العربية ، قال عبد الحميد إيراني صاحب جريدة جهرنماء الفارسية : إن بعض المستشرقين حاول إقناع أولي الأمر في طهران بتغيير الحروف العربية والالتجاء إلى اللاتينية في كتابة اللغة الفارسية فاعترض على ذلك رجال إيران .

ومع ذلك فقد عمد الإيرانيون إلى الاستعاضة عن الكلمات العربية في لغتهم بكلمات إيرانية فلما أساء هذا العمل بعض المقامات قال مسؤول : إن الرغبة في إصلاح اللغة الإيرانية ليس بدافع لأي صبغة سياسية ، أو دينية أو مذهبية ، وليس بدافع الخصومة للعرب . وإنه ليس المطلوب تجريد اللغة الإيرانية من جميع الألفاظ العربية لان ذلك غير ممكن وكل ما نريد تركه هو ألفاظ وعبارات أجنبية لسنا بحاجة إليها ونرمي إلى عدم تغلب العناصر الأجنبية على لغتنا وسنسعى لنحافظ على أسلوب اللغة الفارسية حتى لا تخرج عن الأسلوب الصحيح (١) .

---

(١) الأهرام ٣١ / ١٢ / ١٩٣٥ .

٥

وجرت في أندونيسيا محاولة ضد اللغة العربية ، فقد عمد الاستعمار الهولندي إلى تغيير كتابة اللغة الملاوية بالحروف اللاتينية .

وقد أوجد هذا الإجراء حزبين أحدهما يعارض الحروف اللاتينية ويكشف عن خطرها بالنسبة لتراث الحروف العربية التي كتبت بها اللغة الملاوية منذ دخل الإسلام جاوة وسومطرة .

٦

وفي عدد كبير من أقطار أفريقيا وآسيا جرت المحاولة ضد اللغة العربية عن طريق إعلاء اللهجات الإقليمية أو كتابة الحروف باللغة اللاتينية وذلك لقطع الصلة بين المسلمين وبين اللغة العربية .

وقد أشارت الأنباء إلى أن الصومال حين حاولت أن تتخذ اللغة العربية لغة رسمية لبلادها حيل بينها وبين ذلك واتفقت الإدارة الإيطالية مع هيئة اليونسكو الدولية بمحاولة وضع أحرف أبجدية لاتينية بلغة الصومالية ، وقد عارضت القوى الوطنية في الصومال هذا الاتجاه .

وتجري تلك المحاولة في مختلف أقطار أفريقيا حيث يعارض الاستعمار في اختيار اللغة العربية وحشد القوى لمقاومتها ومعارضة نموها يشترك في ذلك بلجيكا وفرنسا وبريطانيا والحبشة .

الفصل الثاني

حرب اللغة العربية

ونقصد بها حرب الاستعمار للغة العربية عن طريق القوى الرسمية التي يمتلكها أو يسيطر عليها ، عن طريق التعليم والمدرسة فقد كانت خطة الاستعمار في العالم الإسلامي كله طرد اللغة العربية من المدارس والجامعات وإقامة الدراسات كلها باللغات الأجنبية وإحياء اللهجات ودفعها بقوة حتى تصبح لغة عن طريق الصحافة .

وفي مصر صور هذا الموقف الأستاذ محمود أبو العيون تصويراً دقيقاً :

فأشار إلى الدور الذي قام به القس دوجلاس دنلوب المستشار الإنجليزي في وزارة المعارف وكيف اضطهد مدرسي اللغة العربية ورجالها وهاجم لابسي العمائم وحرص على إلغاء كل المقررات والكتب التي كانت تدرس قبل الاحتلال واستبدلها بأخرى تختلف من حيث القضاء على روح الوطنية والرابطة العربية والإسلامية ، واستهدف من ذلك إضعاف اللغة العربية توطئة للقضاء على القرآن .

وأشار لورد دوفرين في تقريره عام ١٨٨٢ إلى هذا الاتجاه فقال :

إن أمل التقدم ضعيف (في مصر) طالما أن العامة تتعلم اللغة الفصيحة

العربية — لغة القرآن كما في الوقت الحاضر .

وفي نفس هذا العام كان مهندس الري وليم ويلكوكس يحاضر عن أهمية اللغة العامية في إيجاد روح الابتكار عند المصريين ، ويشتري مجلة عربية لينشر فيها محاضرته ويفتح باب الحوار حول ذلك .

غير أن الموقف لم يلبث إلاّ قليلاً حتى انفجر في عام ١٩٠٧ وطالب الشعب بإعادة التدريس باللغة العربية (لغة البلاد) ووقف وزير مصري هو سعد زغلول يدافع عن تدريس العلوم باللغة الإنجليزية .

واضطر الإنجليز أن يعيدوا بالتدريج تدريس بعض العلوم باللغة العربية :
لقد تعلم المدرسون الإنجليز اللغة العربية ليعلموا بها هذه المواد .

وأشار الشيخ محمود أبو العيون في تقريره الضافي إلى أن الإنجليز ألغوا المجانية في جميع المدارس (عاليها وثانويها وابتدائيها) وحرموا الفقراء من الدخول إلى تلك المدارس قتلاً لمواهبهم الفطرية .

وأعلن يعقوب أرتين باشا (وكيل المعارف) ذلك بصراحة حين قال :
إن وجود المجانية في المدارس الابتدائية في مصر أمر غير عادل .

وقال اللورد كرومر في تقريره عام ١٩٠٠ ما يأتي :

في ١٨٧٩ كانت نسبة المجانية في مدارس الحكومة ٩٥٪ أما في السنة الماضية (أي ١٨٩٩) فإن نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية كانت ٩٨,٥٪ في المائة وفي المدارس الثانوية ٨٩٪ وأنا واثق من أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجاني كلية .

وفي سنة ١٩٠٤ كان هناك تلميذ واحد فقط يتعلم مجاناً في المدارس الابتدائية وقد كتب سعيد أبو حمزة في المقتطف (أغسطس ١٩٠٢) قال :

كيف ترقى العربية وقد طردتها الإنجليزية من القصر العيني بمصر عن

يد القوة الحاكمة فيها ، وكيف ترقى وقد دحرت في الكلية السورية ببيروت منذ نيف وعشرين سنة ؟

وأشار جرجس سلامة في كتابه التعليم الأجنبي في مصر إلى هذا المعنى حين قال : إن جميع المدارس الأجنبية دون استثناء قد أسهمت بنصيب كبير في إضعاف اللغة العربية ، فهي تلقي في خضم الحياة المصرية كل عام من ينظرون إلى غيرهم من طبقات المتعلمين وإلى اللغة العربية نظرة متعالية .

وكانت قاعدة الاستعمار البريطاني في مصر قول بلجران أوكرومر أومن تشاء من أساطين الغزو الثقافي إنه (متّى توارى القرآن يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة . وإن القرآن لا يتوارى حتّى تتوارى لغته) وقد أكد هذا الخطر في نظر الاستعمار كبير المبشرين دكتور زويمر حين قال : إن اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وإنه لم يسبق وجود عقيدة مبنية من التوحيد أعظم من عقيدة الإسلام الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا الواسعتين وبث عقائده وشرائعه وأحكم عروة الارتباط باللغة العربية .

٢

ولقد تردد القول بأن العثمانيين قد حاولوا تغليب اللغة التركية في المدارس والدواوين ، والواقع أن إطلاق هذا القول مما عمد إليه التغريب من داخل خطته للوقيعة بين العرب والترك ، والحقيقة التي لا ريب فيها أن هذه المرحلة جاءت بين عام ١٩٠٩ و ١٩١٨ وهي المرحلة التي حكم فيها تركيا جماعة الاتحاد والترقي الذين شكلتهم المحافل الماسونية وكانت خطتهم مرتبطة بالصهيونية العالمية بعد أن أسقطوا السلطان عبد الحميد الذي وقف في وجه اليهود وحارب الدونمة سنوات طويلة حتّى لا تقع فلسطين في أيديهم ، وكان

موقفه الواضح الصريح هذا هو مصدر القضاء عليه . في هذه الفترة حاول الاتحاديون قطع آخر خيط بين الأتراك والعرب بهذه المحاولة التي باءت بالفشل وظهر تمسك العرب بلغتهم والإصرار عليها ، غير أن الخطر الكبير هو خطر الغزو الغربي بلغاته الأربع للعالم الإسلامي: الإيطالية في ليبيا والفرنسية في المغرب وسوريا والإنجليزية في مصر والعراق والهند والسودان والهولندية والإنجليزية في جنوب شرق آسيا .

وقد اقتضى طوال مدة الاحتلال والسيطرة إلى تثبيت أقدام هذه اللغات وتشكل أجيال بعد أجيال عليها وخاصة بين مسلمي الهند ومسلمي أندونيسيا وجاوة والفيليبين .

ولا ريب كان لمدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية بصفة عامة أكثر الأثر في تمكين هذه اللغات وفي حرب اللغة العربية وإقصائها عن مجال التعليم والتوجيه والثقافة .

وقد انتشرت هذه اللغات الأجنبية عن طريق فرضها على مدارس الحكومات في العالم الإسلامي بحيث أصبحت هي أداة التعليم لمختلف مواد المنهج ، وكانت اللغة الإنجليزية في مصر مثلاً لهذا النوع ، فقد فرضها الاستعمار البريطاني على المدارس الابتدائية ثم جعلها الوسيلة للمرحلتين الثانوية والعالية .

وكان للغة الفرنسية خطوة خاصة لدى بعض الحكام في العالم الإسلامي وقد نافست اللغة الإنجليزية وسابقتها ، إذ كان النفوذ الفرنسي قد تقدم على النفوذ الإنجليزي في مصر وتركيا أكثر من سبعين عاماً .

وكان الصراع بين اللغتين في التعليم الثانوي والعالي سنوات طويلة على حساب اللغة العربية ، ولقد آزر الاستعمار البريطاني لغته وفرضها وفتح لها مدارس خاصة هي مدارس المعلمين العالية التي خرجت مجموعة ممن يدينون بالثقافة الإنجليزية ويصارعون خريجي المدارس الفرنسية وخاصة مدرسة الحقوق.

وقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية هذا الموقف في سداد وحسم فأنشأت المدارس الأهلية في مختلف بلاد العالم الإسلامي للتدريس باللغة العربية وإحياء القرآن .

ولا ريب أن الصورة التي حققتها جمعية العلماء في الجزائر : هي مثل تاريخي من أعظم الأمثلة وأروع النماذج فقد استطاع الإمام عبد الحميد بن باديس وصحبه بعد أن ألغت فرنسا العربية تماماً من التعليم إعادتها عن طريق إنشاء ثلاثمائة مدرسة في المساجد .

وفي مصر قامت الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية العروة الوثقى بدور كبير وكان للشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد أثر وافر في هذه المقاومة .

٣

ولم تكن اللغة الأجنبية تسيطر على مقدرات الأمة في مجال التعليم وحده بل في مجال الاقتصاد (البورصات) ومجال المحاكم (المختلطة) وكانت اللغة الأجنبية مقررة في المحاكم المختلطة منذ عام ١٨٧٥ وكانت أحكامها تكتب وتصدر باللغة الفرنسية وعندما حاول أحد القضاة (عبد السلام ذهني) أن يتحرر من هذا القيد عام ١٩٣٣ ويصدر أحكامه باللغة العربية ثارت إنجلترا واهتزت فرنسا ، وأوقف عن العمل . وحيث لا تسيطر اللغة الأجنبية الوافدة تسيطر اللهجة العامية ، وخاصة في مجال الإذاعات والمسرح والسينما .

ولقد كانت محاولات الاحتلال الأجنبي لمختلف أقطار العالم الإسلامي العمل على تجميد نمو اللغة العربية وامتدادها في المناطق التي أسلمت ، وإلغائها في مناطق نفوذها بتغليب لغة المستعمر وإحياء اللهجات ودفعها حتى تصبح لغات منفصلة يكتب بها ويعلم .

ورغم أن هذه السياسة لم تحقق نتائجها التي كان يرجوها الاستعمار — إلا أنها تركت مشاكل ومواقف غاية في الخطورة، وقد أشار مؤتمر المفكرين الآسيويين الأفريقيين في لاهور (شباط ١٩٦٥) إلى هذه الأزمة حين قال :

إنه في كل قطر لغة استعمارية تستخدم كوسيط ثقافي ، كما في الهند والباكستان حيث يؤدي الاستغناء عن الإنجليزية إلى خلق مشكلات مختلفة منها تهيئة اللغة المحلية للتكيف مع المتطلبات الثقافية والحضارية والعلمية المعاصرة ومنها احتجاج الأقليات اللغوية التي تجد نفسها مضطرة لتعلم لغة غير لغتها وقد رأينا الهند مشغولة بمشكلة اللغة القومية تصطرع فيها آراء ومجالات تتخذ طابع الحدة والعنف » .

٤

وفي شمال أفريقيا كانت الأزمة عميقة وخطيرة إلى الحد الذي ما تزال عقابيلها قائمة حتى الآن . فقد حرص الاستعمار الفرنسي خلال أكثر من مائة وثلاثين عاماً في الجزائر وثمانين عاماً في تونس والمغرب إلى فرض اللغة الفرنسية وتعميم اللهجات وإقامة الصراع بين العرب والبربر وإحياء لغات البربر القديمة السابقة للإسلام وجعل اللغة الفرنسية هي لغة التعليم والثقافة والمحكمة والديوان .

يقول عبد الكريم غلاب : لقد كانت لغة المستعمر هي الوسيلة الأولى للغزو الفكري الاستعماري ، دخلت بلادنا لا على أنها لغة فكر وحضارة وثقافة ولكن على أنها لغة رفع الأمية ولغة حديث ولغة غازية تحل محل اللغة القومية في الحديث والكتابة والمعاملة .

دخلت المدرسة والإدارة وغزت السوق والمعمل والمصنع والمزرعة والمنزل وطاردت العربية في كل مجال يمكن أن تتنفس فيه نسيم الحياة وإن لم تستطع

القضاء على لغتنا القومية نهائياً . فقد كانت آثار مطاردتها قوية عنيفة وخاصة في الجزائر حتى أصبحت اللغة العربية متخلفة وغريبة في كل مجال فكري أو حضاري .

وأصبحنا نتكلم بلغة ونفكر وندبر ونتعامل بأخرى .

بل إن اللغة الغازية احتفظت بمكانتها فلا يكاد يخرج المتعلم منا من مجال الحديث العادي حتى يلتجيء إليها لتساعده على التعبير عن أفكاره ، ولو كانت أفكاراً مجردة لا علم فيها ، واللغة ليست أداة ولكنها فكر وروح ، وليست أسماء وأفعالاً وحروفاً ولكنها تحمل كل مقومات الأمة التي نبتت فيها وسايرت تاريخها وكل تطوراتها الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والحضارية ، وإذا استغلت كأداة للغزو فإنها بالإضافة إلى قضائها على اللغة القومية فإنها تحمل معها طابع الأمة الغازية وفكر الأمة الغازية .

ولهذا كان الغزو اللغوي مركباً في مقدمته احتقار اللغة القومية .

٥

ولقد كانت قنبلة إلغاء الحروف العربية من اللغة التركية عام ١٩٢٣ من الأحداث الكبرى التي هزت حركة اليقظة الإسلامية ودفعتها إلى العمل والتنبه لهذا الخطر مما دفع الكثيرين إلى الكتابة عن اللغة العربية الإسلامية ولغة الإسلام ، ومنهم السيد محمد رشيد رضا(١) الذي دعا إلى جعل اللغة العربية لغة المسلمين في كل بقاع آسيا ، والذي قال إن اللغة العربية مفروضة فرضاً على المسلمين ونعى على الأتراك (تطهير) لغتهم العثمانية من لغة القرآن العربية .

وقال إن علماء الترك والفرس والأفغان والهند والصين والملايو يعرفون

---

(١) الأهرام ٢٩ أغسطس ١٩٢٣ .

اللغة العربية ويخاطبون بها ، وإن اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي ، وهي اللغة التي يتعين على جميع المسلمين أن يتلقوا بها دينهم في جميع الأقطار فلا يوجد بلد يقام فيه الدين الإسلامي إلا ويوجد علماء يعرفون هذه اللغة .

وحث رشيد رضا المسلمين إلى استعمال لغة واحدة بينهم أسوة بالقاعدة المتبعة في استعمال اللغة الفرنسية في مسائل القانون والسياسة . وقال : أما برهان العقل فلا يتطرق الشك فيه من تفضيل اللغة العربية على التركية أو العثمانية بكونها لغة هذا الدين بل لغة شطر القارة الأفريقية الشمالي من الغرب إلى الشرق ، وشطر آسيا ، الشرقي من البحر الأحمر إلى خليج فارس ، وهي اللغة التي يتعبد بها هؤلاء المسلمون ويتلقون دينهم في جميع الأقطار .

وقال : ولما كان الإسلام دين التوحيد : ديناً عاماً لجميع البشر وكان من مقاصده أن يؤلف بينهم ، فرض عليهم توحيد اللغة فخرجت هذه اللغة عن أن تكون لغة شعب واحد منهم ، ولولا ذلك لم تؤثرها جميع الشعوب الإسلامية على لغاتها حتى عم انتشارها في المشرق والمغرب مع الإسلام .

٦

أشار كثير من الباحثين إلى الهدف من حرب اللغة العربية وتجميدها وتوقيفها عن الانتشار ، وإعلاء اللهجات القومية ولغة المستعمر وتغليبها على مختلف مناهج التعليم والبنوك والمحاكم والدواوين ومختلف المعاملات .

وكان من الواضح أن الهدف هو الفصل بين العرب والمسلمين ، ورفع شأن الثقافات القومية الإقليمية وعزلها عن الفكر الإسلامي ، المتصل بالإسلام والقرآن .

يقول المبشر زويمر : في كتابه جزيرة العرب : مهد الإسلام .

« يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار المادي ومجال الدعوة إلى الله وهما الإنجليزي والعربي ، وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع النفوذ والمال ، يريد أن يلتهم كل منهما الآخر وهما المعضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشري : أعني النصرانية والإسلام » .

وهكذا نعرف خطر المحاولة وهدفها ونحس بأحقاد خصوم الإسلام من هذه المقارنة : « إذا قلنا إن اللاتيني لسان العبادة في الكنائس الكاثوليكية فلسان الإسلام أعم في مساجد المشرقين والمغربين بين أهل التوحيد جميعاً . والصلاة به متواصلة تواصل ساعات الزمن ، ألا ترى المؤذن يدعو المؤمنين إلى صلاة الفجر في جزر الفيليبين في أقصى الشرق باللسان العربي المبين ، فتتبع تكبيراته تكبيرات المئات والألوف من أهلها يتردد صداها من مئذنة إلى مئذنة ومن جبل إلى جبل ، ومن واد إلى واد . فإذا قضيت صلاته في تلك الجزر تنقل الأذان منها إلى غيرها تنقل الفجر في مطالعه فسمعته في الصين وسيبيريا ثم في الهند وفارس ثم في مكة والمدينة والقدس والقسطنطينية ثم في مصر ثم في تونس ثم في الجزائر والسودان ثم في المغرب الأقصى ثم يصل إلى الأقيانوس حتى شواطىء الأمريكان .

٧

وفي أفريقيا : حيث تعمل البعثات التبشيرية من أجل معارضة نمو الإسلام واللغة العربية نجد صورة دامية للحرب والمقاومة .

فقد كانت لغة العرب لها السيادة في مختلف أقطار أفريقيا قبل أن يعمد الاستعمار إلى زحزحتها عن مكانها وإعلاء لغاته الغربية ولهجاتها الساذجة ، فقد جعل الاستعمار اللغة العربية إحدى فرائسه كما جعل التبشير سلاحه لمحو الإسلام من أفريقيا .

يقول الأستاذ محمد مسعود (١) لقد كان للغة العربية الحظ الأوفى في الانبثاث في اللهجات الصومالية والزنجبارية أولاً لرجوع الصلة بين شرق أفريقيا وجزيرة العرب إلى أقدم عصور التاريخ وهو ما يتبين مثلاً من وجود كلمة (باريهو) منقوشة على جدران الدير البحري بطيبة . السبب الثاني لتغلغل اللغة العربية في اللهجات الصومالية والزنجبارية يرجع إلى أن أهل الصومال وزنجبار كانوا على أثر شيوع الإسلام بينهم في عهد بني أمية وهجرة الزيديين إلى تلك الأصقاع في حاجة إلى تفهم معاني القرآن والأحاديث وأقوال الأئمة ، على أن رطانتهم بلهجاتهم تلك ظلت على الرغم من توفرهم على درس اللغة العربية غالبة على ألسنتهم ففشا بينهم بجمعهم بينها وبين اللغة العربية لحن جديد عرف في شمال خط الاستواء باللغة الصومالية وفي صوته باللغة السواحلية وصارت كلتاهما من ناحية تأثير اللغة العربية فيها مزيجاً من كلمات زنجية بحتة .

وقد طرأ التشويه والتحريف على اللغة السواحلية باستيلاء البرتغاليين على حوض المحيط الهندي وسواحل شرق أفريقيا أما لغة التفاهم في زنجبار فهي خليط من لغات الزنوج والعرب والبرتغاليين بما يخص كل لغة من لحون مختلفة وكلمات تسربت من لهجات البلاد الحافة بالبحر الأحمر كمصر والحبشة واليمن .

ويقول محمد رأفت جمالي : إن اللغة السواحلية يتكلمها أكثر من ثلاثين مليوناً من الأنفس ولها جرائد وقواميس وهي لغة التفاهم في شرق أفريقيا كله بين جميع السكان من أوربيين وآسيويين ووطنيين ، ولها سلطان خاص ، ويتعلمها الإنسان بسرعة مدهشة ، وهي عبارة عن لهجات متنوعة وأصحها لهجة أهل زنجبار عاصمة شرق أفريقيا قديماً وحديثاً .

---

(١) الأهرام ، ٦ سبتمبر ١٩٣٢ .

وقد عمد الاستعمار إلى إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة السواحلية في زنجبار وكينيا وتنجانيقا وأوغندا ، وكذلك محل اللغة العربية ، وقد دافع (مبارك هناوي) عن حق العرب في اللغة العربية .

ويشير الكاتب الداهومي (ألبير تبغود) إلى عمق الخطة التي اصطنعها الاستعمار الفرنسي ، فقد كان يحاول أن يثبت في عقول الأطفال أنهم من الغال الفرنسي .

يقول : لقد ضحكنا كثيراً عندما كنا نسمع ونحن أطفال أن أجدادنا غاليون ، وقد فرضت فرنسا على الطلاب أن يعتبروا الفرنسية لغتهم القومية .

أما في ساحل العاج فقد كانت الأوامر تقضي بمنع التلاميذ من استعمال لغتهم الأم منعاً باتاً ، بينما كانوا لا يفهمون كلمة واحدة من الفرنسية وكانت تفرض العقوبات على المتمردين الذين لا يستطيعون أن ينصهروا في البوتقة .

وفي نيجيريا كان الإنكليز قد حالوا بين المسلمين والتعليم ، وكانوا يشترطون أن يغير المسلم اسمه إلى اسم لاتيني ويحضر الصلوات في الكنيسة ويدرس التاريخ الاستعماري .

وعمد الاستعمار إلى نقل حروف اللغات المحلية من العربية إلى الحروف اللاتينية ، كذلك هناك ظاهرة القضاء على التراث الإسلامي . أشار إليها نعيم قداح فقال : لقد التهمت نيران الجيوش الاستعمارية كل التراث الإسلامي والثقافي الموجود في المكتبات والمدارس ، وقضي على كل أثر علمي عندما قطع التيار الحضاري العربي القادم من شمال أفريقيا ومصر ، فقد بدأ الاستعمار الفرنسي في غرب أفريقيا ١٩٥٧ يقضي على الإسلام واللغة العربية .

ولم يحاصر الاستعمار الفرنسي اللغة العربية في شمال أفريقيا والجزائر وحدها ، بل في قلب أفريقيا أيضاً ، وانقرضت المدارس الإسلامية لأنها لم تستطع الحصول على إعانات ولم تبق إلا الزوايا لتعليم القرآن ، وقد كان

تعليم القرآن هو المنطلق الأول في التعليم العربي هناك ، والذين تعلموا في الأزهر أنشأوا عندما عادوا إلى بلادهم (السنغال ومالي) عدداً من المدارس الإسلامية وقد سرق المستعمرون الكتب ونقلوها إلى بلادهم وأغلقوا المدارس فسادت الجهالة بين المسلمين » .

حدث هذا بعد أن بلغت اللغة العربية (على حد تعبير توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام) في أفريقيا كل وصف حتى أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة .

وليس أدل على مدى انتشار اللغة العربية مما ذكره نعيم قداح من أن السلاطين كانوا يتكلمونها ومنهم السلطان موسى الأول سلطان مالي وقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة عندما قابل في القاهرة السلطان قلاوون ١٣٣٤ هجرية في طريقه إلى مكة .

وقد أرسل هذا السلطان الأفريقي البعوث العلمية إلى القاهرة وفاس ، وعاد المتعلمون وأصبحوا نواة لظهور حركة الثقافة الإسلامية في نياني (*Niani*) عاصمة مالي، وكومبي صالح عاصمة غانة القديمة ووالاتا وتومبوكتو ودينية في النيجر الأوسط . وأشار المؤرخ السوداني محمود كاتي إلى أنه كان في تومبوكتو نحو مائة وثمانين مدرسة تعلم القرآن والعربية .

وإن الأمراء الأفريقيين في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر يعرفون العربية ويستعملونها في مكاتباتهم الرسمية وعقدوا مع الفرنسيين معاهدة بالعربية والفرنسية (١) .

هكذا كانت العربية في أفريقيا في أوائل الاستعمار فقد كانت اللغة العربية لغة الثقافة والتخاطب والمراسلات الرسمية مع الدول الأفريقية والإسلامية بالإضافة إلى أنها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بأيدي العرب .

---

(١) نعيم قداح ، المعلم العربي (مارس ١٩٦١) .

٨

لما كانت اللغة العربية قد شاركت بحروفها وألفاظها في كل اللغات الأساسية في أفريقيا وهي الهوسا والماندنجو والوولوف والسواحلية والصومالية ولغات النيجر والدناكل في أثيوبيا واريتريا ، فقد كانت خطة الاستعمار والتبشير إزاءها مختلفة الاتجاهات وإن كانت موحدة الغاية .

ويصور هذا الأستاذ جلال عباس بعد دراسة متعمقة وإقامة وافية في هذه المناطق حين يقول(١) :

رأى الإنجليز أن الوسيلة الوحيدة لوقف تيار الثقافة العربية وتأثيرها هو إحياء الثقافات الإفريقية الأصلية وصبغها بصبغة قبلية إقليمية تساعد على إثارة التعصب وإقامة القومية المحلية المحدودة في نطاق قبلي، ليستغلوا هذه الروح في إقامة سد في وجه انتشار الثقافة العربية التي يخشون منها على مركزهم ومصالحهم الاستعمارية .

وكانت خطة السياسة البريطانية هي التسلل التدريجي لنشر الثقافة واللغة الإنجليزية لتحقيق الاستعمار الثقافي الكامل .

(١) تشجيع دراسة اللغات المحلية على يد المبشرين وعلماء اللغات .

(٢) العمل على تكوين لغات جماعية لمواجهة احتياجات التعليم بحيث توضع لغات جديدة مختارة تطعم ببعض الألفاظ من لغات أخرى قريبة منها أو لهجات في نفس اللغة ، كما تم وضع المجموعات اللغوية لجنوب السودان .

(٣) لما قامت محاولات إيجاد لغات أفريقية شبه موحدة ، اتجه الرأي إلى اختيار إحدى اللهجات في كل مجموعة لغوية لإحيائها وتغليبها على سائر اللهجات الأخرى بترجمة الكتاب المقدس إليها وتعليمها في المدارس في الابتدائي.

---

(١) مجلة الأزهر ، ١٩٦٠ .

(٤) تشجيع اللغة الإنجليزية المحلية (Piag in English) للتمهيد لسيادة اللغة الإنجليزية .

وعلى طول هذه المراحل كانت اللغة الإنجليزية هي لغة التعليم في المراحل العالية تدرسها تلك الصفوة التي يختارها المستعمر ليعدها لشغل الوظائف البسيطة في المصالح والإدارات والشركات .

(٥) إدخال اللغة الإنجليزية كلغة أساسية في مراحل التعليم المختلفة حتى نهاية التعليم الابتدائي ، ويتم ذلك تدريجياً حتى يقضي تماماً على الثقافات المحلية ويحل محلها الثقافة الإنجليزية .

* * *

أما الفرنسيون فقد اتخذوا سياسة مباشرة في القضاء على اللغات المحلية واللغة العربية على حد سواء ، وفق مذهبهم الاستعماري الذي يهدف إلى امتصاص الشعوب وفرنستها ، فأهملوا المحلية والعربية مع قصر التعليم على الفرنسية في المدارس ، وجعل اللغة أيضاً لغة رسمية في المصالح والشركات وقصر الانخراط في الوظائف على المتعلمين بالفرنسية .

كذلك اتبعت بلجيكا والبرتغال ذلك في مستعمراتهما .

يقول هلال عباس : إنه بالرغم من هذا الاختلاف في الأساليب فقد كان الموقف المباشر من اللغة العربية موحداً ويتلخص في صرف الأنظار عن تعليم اللغة العربية بعدم قبول الذين يتخرجون من المدارس العربية في الدراسة الثانوية والفنية ، إلى جانب موقفهم السلبي من التعليم العربي وعدم تقديم أي عون للقائمين عليه وعدم الاعتراف به ، وكل ذلك للتقليل من شأن هذه اللغة ولاضطرار المسلمين إلى الاتجاه إلى المدارس التبشيرية والمدارس الحكومية

---

(١) مجلة الأزهر ، ١٩٦٠ .

حتى يقعوا فريسة للاتجاهات الاستعمارية التي تعمل هذه المدارس على إشباع تلاميذها ليبتعدوا بكل الوسائل عن الثقافة العربية .

وكانت النتيجة أن هناك تعدداً لغوياً يحول دون وحدة الفكر ، فهناك أفريقي يتكلم الإنجليزية وآخر يتكلم الفرنسية وثالث يتكلم البرتغالية أو الإسبانية ومع هؤلاء جميعاً أفريقيون لا يعرفون إلا لغاتهم القبلية أو يعرفون العربية .

ولما كانت اللغات الأفريقية الوطنية من التعدد لدرجة يصعب التفاهم بها بين شعوب القارة وكانت اللغات الأوربية دخيلة على القارة، وقد أصبح من الضروري العودة إلى لغة جامعة لتحقيق وحدة الثقافة بين أقطار القارة .

وهذه هي المشكلة التي تقف في وجه الوحدة الأفريقية وتوجد للاستعمار مجالاً للاحتفاظ بسيطرته الثقافية على عقول الأفريقيين واتجاهاتهم عن طريق لغاته المنتشرة بين المسلمين، ولذلك فإن اللغة العربية أصلح اللغات لتحقيق وحدة الفكر الأفريقية .

الفصل الثالث

الدعوة الى العامية

لم تقف محاولات تحدي نمو اللغة العربية عند إيقافها عن التوسع والحيلولة دون حركتها مع انتشار الإسلام خاصة في قلب أفريقيا وجنوب شرق آسيا وفي المناطق الجديدة التي وصل الإسلام إليها ، وإنما جرت المحاولات إلى ضرب اللغة العربية في مواطنها وهدمها في معاقلها حيثما وصل نفوذ الاستعمار وسلطانه ، حيث فرضت لغة المحتل واعتبرت اللغة الأولى في المدارس والمعاهد التعليمية وأزيحت اللغة العربية أساساً ، ثم جاءت الخطوة التالية مباشرة وهي الدعوة إلى العامية وتشجيعها والاهتمام بها وبثها في مختلف جوانب الحياة من حديث وكتابة وإذاعة ومسرحيات وقصص . كما تقدم التبعيون بالدعوة إلى انتقاص اللغة الفصحى ومحاولة وصفها بالتعقيد ووصف العامية باليسر .

وتقدم جماعة من الغربيين ما بين مهندسين وقضاة للتأليف بالعامية وجمع الأزجال والفكاهات والكلمات الدائرة على الألسنة بين العامة ومحاولة تصوير تراث وهمي زائف من هذا كله حتى تنتقل الدعوة من الكلام عن اللهجة العامية إلى ما يطلق عليه لغة عامية كانت موجودة في هذه المناطق قبل الإسلام وهو من الشبهات الكاذبة التي لم تجد من التاريخ الصحيح دليلاً عليها .

فقد تقدم جماعة من المستشرقين في مقدمتهم المهندس وليم ويلكوكس ١٨٩٣ وسبيتا الألماني مدير دار الكتب ١٩٠٢ وويلمو القاضي عام ١٩١٠ ووليم تمبل جردنر ١٩١٧ بتأليف دراسات وكتب عما أطلق عليه اللغة المحكية أو العامية المصرية .

كما شجعت حكومات الاحتلال على إنشاء جرائد باللغة الدارجة صدر منها عام ١٩٠٠ وحده سبع عشرة جريدة .

وكان لورد دوفرين الوزير البريطاني الداهية قد سبق هذا المخطط كله بتقريره الذي رفعه إلى وزير خارجية بريطانيا بعد زيارة مصر في أول سنوات الاحتلال ١٨٨٣ حين دعا إلى ضرورة معارضة اللغة الفصحى لغة القرآن وتشجيع لهجة مصر العامية كحجر الزاوية لبناء منهج الثقافة والتعليم والتربية في مصر .

وفهم أصحاب الشأن أن الهدف هو إقصاء القرآن أساساً ، ولا يتم إقصاء القرآن حتى تتوارى اللغة العربية ، وإن ذلك لا يتم إلا عن طريق وسائل التعليم ، ولذلك وجهت سياسة الغزو نحو الأزهر أساساً وفصل عنه نظام التعليم كله الذي بدأ يجري السيطرة عليه عن طريق مستشار وزارة المعارف القس دنلوب من داخل الوزارة يعاونه في خارجها الدكتور زويمر رئيس جماعات التبشير في البلاد العربية من ناحية والمهندس ولكوكس من ناحية أخرى .

٢

وكان ولكوكس أول من افتتح الحملة بخطابه المشهور في نادي الأزبكية عام ١٨٩٣ ودعا فيه إلى نشر العامية والتأليف بها ، ثم خطبته بعد ذلك في ترجمة بعض فصول من مسرحات شكسبير إلى اللغة العامية وترجمة بعض

فصول من الإنجيل . وقد أطلق على خطبته اسماً خطيراً هو :

لماذا لا توجد قوة الاختراع عند المصريين ؟

وكان ويليام ولكوكس قد قدم إلى مصر عام ١٨٨٢ من الهند وكان موظفاً بمصلحة الري بها وقد ظل بمصر حتى توفي عام ١٩٣٢ دائباً على العمل لدعوته في مهاجمة اللغة العربية ، وللتبشير .

وقد اشترى من أجل غايته تلك مجلة خاصة كانت تصدر من قبل وحولها إلى وجهته هي مجلة الأزهر(١) التي عاونه فيها (أحمد بك الأزهري) .

تقول جريدة الأهرام في مناسبة وفاته (٢٩ – ٧ – ١٩٣٢) وقد قاوم الرأي العام فكرته فأبطل تلك المجلة ولكنه ظل يؤلف باللغة العامية المصرية فكتب في ذلك حياة المسيح وأعمال الرسل وترجم كتاب العهد الجديد إلى اللغة العامية المصرية وكان ينظم الزجل .

ولما كانت محاضرته تمثل أهمية خاصة في تأريخ حركة الانقضاض على اللغة العربية ، فقد كان من الضروري الإشارة إلى ما جاء بها مما يحدد هدفه وأسلوبه الماكر في الترغيب بالعامية :

« إن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى ، لذلك لا بد من إغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى وخاصة الأمة الإنجليزية التي استفادت إفادة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الإنجليزية الحاضرة» .

وقد واجهت هذه الدعوة معارضة شديدة ومقاومة واسعة وتصدت لها صحف كثيرة وهيئات علمية مختلفة ، وفي مقدمة من تصدى له جريدة المؤيد

---

(١) أنشأ المجلة الدكتور حسن رفقي وإبراهيم مصطفى عام ١٨٨٦ وتنازلا لويلكوكس عنها في أول يناير ١٨٩٣ واشترك معه الشيخ أحمد الأزهري .

ومجلة الهلال . غير أن الحملة بدأت فعلاً واستمرت ، ولم يتوقف ويلكوكس عن العمل حتى أعاد محاولته مرة أخرى عام ١٩٢٦ حين أصدر كتابه الذي زعم فيه أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا وإيطاليا تتكلم البونية لا العربية .

قال جرجي زيدان : عندنا أن المستر ويلكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القبيل لأن ما صدق على اللغة الانجليزية لا يصدق على لغتنا لأسباب كثيرة منها أن الانجليز استبدلوا باستبدالهم اللاتينية بالإنجليزية بلغة وطنية ، وليس الحال كذلك في اللغة العربية ، فإن الفرق بين لغة الكتابة ولغة التعليم عندنا ليس بالشيء الكثير وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الإنجليز ولغة عامتهم . وان استبدال اللغة العربية الفصحى بالعامية إذا أنقذنا من شر فإنه يوقعنا في شر أعظم منه ، لأن الناطقين باللغة العربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الأصقاع . والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين الفصحى والعامية فاستبدالنا الفصحى بالعامية المصرية يحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة ، وهكذا لو استبدلنا باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية ، وإذا لم نخسر بذلك إلاّ الجامعة العربية لكفى بها خسارة .

هذا فضلاً عن أن اللغة في كل آن وآن تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطاً ، فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ولا سيما العربية لأنها أرقى لغات العالم وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام به .

وإن الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى إذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعودنا إليه في إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعب العربي وأصبح كل قطر من الأقطار العربية مستقلاً عن الآخر لا يفهم لغته كتابة وتكلماً .

كذلك فإن إغفال اللغة الفصحى يستوجب إغفال كل ما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ ألف وثلاثمائة سنة وهي خسارة لا تعوض .

* * *

ولما عاد ولكوكس إلى الحديث عن العامية مرة أخرى بعد ربع قرن من دعوته الأولى على لسان سلامة موسى الذي أحياه مرة أخرى في الهلال(١) تصدى له أصحاب الأقلام المؤمنون بلغتهم قال ويلكوكس على لسان سلامة موسى : هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلم فهو يرغب في أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا .

وقد أشار المعلقون إلى مغالطة ويلكوكس في الحديث عن لغة الكتابة ولغة الكلام من حيث إنها ظاهرة طبيعية في كل اللغات ، وإن كل بلد أوربي فيه اللغة وفيه اللهجات ، ولكن الجميع يستعملون الفصحى في الكتابة ، أما استعمال العامية أو اللهجة الخاصة فهو نادر وغير متفق مع طبيعة الأشياء .

٣

كانت محاولة سبيتا أن يوجد للعامية تراثاً أو أدباً ليدعي أنها لغة ، وقد عجز عن ذلك تماماً ولما كان (ولهلم سبيتا) مديراً لدار الكتب المصرية فقد حاول أن يندمج في الأحياء المصرية ويدرس العامية ، وقد ألف نتيجة لذلك كتاب (قواعد اللغة العامية في مصر) عام ١٨٨١ .

وقد أشار في كتابه إلى ما أسماه الخلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة . ودعا إلى الكتابة بلغة (إن لم تكن لغة الحديث الشائعة) فليست العربية

(١) هلال يوليو ١٩٢٦ .

الفصحى على كل حال وهي دعوة اللغة الوسطى التي حملها من بعد سلامة موسى وتوفيق الحكيم ولويس عوض .

وكان لهذا المستشرق موقف مزرٍ في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٠٥ حين حمل على القرآن واللغة العربية وواجهه الشيخ عبد العزيز جاويش وفند أباطيله واضطر المؤتمر حماية للمستشرق إلى شطب كلام كل منهما .

وقد استهدف سبيتا أن يجعل للعامية تراثاً فقام بجمع ونشر العاميات من الأحاديث والفكاهات والكلمات وجعلها مقدمة لعمل من جاء بعده ، كما عمد إلى وضع حروف إفرنجية للعامية المصرية لأجل إحيائها ، وألف في صرفها كتاباً ، كما ألف في أمثالها وقصصها العامية ، ونشر ذلك باللغتين الألمانية والفرنسية لترغيب أوربا في تنفيذ مشروع تعليم اللغة العامية بالحروف الأجنبية وجعلها لغة العلم والتعليم ، وقد لقيت الدعوة رواجاً فانتدب بعض أغنياء الإفرنج لذلك له مالاً جماً ، ونشرت كراسة في الحث عليه وترغيب الأخذ بالمال ووزعت هذه الكراسة مع الجرائد اليومية الكبرى حتى المؤيد (١)

٤

وتعد محاولة القاضي ولمور من أقوى هذه المحاولات وأهمها ،

وقد دعا إلى استعمال العامية بدلاً من العربية الفصحى .

وقد أطلق على كتابه اسم (لغة القاهرة) أصدره عام ١٩٠٢ ، وقد وضع للعامية القاهرية قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ؛ ومما قال ولمور :

« العربية الآن مهملة كما كانت اللاتينية مهملة في أواخر القرون الوسطى ،

---

(١) المنار م ٥ و ٦ .

ولو لم تنشط أمم آوربا لاستعمال لغاتها الخاصة لما تقدم العمران في أوربا « إني أتأسف جداً إذا نسيت العربية الفصحى في هذه البلاد وأرى أنه يجب أنه تدرس في مدرسة جامعة مع غيرها من اللغات السامية كما تدرس اللغة الميتة . والظاهر أن شمس المعارف اللغوية كادت تزايل ديار الشرق فقد أخبر ني أستاذي منذ سنين كثيرة أن العلماء الكبار حقيقة صاروا يعدون على الأصابع » .

وقد جبهت ولمور ردود الكتاب وأفسدت سعيه وكشفت عن زيف ما ادعاه فقالت المؤيد : إن مسألة اللغة العربية هي مسألة الدين الإسلامي بعينه ، فإذا فرط المسلمون في لغتهم الفصحى : لغة القرآن والحديث والشريعة أضاعوا دينهم بأقرب مما يتطلبه المرسلون المسيحيون منهم .

وذكرت صحف أخرى القاضي ويلمور بأن ما حصل في اللغة اللاتينية لا يمكن حدوثه في اللغة العربية لاختلاف النسبة بين اللغتين ، فإنه لما قام ديكارت وخالف العادة التي جرى عليها علماء عصره في التأليف باللغة اللاتينية وجد لغته الفرنسوية لغة صحيحة فصيحة فيها كثير من كتب الأدب ، ولكن ماذا يجد كاتب العامية اليوم إذا أراد التأليف بها : أتكفيه لغة الحمارة والتجارة (وهما صحيفتان) للتعبير عن أشرف عواطف القلب وأسمى خطرات الفكر .

« لا خوف على لغتنا من ولمور ومن أمثاله لأنهم لا يحاربون اللغة العربية بهذا الاقتراح ، وإنما يحاربون النواميس الطبيعية أيضاً .

« وإن اللغة التي قتلت الآرامية واليونانية في سوريا وفلسطين واكتسحت لغة المصريين قبل الإسلام وانتشرت أوسع انتشار في أفريقيا ، والتي لا تزال تتغلب حتى اليوم على لغات الهند في عهد الاحتلال الإنجليزي نفسه ، لهي لغة نافذة كالسيف فلا تؤثر سطور كتاب إنجليزي فيها » .

وقد حاول ولمور في بحثه في عامية مدينة القاهرة أن يضع خطاً في افتراض يقوم على شبهة ليفتح به الطريق إلى مستشرق آخر ليأخذ به من بعد على أنه حقيقة ، فأشار إلى أن هناك عبارات وألفاظاً ترجع إلى أصول قديمة كالأصول الآرية والسامية والعبرية ، وقال : هذه اللغة يسمونها العامية لأنها لغة العامة والشعب وكل الناس ولا معنى لأن توجد لغة للكتابة ولغة أخرى للكلام ، وهذا هو الخيط الذي التقطه ويلكوكس مرة أخرى من بعدُ حين تحدث عن اللغة البونية المدعاة .

وقالت الهلال في الرد على ويلمور :

هم يشيرون علينا أن نتخذ العامية بدلاً من الفصحى في الكتابة فأي العامية يريدون أن نتخذ : لغة مصر أم لغة الشام أم لغة العراق أم لغة الحجاز أم اليمن أم نجد أم المغرب فإن لكل من هذه البلاد لغة خاصة لا يفهمها عامة البلاد الأخرى .

فإن قالوا : ألفوا لغة تشترك بين هذه اللغات قلنا إن اللغة لا تتألف بالتواطؤ وإنما هي جسم ينمو نمواً طبيعياً على مقتضى ناموس الارتقاء ، وأسهل منه أن يبقى على اللغة الفصحى وهي أم لغاتنا العامية وأقرب إلى أفهامنا من لغة جديدة ملتقطة من أفواه الأمم ، فإن قالوا : إن لكل أمة من هؤلاء لغتها فالسوري يكتب بلغة عامية الشام والمصري بلغة عامية مصر كان ذلك رأي القائلين بانحلال العالم العربي وتشتيت شمل الناطقين بالضاد . زد على ذلك أن المسلمين لا يستغنون عن تعلم اللغة الفصحى لمطالعة القرآن والحديث .

٥

كذلك برزت مؤلفات تحاول أن تجمع الأمثال العامية المصرية .

وسرعان ما تصدت مجلة المقتطف لهذه الدعوة فآزرتها وخطت معها

خطوات واضحة : وقد دعت إلى ما أسمته باباً للنظر في أمر اللغة العامية ، وفيما إذا كان تنقيحها ممكناً كما فعل اليونان بلغتهم الرومية ، واعتمدوا عليها في كتاباتهم بدل اللغة اليونانية القديمة أو فيما إذا كان العود إلى اللغة المصرية أولى حتى تصبح لغة التكلم كما هي لغة الكتابة »

بدأت المقتطف ذلك عام ۱۸۸۲ وهو عام الاحتلال نفسه وعادت تقيم الخطة عام ۱۸۹۲ في نفس اللحظات التي بدأ فيها ويلكوكس دعوته ثم سايرت الحركة في تطورها بعد ذلك .

والمهم هو إثارة الشكوك وخلق روح الحيرة حول مكانة اللغة العربية واقتدارها .

وقد انطلقت هذه الدعوة الأجنبية إلى دراسة العاميات في العالم الإسلامي كله حتى إذا مضى ربع قرن تقريباً وجدنا هذه الدراسات :

دراسة عامية مصر : للدكتور نللينو الإيطالي وسيانكوفسكي الروسي.

دراسة عامية مصر والشام وفلسطين : لفيليب وولف الألماني .

دراسة عامية المغرب وتونس لبعض علماء فرنسا برئاسة أحدهم (ماشويل)

دراسة عامية الجزيرة وبين النهرين : لياس برازين الروسي .

دراسة عامية حلب : ليوريال الفرنسي :

الكلمات الآرامية الدخيلة في العربية : لفرانكل .

دراسة عامية الجزائر : هوكداس .

وذلك بالإضافة إلى كتابات برنيه وكوش دي برسفال وسونسين وغيرهم (۱)

* * *

(۱) إحصاء الهلال م ٢٥ ص ٢٨٠ .

وقد اضطرت المقتطف بعد أن سايرت هذه الحركة طويلاً أن تتحرر منها وأن تتحفظ في موقفها حتى يقول يعقوب صروف : إن ضبط اللغة المحكية جاء بعد أوانه وإن أرباب الصحف هم أحرص الناس على اللغة المعربة .

واستشهد برسالة أمين فداي – إلى مؤتمر اللغات الشرقية في بلاد أسوج التي أشار فيها إلى أن اللهجات العامية العربية لا يسهل تنقيحها والاعتماد عليها لتباينها في مصر والشام وبلاد المغرب .

ورغم هذا فإن محاولات المستشرقين لم تتوقف بل تتابعت فرأينا ما أشير إليه من أن الأستاذ فنسك الأمريكي ما زال دائباً على نشر الرسائل المكتوبة بحروف أوربية في المصرية العامية وقد كتب للمقتطف رسالة أسماها (أجرومية مصري مكتوبة (بل لسان المصري ومعها أمسلة) .

ومنها ما أشارت إليه الهلال من مشروع كتابة العامية المصرية بالحروف الإفرنجية ، وقالت الهلال إنه مشروع غير طبيعي إذ لا يعقل أن من يتكلم لغة شهيرة ذات حروف منتشرة اقتبستها عنها عشرات الأمم العظمى يترك حروفها هذه ليكتب بحروف غريبة . إن ما ينفقه أصحاب هذا السبيل إنما هو ذاهب سدى .

ولقد كانت الصحف الأجنبية في مصر توأزر هذه الخطوات وكانت أمثال جريدة الاجبشيان غاريت وغيرها توالي اهتمامها بهذه الصيحات الغربية وتفرضها وتدفعها إلى الأمام .

من مثال ذلك ما تقول الهلال : عثرنا على رسالة نشرتها الإجبشيان غاريت الإنجليزية على لسان كاتب يقبح رأي القائلين بالمحافظة على اللغة الفصحى ، ويظهر منها ومن أمثالها أن العمدة في برهانهم على وجوب استبدال الفصحى بالعامية أن بقاء الأولى (العربية) حاجز حصين بين العلم وقراءة العربية وأن التمدن لا ينتشر إلاّ إذا كتبوه بالعامية (١) .

---

(١) فبراير ١٩٠٧ .

الفصل الرّابع

الاستشراق ومقاومته للفصحى

كانت تلك الحفريات التي قام بها ويلكوكس وويلمور وسبيتا وجردنر وغيرهم مقدمات لمخطط الاستشراق بالنسبة للغة العربية الذي لم يلبث أن ظهر واضحاً على أيدي جماعة المستشرقين في العالم كله والذي تكشف صريحاً في الدعوات التي دعا إليها لويس ماسينيون وكولان وبروكلمان . وإسرائيل ولفنسون والتي انتظمت مصر والشام من ناحية والمغرب العربي كله من ناحية أخرى وقد كانت هذه الخطوة تستهدف أمرين : إعلاء شأن اللغة العبرية وعقد المقارنات بينها وبين اللغة العربية بينما هي لغة ميتة منذ ألفي عام وذلك عن طريق إعادة دراسة ما أطلق عليه اللغات السامية .

والأمر الأخطر هو إعداد هؤلاء النفر الذين حملوا لواء الخصومة والحرب للغة العربية تحت أسماء براقة زاهية أهمها الإصلاح والتمصير وتيسير النحو ودراسة اللهجات ، وقد جمعت باقة من أخطر الدعاة في مقدمتهم طه حسين ولطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى والخوري غصن ولويس عوض وأمين الخولي ومحمود تيمور وعبد العزيز فهمي .

وقد أتيح لعدد من هؤلاء الالتحاق بالمجامع اللغوية وبعثوا سمومهم في

أبحاثها ومكن لهم المشرفون عليها باسم علم اللغة وعلم اللغات المقارن وعلم اللهجات . وقد تبين أن وراء هذا الخطوة حملة جبارة تغريبية وهدف من أهداف الصهيونية العالمية .

ومن الوجهة التاريخية البحتة نجد محاضرة لويس ماسينيون الشهيرة عام ١٩٣١ في بيروت للدعوة إلى العامية وإلى كتابة هذه العامية بالحروف اللاتينية وكان قد ألقاها قبل ذلك في جمع من شباب العرب في باريس عام ١٩٢٩ ، هذه المحاضرة هي مفتاح الطريق وقد كشف الدكتور زكي مبارك وهو في باريس في ذلك الوقت هذه الدعوة وكتب عنها في صحف مصر مبيناً خطرها وأثرها ، وكان مما قال :

هناك غاية خفية هي الباعث على خدمات المستشرقين للغة العربية ، تلك الغاية معروفة أيضاً لمن يفهمون من أهل الشرق فليس بغريب إذن أن نقول إن اهتمام المستشرقين باللغة العربية كان يراد به التمهيد للحملات الاستعمارية . لقد كان للمستشرقين الألمان عناية فائقة باللغة العربية قبل الحرب يقصد (الحرب العالمية الأولى) وكانت للألمان مطامع بعيدة في الشعوب الشرقية فكانوا لذلك يستعدون لفهم الشرق الإسلامي من جميع نواحيه وقد قلت عناية الألمان بدراسة العلوم الإسلامية بعد الحرب بعد أن صرفوا أبصارهم عن الشرق ، وجاء دور فرنسا فهي اليوم الدولة التي تعنى أكثر من غيرها بالدراسات العربية ، ففرنسا لها في الوقت الراهن مستعمرات عربية ، وهي تريد أن تدرك أسرار الأمم التي تحكمها وذلك لا يتم بغير درس اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، غير أن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق فهم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام ، وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأنذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت في عداد اللغات الميتة وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة ، وأنه لا يليق بالرجل المصري أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلاّ لهداية الرعاع . ومن المحزن أن هذه

الدعايات يقوم بها رجال كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف ، فإني أفهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ولكني لا أفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاماً في التعرف إلى اللغة العربية والإسلامية أن يزعم أن لغة العرب لا تستطيع وعي العلوم الحديثة . وهم يقولون بذلك حرصاً على منفعة أتباعهم في المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ، ولكن الغرض المشهور هو القضاء على التقاليد العربية والإسلامية ليخلو الجو للغة المستعمرين الأبرار .

ولقد وقف ماسينيون يخطب في بيروت وكان همه أن يبث سمومه في الشباب السوري فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية ، فيا سعادة الشرق العربي عندما تصير اللغة العربية إلى ما صارت إليه اللغة اللاتينية . فقد ماتت لغة الرومان إلى حيث لا رجعة .

وقال هذا المستشرق في محاضرة له في الكوليج دي فرانس : إنه لا حياة للغة العربية إلاّ إن كتبت بحروف لاتينية .

ولم يبق إلاّ أن القوم يريدون أن ينحدر العرب إلى مثل ما انحدر إليه الترك ليضيع جزء منهم من شخصية اللغة العربية وليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية والروحية .

وهنا مستشرق قوي جداً في اللغة العربية ويمدحها ولكنه يرمي إلى قتلها في المستعمرات الفرنسية ، وسبيله إلى ذلك أن يزعم أن اللغة العربية ترجع إلى لغتين : اللغة الفصيحة وهي لغة الكتب العلمية والصحف وفي رأيه أن هذه اللغة ميتة لأن الناس لا يتكلمونها في محاوراتهم اليومية ، واللغة الثانية هي لغة التخاطب ، وهي لغة حية ولكن الناس لا يحترمونها بدليل أنهم لا يودعونها ذخائر أفكارهم .

ويرى ذلك المستشرق هجر اللغة الفصيحة مرة واحدة لأنها غير متصلة بأذواق الناس ، أما العامية فينبغي أن تترك للهمج لأنها لغة فقيرة » .

ونحن من جانبنا ننظر في حزن إلى طغيان أولئك الباحثين .

لن يدوم لفرنسا هذا النفوذ الذي مكن لها من زلزلة قواعد الإسلام في بلادالمغرب ولن تواتيها الظروف على متابعة الكيد للغة العربية ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، ويا ليت قومي يعلمون قيمة ما يملكون من نصر لهذه اللغة الكريمة ، ففي فرنسا عناية كبرى باللغة العربية فهي تريد أن تدرك أسرار الأمم التي تحكمها وذلك لا يتم إلا بدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية (١) .

« إن المثقفين المصريين يعلمون كيف نبتت فكرة تشجيع العامية في مصر ، وكيف كان دعاتها مسيرين بنزعات سرية خطيرة ، وكيف عمل المبشرون على بثها في مختلف الطبقات لتصبح مصر غريبة عن الأمم العربية وليصبح في الشرق مئات من اللغات والقوميات ليسهل ابتلاعه وهضمه بلا مشقة ولا عناء » .

٢

وإذا كان الاستشراق عدو اللغة العربية أساساً لما يرتبط من هدف باستبقاء النفوذ الاستعماري فإن المستشرقين من ناحية أخرى يعجزون عن فهم البيان العربي وهم يخطئون في فهم البلاغة العربية . تقول الدكتورة بنت الشاطىء .

إن اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين لغة أجنبية عنهم ، ومهما أتقنوها وأجادوا تعلمها فهم يعجزون عن تذوق بعض أساليبها ويحول تركيبهم

---

(١) جريدة المساء : ٢٧ - ٢ ١٩٣١ .

الاجتماعي وتكوينهم الحضاري دون النفاذ إلى ما وراء الكلمات والحروف من شفافية وحسن وأسرار مبثوثة ، وهذا أوقع بعضهم في أخطاء دفعتهم إلى إصدار أحكام مجحفة سجلوها ظلماً على بعض مفاهيم الإسلام .

فادعى فيليب فونداس أن الأموال عند المسلم من أصل شيطان نجس استناداً على الآية الكريمة [خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها] .

وادعى آخرون أن الحكم الديني الأسس كان ينظر إلى المحكومين الأعاجم كقطيع من الغنم ويستنبط هذا الاكتشاف من فهم لمعنى الراعي والرعية وان بعضهم ينظر إلى الأجواء العربية التاريخ من خلال انفسهم وطبيعتهم الخاصة ونسوا أن هناك فروقاً أساسية بين الجو التاريخي الذي يدرسونه والجو الحضاري الذي يعيشون فيه .

وإن كثيراً من المستشرقين كانوا مدفوعين بالطابع الديني بل إن الاستشراق بدأ تاريخه بالرهبان الذين قصدوا الأندلس وتعلموا في مدارسها وترجموا القرآن » .

٣

وإذا كان المستشرقون يعادون العربية من حيث هي دين ومن حيث هي معارضة لنفوذ الاستعمار فإنهم وجهوا إليها الحرب بأسلوب دقيق هو أسلوب البحث الذي يحمل طابعاً علمياً براقاً ويحاول أن يخضع اللغة العربية لما خضعت له اللغات المختلفة غاضين الطرف عن الفارق العميق والواسع والبعيد المدى الذي يحكم اللغة العربية ولا يحكم لغات العالم كله وهو القرآن .

وتركزت معارضتهم في عدة كلمات رددها رجالهم ثم جاء أتباعهم من كتاب العرب فأعادوا ترديدها وما يزالون :

اللغة ملك لنا ونحن أصحاب التصرف فيها وليس رجال الدين .

لماذا يوجد في اللغة العربية لغة كلام ولغة كتابة . إحلال العامية للتعبير عن مشاعر الشعب .

اللغة العربية غير علمية ، وصعبة التعليم وعلاجها استبدال الخط العربي باللاتيني .

وقد ظلت هذه الدعوات تطرح في أفق الأدب العربي والفكر الإسلامي منذ اليوم الأول حين حمل دعوتها ويلكوكس وولمور وسبيتا في مصر وكولان في الجزائر وماسينيون في دمشق ، وجاء الكتاب الأتباع من العرب فدعوا إليها وحملوها إلى الجامعات والمدارس ومجامع اللغة .

وهذه الدعاوى كلها مردود عليها وزائفة وسطحية وانفعالية وليست لها وجهة نفسية إلا الحقد على اللغة العربية وليس لها هدف إلا القضاء على الجامعة التي تربط أمة القرآن بالقرآن .

لتحقيق رسالة كرومر ومن جاء معه من المستعمرين العتاة الذين عرفوا أن اللغة العربية هي حجر الزاوية في وحدة هذه الأمة وكيانها كله .

ونحن نعرف أن حركة الاستشراق بدأت في القرن الثاني عشر من أسبانيا بترجمة القرآن إلى اللاتينية تمهيداً للتشكيك في صحته وانطلقت إلى جامعات روما وأكسفورد وباريس وبولونيا أعوام ١٣٠٠ م وما بعدها لدراسة العربية وعلوم المشرقيات لهدف واضح :

لترجمة القرآن والتشكيك فيه ، لإيجاد الشبهات حول اللغة العربية ، للتبشير لمضاهاة اللغة العربية بالعبرية القديمة التي ماتت منذ ألفي عام ومحاولة إحيائها .

وقد أمكن في هذه المرحلة سرقة ألوف المخطوطات من العالم الإسلامي ونقلها إلى الجامعات ودور الكتب ودراستها والتحكم في تقديمها للعرب والمسلمين مرة أخرى من خلال مخطط استشراقي تغريبي خطير .

ثم تدخل اليهود في الاستشراق فبدأت خطة جديدة هي علم اللغات المقارن الذي يقول في أول مادة فيه : إنه لا يعرف امتيازاً ولا فضلاً للغة على أخرى أو للهجة على أخرى أو للهجة على لغة وأن اللغة لا تختلف عن اللهجة إلاّ من ناحية مستوى الاستخدام .

ومن ثم بدأت تلك الحملة الضخمة المشبوهة لدراسة اللغات السامية في صورها المختلفة : المدونة والمنطوقة وكان الحرص الشديد على دراسة اللهجات العربية ونقوشها القديمة .

وذلك تحت اسم تطور اللغات السامية وعلاقة كل واحدة منها بالأخرى ، ومن هذه الحصيلة وجد الدكتور طه تلك المادة الزائفة التي اعتمد عليها في كتابه (في الشعر الجاهلي وفي الأدب الجاهلي) لرمي اللغة العربية بالانتقاص ومحاولة طرح مفاهيم تلمودية يهودية في أفق الفكر الإسلامي،وقد بدا أن جميع الذين اشتغلوا في هذا المجال لم يكونوا على قدر وافر أو دراسة عميقة للغة ولكنهم كانوا من أتباع الاستشراق ومن ذلك .

إلياس بقطر باريس ١٨٢٠ – فارس الشدياق ١٨٠٥ – ميخائيل صباغ – ستر اسبورغ .

وبدا ذلك الاتجاه إلى ما يسمى معجم العامية المصرية (لاندبرج) .

وجاءت دراسات اللهجات العربية الجنوبية ولهجات البدو وحضرموت وظفار وعمان والقصص الشعبي والأمثال والحكايات .

كما جرت دراسة لهجات السنغال وموريتانيا .

وجاء ادعاء ويلكوكس بأن هناك لغة هي البونية كانت لغة سوريا ومصر وشمال أفريقيا قبل الإسلام ، وإدعاؤه أن اللهجات العربية الحديثة هي امتداد للبونية .

وهدف كل هذه الدعوات تخفيض روح التقدير والإعزاز للفصحى

وتوطئة الأقلام والأذهان للعامية تمهيداً لإصلاحها في مخطط طويل المدى حتى يتقطع المسلمون والعرب في مقدمتهم عن رابطتهم بالفصحى أي رابطتهم بالقرآن ، ومهما قيل إن من هدف الباحثين هو دراسة العاميات لتمكين رجال الاستعمار العاملين في هذه البلاد من فهم لهجات الكلام لاستعمالها فإن الأمر يبدو في صوره الواسعة الملحة العميقة المتكررة أكبر من هذا بكثير .

ولم يتوقف هذا العمل بالرغم من فساده وبالرغم من كشف زيفه ، بل ما يزال اصحابه يصرون عليه ويجددونه مرة بعد اخرى ، فقد أشار صلاح البكري أنه ذهب إلى حضرموت عام ١٩٣٧ وقابل بها الدكتور سرجنت أحد أساتذة معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن جاء يحمل رياح السموم اللافحة ويكافح المتاعب في الصحارى والقفار يجمع الأمثال العامية وفي ١٩٥٠ قابل المستشرق الهولندي الدكتور مانسنج وقد بدأ جولة طويلة لجمع الأمثال العامية واللهجات المختلفة في البوادي وتسجيلها (١) .

وبالجملة فإن علاقات الاستشراق باللغة تكشف عن شبهات ضخمة وعداء كبير .

٥

ويمكن تقديم مثال واحد في هذا السبيل كنموذج لهذا العمل الخطير الذي يقوم به الاستشراق ذلك هو بروكلمان في كتابه (وحدة اللغات السامية) وهو عمل يستهدف خدمة اليهودية التلمودية الصهيونية على نحو خطير من خلال دراسة عامة لجميع اللغات السامية .

وبركلمان من رجال هذا العلم الخطير : علم اللغة المقارن ؛ هذا العلم الذي استهدف أساساً إحياء اللغة العبرية القديمة .

وقد اصطنع اليهود لذلك من قبل بروكلمان كثيراً في مقدمتهم نولدكه،

---

(١) قافلة الزيت ، رجب ١٣٧٨ .

وبراتوريوس ، وهاويت ، وتسمرن لندنبرغ وحيزينبوس وقد قدم هؤلاء ابحاثاً في نحو اللغة العبرية ومعاجم للعهد القديم كما سجل بعضهم المفردات المقابلة في اللغات السامية .

أما بروكلمان فقد أولى اهتمامه للعبرية الإسرائيلية التي وصلت من العهد القديم بأقسامه المختلفة ، ويرجع أقدم أقسامه إلى مرحلة دخول قبيلة إسرائيل أرض فلسطين .

كما عمل على تدوين سفر سيراخ بالعبرية .

وهو أول من آثار تلك الشبهة الزائفة التي اعتمد عليها الاستشراق والتبشير وهي الادعاء بقسمة اللغة العربية إلى جنوبية وشمالية (١) .

وقد عرض لهذه الشبهة كثيرون في مقدمتهم العلامة دروزة في كتابه عن الأنساب العربية .

---

(١) مجلة الكتاب العربي ، أبريل ١٩٦٩ .

الباب الثاني

محاولات هدم قيمها ومفاهيمها

(أولاً) بدعة إصلاح اللغة .

(ثانياً) اللغة والتعليم .

(ثالثاً) الشبهات المثارة حول أصالة اللغة العربية .

(رابعاً) أعداء الفصحى .

(خامساً) الرد على أعداء الفصحى وتزييف دعواهم .

الفصل الأول

بدعة إصلاح اللغة

كانت المرحلة الطبيعية بعد التمهيد الذي قام به رجال الاستعمار مما ضمنوه تقاريرهم الرسمية أو قدمه رجاله ممن ليست لهم صفة استعمارية واضحة أمثال ويلكوكس وسبيتا وويلمور وما نظمه المستشرقون من مخططات وما قدمه الصهيونيون من دراسات باسم علم اللغات المقارن ، مقدمة لخطوة لها طابع عربي وبأسماء عربية ، باسم الحفاظ على اللغة والغيرة عليها والدفاع عنها والرغبة في إعدادها لتكون أهلاً لنقل مصطلحات الحضارة والعلوم ومن هنا بدأت موجة عاصفة من الأبحاث في هذا الصدد باسم الاستفتاءات والتساؤلات : هل اللغة العربية كذا ، هل هي كذا ، ضعيفة ، عاجزة ، قادرة ، وحفلت بذلك المقتطف والهلال واشترك فيها العشرات .

وكانت هذه بمثابة الطليعة المتقدمة التي تدق أبواق الحرب ، ثم كانت مقالات لطفي السيد وقاسم أمين باسم التمصير وإصلاح النحو .

ثم جاءت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى تحمل معها أسماء سلامة موسى والخوري مارون غصن في المقدمة ثم لم يلبث صاحب اسم ضخم من مثل « عبد العزيز فهمي باشا » أن تقدم للمجمع اللغوي في مصر بمشروع كتابة العربية بالحروف اللاتينية .

ثم توالت الخطوات في صورة دراسات علمية وجامعية وفي مقدمتها ما كتبه أنيس فريحة وإبراهيم أنيس وسعيد عقل وغيرهم كثيرون .

٢

استهل هذه الدعوة ونقلها من أن تكون حركة استشراقية واضحة الدلالة يفهم الناس هدفها في بساطة ويسر ، إلى أن تكون مفهوماً مرتبطاً بالوطنية والسياسة والمجتمع المصري والبلاد العربية : أستاذ الجيل والرجل الذي رأس مجمع اللغة العربية أكثر من ثلاثين عاماً : أحمد لطفي السيد .

بدأ ذلك بمقالات في جريدة الجريدة عام ١٩١٣ (نشرت من ١٦ أبريل إلى ٤ مايو) وجمعت في كتاب المنتخبات الجزء الثاني وكانت تحمل شعار :

تمصير اللغة ، وهو شعار استشرى في هذه الفترة وامتد في داخل دعوة المصرية التي بدأها أستاذ الجيل ، واستطاعت أن تستوعب كثيراً من الدعوات : تمصير القانون (أي إخراجه عن الشريعة الإسلامية) .

تمصير الأدب (أي قطع علاقته بالأمة العربية وبالفكر الإسلامي) .

تمصير اللغة (أي فصلها عن اللغة العربية) .

ولقد كانت دعوة لطفي السيد ماكرة ولئيمة ، فقد أخفاها تحت ستار اللقاء بين الفصحى ولغة الكلام ، وفي خلال ذلك أثار الشبهات المتعددة ووصل إلى غرضه كاملاً فقال عن الإعراب إنه ليس من أصول اللغة بل هو أمر عرض لها بعد الإسلام خشية التحريف في أواخر الكلمات ، ومدح العامية وقال إنها لا ينقصها إلا أداة التعريف .

واستطاع لطفي السيد المصري العربي المسلم أن يصل إلى النفوس بالزيف مما ما لم يستطع أن يصل إليه ويلكوكس وسبيتا وولمور .

ولكن دعوة لطفي السيد لم تمر دون عقاب فقد تصدى له صاحب [تحت

راية القرآن] : مصطفى صادق الرافعي .

يقول مؤلف كتاب المعارك الأدبية :

لقد كانت مداخل البحث عن لطفي السيد بارعة دقيقة فهو لم يفاجىء القارىء في هذا الوقت المبكر بالحملة على اللغة العربية أو الدعوة إلى ترك الكتابة بها إلى العامية وإنما تسلل إلى ذلك بطريقة فيها كثير من المداورة .

ولقد وقف عبد الرحمن البرقوقي ومصطفى صادق الرافعي لهذه الدعوة موقفاً حاسماً حملا فيه لواء الاتهام مؤمنين بأن القضاء على اللغة قضاء على مقدسات الفكر العربي الإسلامي .

٣

لقد ابتكر أحمد لطفي السيد جرياً على التيار التغريبي الإقليمي الذي كان يحمل لواءه في حضانة النفوذ الاستعماري : بين حزب الأمة وكرومر اسم : تمصير اللغة . يقول الرافعي : نريد بهذا التمصير ما ذهبت إليه أوهام قوم من الفضلاء يرون أن تكون هذه اللغة التي استحفظوا عليها مصرية ، بعد أن كانت مضرية ، وأن تطرد لهم مع النيل بعدد الترع وعداد القرى حتى ترسل الكلمة من الكلام فلا يجهلها في مصر جاهل ، ويصدر الكتاب من الكتب فيجري في أفهام القوم على طريقة واحدة ويأخذ منهم مأخذاً معروفاً غير متباعد بعضه مع بعض ولا ملتو على فئة دون فئة .

ومن ثم يزين لهم الرأي أنه لا يبقى في هذا الحجم الغفير من علمائنا وكتابنا وأدبائنا من لا يعرف أين يضع يده من ألفاظ اللغة ومستحدثاتها إذا هو كتب أو مصر عن لغة أجنبية ، ولا نقول عرب فإن هذه بالطبع غير ما نحن فيه — بل يأخذ من تحت كل لسان ويلقف عن كل شفة ولا يبعد في التناول إلى مضطرب واسع ولا يمضي حيث يمضي إلا مخففاً عن هذه القواعد وتلك الضوابط العربية إذ تتهادن يومئذ العدوتان : هذه العامية وهذه

الفصحى » ، وتصلحان بينهما صلحاً إذ لا ترفع أحداهما في وجه الأخرى قلماً ولا لساناً .

وعلى أن تبيح كلتاهما للثانية حرية الانتفاع بما يشبه التجارة إلاّ في المواد المضرة التي يعبر عنها دعاة السياسة اللغوية بالألفاظ العامية المبتذلة والألفاظ العربية الغريبة – ثم على أن لا تحفل إحداهما ما تركت الأخرى مما سوى ذلك فتستمر العامية على ما هي وتذهب الفصحى على وجهها .

إنما تلك آراء كان يتعلق بها بعض فتياننا إفراطاً في الحمية ومبالغة في الحفيظة لمصر وأملاً مما يكبر في صدورهم على ما ترى من تهافتها وضعف تصريفها . فكان ذلك عذر العقلاء إذا مروا بها لماماً وتروحوا بالإعراض عنها سلاماً حتى تناولها الأستاذ مدير الجريدة فحذفها وسواها وأخرج منها طائفة من الرأي تصلح أن تسمى عند المعارضة رأياً فقال بالإصلاح بين العامية والفصحى على طريقة تجعل هذه تغتمر تلك . وتحياها إليها ، فعسى أن يأتي يوم لا تكون العامية فيه شيئاً مذكوراً .

إن مجم هذا الرأي ومستجمه أن الأستاذ يرى (أخذ أسماء المستحدثات من اللغة اليومية) وامرارها على الأوراق العربية بقدر الإمكان فإن لم يكن لها ثمة أسماء فمن معاجم اللغة وكتب العلم ، إن هذه عنده دون اللغة اليومية فإن لم يصب ذلك في هذه أيضاً وضع لها الواضع ما شاء ، وإن استعمال مفردات اللغة وتراكيبها إحياء للغة الكلام وإلباسها لباس الفصاحة .

هذا هو مجمل رأي الأستاذ ، فإن طال عليك ذلك السر وبرمت به جملة فإن لك أن تدمجه في كلمتين : ذلك أن الأستاذ يرى تمصير اللغة لأننا إذا تابعناه فإنما نلمس كل ما أشار إليه من العامية المصرية وحدها ، ونعطي هذه العامية سعة أنفسنا وبذل أقلامنا فنلبسها الفصيح ونخلط منهما عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولعل هذا الرأي أن يشيع من ناحيتنا ، ويطمئن في كل أمة

عربية فتأخذ مأخذها في عاميتها ، وتنزع إلى ما تذعن إليه ، فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم ، كان لعمري أسرع في فناء العربية وجد عليها شؤم هذا الرأي ما لم يجد تألب الأعداء لو استأصلوا أهلها وبلغ منها ما لا يبلغه الفاتحون ولو ملكوا تلك الأرض كلها .

ثم نحن نتسامح في استعمال المفردات والتراكيب العامية ، وسينقاد لذلك من بعدنا ، ثم من بعدهم إلى أجيال بعيدة يتراخى بعضنا عن بعض فيوشك أن يأتي يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى ضرباً من اللغات الأثرية من كتابها الكريم ، لأننا لا ننظر في أن نترخص من الآن من كلمات معدودة صدرت بها (قرارات الأمة) أن لا تزال على وجه الدهر عامية ، ولكننا ننظر إلى الأصل في قاعدة التسامح والترخيص ، فإذا ثبتناه وأخذ به غيرنا ولم يكن عندنا لذلك نكير في أخذ الشيء القليل ثم ينتهي بالتسامح في كل شيء .

(ونحن) لا نفهم كيف يكون إحياء العربية باستعمال العامية وكيف نرضي لغة القرآن التي تأبى إلا أن تتقيد بها اللهجات الأخرى كما محت من قبل لغات العرب جميعها على فصاحتها وقوة الفطنة في أهلها وردتها إلى لغة واحدة هي القرشية ثم نرضي من جهة أخرى هذه اللهجات العامية التي تأبى أن تتقيد بشيء .

وإذا حاولنا مذهب الإصلاح العامي فليت شعر ي أي لهجة نأخذ وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها .

نحن لا نماري في وجوب الإصلاح اللغوي ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة مجمع يحوطها ويضع لها ولو على الأقوال كمصلحة الكنس والرش ولا نقول إن هذه اللغة كاملة في مفرداتها .

إنه لا يقتضينا من اللغة شيء وهي على ما هي من إحكام الأوضاع والتراكيب والاتساع للمفردات ، ولو أقبلت كأعناق السيل ، ولكن يقتضي

هذه اللغة رجال يعماون ويحسنون إذا عملوا على أنه إن يكن في رأي التمصير خير فليس يقوم خيره بشؤمه ، وهب أن أمراً من ذلك كائن ، وأننا أجرينا التراكيب العامية في الفصيح ، وأقحمنا مفردات القوم في اللغة ؛ ومكنا للعامة على ما يتوهمون من مقاليد الكلام وأتبعناه مقادتهم ، فما أجداه ذلك عنهم وماذا يرد على الأمة !

لا سبيل لتمصير العربية واعتبار هذه المصرية أصلاً لغوياً مجمعاً عليه إلاّ بتمصير الدين الإسلامي الذي يقوم على هذه العربية ، فإن بعض ذلك سبب طبيعي إلى بعضه ، فمن كشف لنا عن الوجه الذي يكون به الدين مصرياً وطنياً وبصرنا بأسباب ذلك ونتائجه قلنا له أخطأنا وأصبت « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة »

٤

وعلى طريق بدعة إصلاح اللغة ، وتمصير اللغة ، جرت الأبحاث في المقتطف والهلال والصحف اليومية وشارك فيها كثيرون من مصر والشام ، وكان يقوم من الشام جرأة عجيبة لأنهم لا يرون في اللغة إلاّ أنها أداة وأنها ملك لهم ومن حقهم أن يجروا فيها مشرط الجراح ، وكان أجرأ القوم على هذه الدعوة : أولئك المهجريون أصحاب الغربال ،

لقد كانت كلمة الإصلاح هي كلمة السر لكل من يريد أن يدخل المعركة وهي الراية التي حملها سلامة موسى ومحمود تيمور ، وقاسم أمين ، والخوري مارون غصن ، ظناً أنها ستار لا يكشف الغايات والنوايا والأهواء .

ولقد تحول هذا المصطلح من بعد فأطلق عليه اسم : « تطوير اللغة » ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تعلو نبرة الدفاع عن اللغة العربية ، وهي نبرة زائفة مكشوفة .

ولقد تعدد توقيع الأعلام على مصطلح واحد هو القول بأن اللغة لخدمتنا ولسنا لخدمتها (سلامة موسى) لي لغتي ولكم لغتكم (جبران خليل جبران) اللغة ملك للأمة وليست ملكاً لرجال الدين (طه حسين) .

وهكذا توالت الصيحات التي تريد أن تثبت في نفوس الناس وفي عقولهم : حق هؤلاء في تغيير اللغة وزوال صفة الثبات عن العربية ، والفصل بينها وبين القرآن ومقارنتها باللغة اللاتينية البائدة .

كذلك جرى هذا المجرى المتحدثون عن تمصير اللغة وتعالت أصواتهم في الدعوة إلى لغة منفصلة عن العربية : « أي جعلها لغة مصرية خالصة توضع لها أسسها وقواميسها ، وعلى هذه الأسس يسير تطورها ، إذ قد يكون هذا التمصير ما يسهل على مصر الاستفادة من بعض المعقول من اللغة العامية من أساليب ومصطلحات غير عربية » (١)

* * *

كذلك وجدنا المهجريين يعلنون اختصار اللغة العربية وتغليب الأسلوب التوراتي عليها على النحو الذي كان يكتب به :

جبران ، ونعيمة ، والريحاني .

وقد واجه الرافعي هذه الحملة أيضاً وكشف عن زيفها فقال : « إنك لواجد في أهل ١٩٢٣ من يقول في هذه اللغة : لك مذهبك ولي مذهبي ، ولك لغتك ولي لغتي فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها .

من مسلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك في

---

(١) الأهرام ، مايو ١٩٢٩ (عبد الله حسين) .

ملكه) حتى يكون لك من هذا حق لإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك .

لأهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدىء فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئاً فيها — من أن تلد مذهباً جديداً أو تبتدع لغة تسميها لغتك ، فإنك عمر واحد في عصر واحد بين ملايين من الأعمار في عصور متطاولة ، وإن ما تحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ولا يبقى أبداً إلا كما تبقى العلة على أنها علة فلا يقاس عليها أمر الصحيح ، ولا يحكم بها فيمن لم يقبل » .

٥

واجه الكثيرون هذه الحملة الماكرة على اللغة العربية تحت اسم بدعة إصلاح اللغة ، ومن ذلك ما كتبه الدكتور علي العناني تحت عنوان :

هل اللغة العربية في حاجة إلى الإصلاح : السؤال خادع بسوء النية .
قال : إصلاح اللغة ، يتناولها في طريقة كتابتها وفي تكوين ألفاظها ووصفها والتواضع عليها وفي تكييف تراكيبها وتنويع أساليبها وفي العقلية المدونة لها .

١ — أما الإصلاح في الألفاظ والتراكيب والأساليب فإنما يكون بتغيير قواعد أبنيتها (الصرف) وتحوير ضوابط إعرابها والأحوال العارضة على الألفاظ باختلاف الوضع في الجملة (النحو) وتبديل الوضع اللفظي في المفرد والمركب من حيث الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية (البيان) وبتغيير وإهمال ضوابط الفصاحة والبلاغة (المعاني) والتفنن الجديد في التنسيق اللفظي في المفردات والجمل (البديع) .

٢ — وإصلاح العقلية المدونة بالفعل في اللغة لو صح وأمكن إبرازه إلى حيز الوجود أن نستأصل منها كل هذه العقلية أو ناحية بعينها منها أو جملة نواح مجتمعة جديدة ، ويدعي بأن هذا الذي فرض فرضاً على العقلية

المدونة ووضع وضعاً مكان ما استؤصل منها وهو العقلية التاريخية المدونة بهذه اللغة منذ بدء نشأتها إلى آخر عهد الإصلاح .

٣ — إصلاح قواعد الصرف : إن إصلاح اللغة العربية في تكوين ألفاظها إنما هو التغيير في صيغ أبنيتها المتنوعة الصعبة كاختزال عدد المشتقات وتبسيط أنواعها بعدم تنوع الصيغ وتعددها وكتقليل أوزان الجامد وإلغاء ضوابط الإعلال والإبدال ، وإجراء الألفاظ في صورة بسيطة لا تؤثر فيها أنواع الإعلال وضروب الإبدال وكاختزال علامة النسب في صورها العديدة إلى حرف واحد يلحق اللكمة مع الاحتفاظ بصورتها الأصلية . ومعنى هذا وغيره وإن كان في الواقع يعد انتقالاً من الصعب إلى السهل أننا نهدم علم الصرف من أساسه وننسخه نسخاً تاماً لتعدد قواعده وتنوع ضوابطه وتفرع صوره وثقله على العقل والفكر وصعوبته على الذهن والفهم كما يظن .

وبعد أن يتم الهدم يبني المصلحون على أنقاضه صرفاً جديداً محدود القواعد قليل التنويع خفيفاً على العقل والفكر سهلاً على الذهن والفهم .

٤ — إصلاح قواعد النحو : يقولون : الإعراب ثقيل وتعدد حركات البناء أثقل وتنوع اسم الموصول صعوبة ليس بعدها صعوبة وصرف الكلمات ومنعها من الصرف تعسف ، واللغات تؤدي كل المعاني على تنوعها بدقة بدون إعراب أفلا يمكن أن تكون أواخر الكلمات في اللغة العربية ساكنة لابناء ولا إعراب فيها تأسياً بتلك اللغات المتحللة من ثقل البناء والإعراب ؟ أفلا يمكن أن يتخذ لاسم الإشارة صيغة واحدة يتواضع عليها للواحد والمثنى والجمع في المذكر والمؤنث والقريب والبعيد؟وأن نفعل مثل ذلك في الاسم الموصول فنرده إلى كلمة واحدة شاملة؟

وأن نرد قواعد النحو الكثيرة المتشعبة إلى أصول وجيزة سهلة جامعة كما هو الشأن في نحو بعض اللغات السامية ؟

٥ – الإصلاح في علوم البلاغة : يدعي مدع أن من الإسراف في اللغة العربية والتعقيد في فهم معاني ألفاظها وجود كلمات متضادة المعنى وأن من الإسراف والتعقيد في فهم معاني الألفاظ أيضاً وجود الكلمات الكثيرة المترادفة في دلالتها على منهج واحد كأسماء الليث والسيف والكلب وغيرها من الكلمات مع عجز هذه اللغة عن أن تضم إليها عدداً من المفردات لمعان موجودة فيها بالفعل ، وكان من جراء ذلك أن اضطرت آخر الأمر إلى استعمال اللفظ الواحد في مدلولات مشتركة مثل العين في الباصرة والجارية وغيرهما . ومن الإسراف أيضاً ازدحام اللغة بتلك الكلمات العديدة والمترادفة من عجز اللغة عن التعبير عن آلاف المعاني ، وقد نتج عن ذلك بحكم الضرورة أن لجأ أصحابها إلى استعمال المجاز والاستعارة والكناية .

كذلك الدعوة إلى تحرير اللغة من نكتة المجاز وفوضى الاستعارة وخفاء الكتابة فيها بأن يختصر المتكلمون بها على الدلالة الواقعة الصريحة بمعنى تعويض علم البيان الجدير بأن يسمى علم الخفاء .

٦ – إن الإصلاح في اللغة = التغيير بمعنى الإزالة والوضع ، وكل تغيير لا يكون بهذين العاملين معاً لا يسمى إصلاحاً وإنما هو شيء آخر ، ومعنى هذا : نسخ العقلية العربية وما فيها من ثقافة نظرية وعملية .

* * *

ويصل الدكتور علي العناني إلى القول بأن الإصلاح في اللغة العربية غير جائز ، سواء في طريقة الكتابة أو قواعد الصرف ، أو ضوابط النحو ، أو علوم البلاغة أو العقلية المدونة في لغة العرب .

وإن ذلك كله يرجع إلى طبيعة النواميس الاجتماعية وروح الدين الحنيف ،

وشرط الإصلاح أن لا يخرج عن مدونات أدبنا العربي وعلومنا الإسلامية وأسفار حياتنا العقلية على العموم وينبوعها الأول المقدس هو الكتاب العربي المبين بنوع خاص .

ثم خلص الباحث إلى النتائج الآتية :

(أولاً) إن تغيير قواعد اللغة العربية صرفاً ونحواً بالوضع فقط أو بالوضع والإزالة معناه إحداث لغة جديدة بقواعد جديدة وهذه اللغة العربية الجديدة إن صح اتصالها بالعربية الحالية المعروفة اتصال اللهجة بالأم فإنها تبعد عنها شيئاً فشيئاً حتى تختفي معالم الصلات بينهما أو تكاد .

عندئذ تكون اللغة العربية الحالية من اللغات الميتة ، وماذا يكون الأمر في حياتنا العقلية المدونة ومدنيتنا العربية وديننا العربي الإسلامي إذا تم هذا « الإصلاح » ؟

تصير المدنية الإسلامية والحضارة والأدب العربي والعقيدة والشريعة بمعزل عنا في لغتنا العربية الأصيلة . ولم يبق لنا إلا أن ندرسها في لغتنا الجديدة كما تدرس الآن مدنية قدماء المصريين نقلاً عن الهيروغليفية .

وإذا صح أن ننقل التراث العلمي الأدبي القديم إلى اللغة العربية بعد تغيير قواعدها فماذا نصنع في شأن : « التنزيل » : الكتاب العربي المبين وحديث الرسول وبأسلوبهما ووصفهما وضعت القواعد العربية ، فإذا تغيرت القواعد فبماذا نعرف القرآن والحديث وبأي كيفية نستنتج منهما أحكام الدين عقيدة وشريعة.

إن إصلاح قواعد اللغة (نحواً وصرفاً) معناه خلق لغة جديدة غير لغة القرآن والحديث وغير لغة الشعر المروي والنثر المهذب ، وغير لغة العقلية العربية الإسلامية في العموم ، وفي كم جيل يتم لنا نقل العقلية العربية الإسلامية إلى اللغة الجديدة . وفي كم جيل نتمكن من ترجمة العقلية الإنسانية العامة إلى هذه اللغة ؟

(ثانياً) إن قواعد اللغة العربية وضعت طبقاً لنصوص القرآن والحديث والمسموع عن العرب ، فالتغيير في هذه القواعد هجر للقرآن والحديث والمسموع ، ومحال أيضاً أن نهجر لغة حية كانت لها السيادة العقلية العالمية قروناً طويلة ونخلق لنا رطانة جديدة في قواعد ساذجة خالية من كل مجهود عقلي وبعيدة كل البعد عن معنى الإصلاح .

ومن ذلك فإن القول بإصلاح اللغة العربية ظاهرة من ظواهر الانحلال القومي وفتنة في الدين .

(ثالثاً) لا تقبل اللغة العربية إصلاح قواعدها بالإزالة والوضع فيها ، أو الوضع فقط ، لأن هذا التغيير يخرجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربي والعقلية العربية الدينية والفلسفية والعلمية .

ومحال أن نرضى بلغة القرآن لغة أخرى يدفعنا إليها المبشرون من وراء حجاب ويزينها لنا أعداء العرب والعربية والإسلام .

(رابعاً) كل ما تقرر في شأن إصلاح قواعد الصرف وضوابط النحو من حيث عدم مساسها بأي تغيير ، يسري بالطبع على مسائل علوم البلاغة ، ومن هنا خطر التغيير في قواعد البلاغة وإصلاحها بالإزالة أو الوضع .

(خامساً) بالنسبة للشريعة الإسلامية ذاتها ؛ الدين الإسلامي وهو عقيدة وشريعة قد استنبطت أحكامه فيما يختص بالعقيدة والتشريع في العبادات والمعاملات من الكتاب والسنّة وعمل الرسول والقياس والاجتهاد ، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلاّ بوساطة مبادىء خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول .

وأساس هذه المبادىء والقوانين الراسخ أو دعائم علم الأصول إنما هي فهم لغة العرب : لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعد الصرفية والنحوية وضوابط علوم البلاغة ، وإذا صلحت هذه الضوابط وتلك القواعد

بالإزالة والوضع ، انهدم أساس علم الأصول ، وتداعت دعائمه ، وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضاً ما يرتكن عليها وهو هذا العلم .

وإذا وصل هذا العلم الأساسي في استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة إلى التداعي تداعت معه أيضاً طريقة الاستنباط وفهم ما استنبط ودون بالفعل ، وضاعت العقيدة واحتجبت الشريعة وعدنا إلى الجاهلية الأولى .

(سادساً) العقلية العربية : ليس من الممكن عقلاً أن تكون العقلية المدونة في لغة حتى الآن أو أي عقلية أخرى في أية لغة من اللغات خاضعة لناموس الإصلاح بمعنى التغيير بالإزالة والوضع . وإنما هي ككل العقليات متأثرة طبعاً بنواميس الرقي والإحياء والإنهاض والتهذيب والتجديد والفتور والركود والإجداب والفناء .

وتنتقل العقلية بأي مؤثر من هذه المؤثرات إلى طور جديد آخر ، ونحن إذا أردنا أن نصلح هذه العقلية المدونة هجوماً فيها بأن نزيل كل هذه من بطون الأسفار ونضع الضد فهل يمكن أن يكون هذا العمل ميسوراً أو ممكناً على الأقل .

وإذا تيسر بالنسبة إلى مؤلفات اللغة العربية فهل يكون ميسوراً أو ممكناً بالنسبة إلى مدونات اللغات الحية الأخرى ، التي نقلت إليها عقلية اللغة العربية بما فيها من خير وشر .

نستنتج من كل ما تقرر :

أن العقلية العربية المدونة ليست محلاً مطلقاً للإصلاح بالإزالة والوضع بالطبيعة . أما العقلية المتجددة فهي خاضعة بطبيعتها لناموس الإصلاح وعوامل التغييرات الأخرى ، والإصلاح الذي يتناولها إنما هو أثر التجارب التي تمر بها .

وخير طريق للنهوض أن يعمد الناهضون إلى نقل المجهود العقلي الإنساني في جميع أدواره قديماً وحديثاً إلى لغتهم مع الاستمرار في تجديده ورقيه

والاحتفاظ بالمثل الأعلى الذي تتجلى فيه قومية الأمة وعظمتها

(سابعاً) لنفترض أن قواعد الصرف من الصعوبة والثقل ، ولكن لأسباب جوهرية حكمنا بخطر الإصلاح فيها .

إن جميع صور الصعوبة ليس في الواقع صعوبة بمعناها الثقيل ، وإنما تلك الصور وأمثالها « ضرورة » من ضرورات الكشف والإيضاح في اللغة العربية الواسعة في مادتها الغزيرة الناضجة في تكوينها .

كما أن فنون البلاغة مرجعها الذوق والشعور ولا تحكم بذوق جيل من الأجيال أو بيئة من البيئات دون جيل آخر وبيئة أخرى .

وخلاصة ذلك :

* ان الإصلاح في أبنية الألفاظ وأحوال الإعراب وكيفية وضع الألفاظ وأساليب التركيب غير جائز بالفعل لأسباب ترجع إلى القومية العربية العامة والأدب العربي والحياة العقلية وطبيعة اللغة العربية نفسها .

* اصلاح العقلية المدونة مستحيل بطبيعته . وبناء على ذلك لا يدخل تحت حكم الحظر أو الجواز ، أما العقلية المتجددة فإنها محل الأصل ، وحكمنها الجواز بل الوجوب الأدبي » (١) .

---

(١) مجلة النهضة الفكرية م ١٩٣٣ .

الفصل الثاني

اللغة والتعليم

بدأت حرب اللغة العربية في التعليم منذ اليوم الأول للاحتلال في كل أقطار العالم الإسلامي ، أما في مصر فقد تم التخطيط لذلك عن جدارة وكفاية ، فقد كان التعليم هو الوسيلة الأولى للقضاء على اللغة العربية بتغليب لغة المحتل ، ثم امتدت إلى الدواوين والشركات والمحاكم .

وفي الفترة الأولى عمد « دنلوب » إلى تصفية المناهج الدراسية من آثار الفصاحة والبيان ومن مفاهيم الإسلام وآثاره في كتب المطالعة ، فلما تقدم الاستعمار خطوة نحو احتواء المصريين أنفسهم ليكونوا يده العاملة ، عين سعد زغلول (ناظراً) للمعارف في أكتوبر ١٩٠٦ فمضى في تنفيذ مخطط الاستعمار الذي كان دوفرن قد وضعه عام ١٨٨٢ والذي ينص على ما يأتي :

« إن الأمل في نجاح تهذيب العامة في مصر لا يزال ضعيفاً ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة العربية بدلاً من تعلمهم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فإن نسبة العامية إلى الفصحى في اللغة العربية هي كنسبة اللغة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة » .

ولما ارتفعت الأصوات بالمطالبة بإقرار اللغة العربية لغة أولى للتعليم عارض ذلك ناظر المعارف .

تقول الأهرام في ٤ مارس ١٩٠٧ :

بدأت المناقشة (في الجمعية التشريعية) بين الحكومة والجمعية على تلقين العلوم باللغة العربية فدامت نحو ساعتين لأن سعادة ناظر المعارف انبرى للجدال وإقناع الجمعية بأن ذلك فوق الإمكان الآن ، لأنه ليس في البلاد معلمون يستطيعون القيام بهذه المهمة ، وليس في اللغة العربية كتب تشتمل على هذه العلوم ، وليس بالإمكان إيجاد ذلك سريعاً حتى يجاب طلب الجمعية والتعليم بالعربية أمنية ولكن ...

وقال سعد زغلول : « إذا كنتم توافقون على الاقتراح المقدم لكم عن تعلم العلوم باللغة العربية كنتم كمن يحاول الصعود إلى السماء بغير سلم .

وقد رد يوسف صاحب (المؤيد) على سعد زغلول فقال : « إن مافعلته نظارة المعارف من نسخ التعليم باللغة العربية وجعله باللغات الأجنبية لم يكن لحاجة البلاد وليس سببه إقبال الأمة على المدارس التي كانت تعلم باللغات الأجنبية كما يقول ناظر المعارف بل الأولى أن يقال إن إقبالها على مثل مدارس الجزويت والفرير كان منشؤه ضعف التعليم من حيث هو في مدارس الحكومة .

هذا وقد وافق المجلس على التعليم باللغة العربية ، غير أن ناظر المعارف وضع عبارة مآلها أنه لا يمكن تنفيذ المشروع الآن للصعوبات الموجودة » .

وقد هاجمت كبريات الصحف الوطنية سعد زغلول واتجاهه ولم تدافع عنه إلا صحف الاستعمار .

وكانت من نتائج ذلك حركة سنة ١٩٠٧ المعروفة التي قادتها دار العلوم .

٢

حيث تألفت جماعة من الأدباء لخدمة اللغة العربية وتوالت اجتماعاتها تمهيداً لعقد مؤتمرها الكبير في ٣٠ يناير ١٩٠٨ حيث تكلم عديد من الأعلام

في مقدمتهم الشيخ محمد الجفري وأحمد الاسكندري وأحمد فتحي زغلول وأحمد زكي وحفني ناصف ، وانتهى الأمر إلى اتخاذ قرار في ٢٠ فبراير ١٩٠٨ في موضوع تسمية المسميات الحديثة وقرر نادي دار العلوم أن يكون العمل قائماً على البحث في اللغة العربية عن أسماء المسميات الحديثة بأي طريق من الطرق الجائزة لغة ، فإذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الأجنبي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية . ويستعمل في اللغة الفصحى بعد أن يعده المجمع الذي سيؤلف لهذا الغرض ، ثم أعلن نادي دار العلوم أنه أعد على هيئة مجمع برئاسة حفني ناصف .

* * *

وقد تجددت الدعوة إلى عقد مجمع للغة العربية عام ١٩١٧ وكان حفني ناصف في مقدمة الداعين له وقد انضم له أحمد كمال باشا وإسماعيل رأفت وعلي بهجت وأحمد عيسى وأمين واصف وأحمد تيمور وأحمد زكي ولطفي السيد وعبد العزيز فهمي وأقر قانون بوضع معجم واف بحاجة الزمن شامل اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات . . .

وفي أواخر عام ١٩١٩ اجتمع جمهور من أئمة اللغة وصفوة كتاب الصحف في مصر في دار إسماعيل عاصم وكان بينهم عدلي يكن وزير المعارف إذ ذاك . وقد تم عقد بضع وعشرين جلسة وتولى رئاسة المجمع الأستاذ سليم البشري شيخ الأزهر ثم الشيخ أبو الفضل الخيراوي .

وقد نصّ قانون المجمع على أن للمجمع أن يزيد في اللغة للضرورة ، ويراعي في الزيادة دفع الحرج فيستبدل بالكلمة العامية أو الأعجمية التي لم تعرب قبل غيرها من الألفاظ العربية الموضوعة للدلالة على معناها ، فإذا لم يهتد المجمع إلى كلمة عربية أقر الكلمة العامية أو عرب الكلمة الإفرنجية ، ويكون وضع الكلمات بطريق المجاز أو الاشتقاق أو النحت .

وفي عام ١٩٢١ عقد المجمع اللغوي الثاني برئاسة عطوفة إدريس راغب بك وضم إلى الأعضاء السابقين أسماء :

سيد علي المرصفي ، وعبد المحسن الكاظمي ، والشيخ محمد بخيت والمنفلوطي ومحمد المهدي وإبراهيم رمزي وعبد الفتاح صبري وحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري ومصطفى عبد الرازق ونور الدين مصطفى وأحمد العوامري وصالح جودت وأنطون الجميل ومنصور فهمي والعناني وأحمد ضيف وطه حسين واميل زيدان وعبد الفتاح عبارة .

٣

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تجددت كذلك الدعوة إلى التعليم باللغة العربية وخاصة في كلية الطب ، وقد حمل لواء هذه الدعوة رجال الحزب الوطني وصحفه .

وقد أشارت (اللواء) في ١٠ يوليو ١٩٢٢ إلى ما أسمته النزاع القائم في مصر بين أنصار التعليم باللغة الإنجليزية وأنصار التعليم باللغة العربية وقالت إنه « نزاع بين قضيتين كبيرتين وسياستين متناقضتين : هما سياسة الحكم الأجنبي وسياسة الحكم الأهلي ، وكل ما يقال في تبرير التعليم باللغة الأجنبية ليس إلا نذيراً في الواقع لبقاء النفوذ الأجنبي في البلاد ، يدلك على ذلك الاهتمام العظيم الذي علقه الموظفون البريطانيون في مصر على استبدال اللغة الانجليزية كأداة للتعليم باللغة العربية في كل مدارسنا الابتدائية والثانوية ، ذلك الاستبدال الذي اعتبر بحق أعظم انتصارات الوطنية المصرية بجهادها الطويل .

« نحن نريد أن تكون لغتنا العربية أداة التعليم بكل أنواعه لأن اللغة أعظم مظاهر القومية ولأننا نبغي الاستقلال الفكري كما نبغي الاستقلال السياسي ،

ولا سبيل إلى الاستقلال الفكري إلاّ بالاستقلال اللغوي الذي هو عنوانه ومظهره الأكبر ، وتاريخ القوميات الناهضة في أنحاء العالم أقر أن اللغات الأهلية قامت بهذا النهوض .

وقد وجه أحمد وفيق ردوداً حاسمة إلى الاعتراضات التي وجهت إلى اللغة العربية في مواجهة قرار مجلس المعارف الأعلى الذي صدر في أكتوبر ١٩٢٢ ، والذي يقضي بأن يبدأ تعليم العلوم الطبيعية باللغة العربية ، وأن يستعاض بها عن الانجليزية سنة بعد أخرى .

قال : ذكرنا ذلك بعام ١٨٨٩ الذي كان مبدأ الهدم الحقيقي للغة البلاد ، عمل الإنجليز على محو لغة البلاد وفي عام ١٨٨٩ انتهى وزير المعارف بالتسليم لهم

ولكن الأمة أرادت أن تقاوم العدوان وأن تعيد للبلاد سيرتها الأولى حيث تتلقى العلم باللغة العربية ، فقامت الجمعية العمومية ١٩٠٧ بمطالبة الحكومة بإعادة التعليم بها ، غير أن السياسة تمكنت وقتها من انتحال المعاذير .

وقد أوحدت السياسة طريقة جهنمية تحقق أغراضها وهي تدريس العلوم البشرية بواسطة أساتذة إنجليز يضم إليهم مصريون .

وهم يحتجون بالكتب فبئس الاحتجاج ، ألم يدروا أن تاريخ البلاد حافل بمن درسوا علوم الطب باللغة العربية ؟ ألم يدروا أن عثمان غالب باشا كان يدرس علم النبات ومحمد علي باشا علم الإكلينيك وسالم باشا الباتولوجيا الداخلية وعوف باشا الرمد وحسن هاشم بك الولادة وعبد السميع أفندي علم قانون الصحة والطب الشرعي وبدوي أفندي علم المادة الطبية ، وعبد الرحمن الحصاوي علم الفسيولوجيا ، وأحمد حمدي الجراحة ، وعلي رياض علم تحضير المواد الطبية وزينب أفندي وجليلة أفندي الجراحة الصغرى وأمراض النساء ؟ وفي كلية الحقوق تدرس المرافعات وتحقيق الجنايات وعلم العقوبات باللغة العربية ، ألم يقم عمر لطفي بك وقمحة بك وأبو هيف بك ونشأت بك

وأحمد أمين بك وعبد الحميد بدوي بك والغزالي بك بتدريس تلك العلوم ؟

ويذكر في هذا المجال الدكتور حسين الهراوي (فقد أنشأ المجلة الطبية) وعاونه كثير من أساتذة مدرسة الطب لترجمة الكلمات والمصطلحات الطبية العربية الصالحة وقد اتفق مع الشيخ حمزة فتح الله وبعض الثقات في اللغة العربية . وممن عملوا معه فيها علي إبراهيم وسليمان غربي وأحمد عيسى ومحمد عبد الحميد وكلهم من الأطباء الأعلام الذين عرفوا من بعد في مجال الطب والعلم .

٤

يقول وليم جيفور دبلجراف :

« متى توارى القرآن ومدنية مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلاّ محمد وكتابه .

ولا يمكن أن يتوارى القرآن حتى تتوارى لغته » .

ومن هنا كانت نقطة الانطلاق إلى أن اقصاء القرآن إنما يتم عن طريق وسائل التعليم ومن ثم فإنه منذ ذلك اليوم وقد مضت الخطة مرحلة بعد مرحلة خرجت أجيال قاصرة في فهم اللغة قصوراً كبيراً بعد أن أبعد القرآن من طريق دراساتها الأولى تلاوة وحفظاً .

وقد خلق دنلوب في وزارة المعارف شعاراً لعله لم يتعثر كثيراً : هو احتقار اللغة العربية والقائمين عليها وخاصة رجال الأزهر . ومن ثم كانت تلك الحملة الشديدة على اللغة العربية وابتداع السخريات والفكاهات حول المحافظين على اللغة والدعاة إليها ، ومن ذلك ما وجه إلى الشيخ حمزة فتح الله، وقد كانت المجلات الساخرة تفيض فيه وتحاول أن تصوره مضروباً في نقطة

بوليس وهو يتحدث بالفصحى أو داخلاً في معركة مع حوذي وهكذا ...

كما أثار دنلوب ورجاله ومن بعده عدد كبير من المثقفين حملة على ما يطلق عليه بالفقيه أي الرجل المعمم ، وظلت دعوى الهجوم على الرجل الأزهري من ناحية اللغة والفقه ، وهي محاولة الهجوم على الإسلام والفصحى: لغة القرآن .

٥

وقد دافع كثيرون عن تعليم العلوم في الجامعة باللغة العربية ومن هؤلاء زكي مبارك الذي دعا إلى أن تصير اللغة العربية لغة الدرس في كلية الطب وكلية العلوم ، كذلك هاجم الشيخ محمود أبو العيون فكرة استيراد علماء أجانب ليدرسوا اللغة العربية في الجامعة المصرية ، وكان طه حسين قد دعا بعض المستشرقين لهذا الغرض في صيف ١٩٣٣ ، وقال إن مجلس الجامعة قد اتخذ قراراً باستقدام علماء أجانب لتدريس فقه اللغة العربية في الجامعة المصرية ، واستقدم فعلاً المستشرق كازنوفا الفرنسي . وكتب الشيخ محمود أبو العيون يقول : إن في علماء مصر الغناء والكفاية وفوق الكفاية ، وقد أصبحنا في بيئة أغرق أهلها في تقليد الإجانب إغراقاً ، وأغرموا بالمدنية الغربية ، وتنازلوا، طوعاً عن مشخصاتهم الثلاثة : اللغة والدين والعادات والتي لا تشخص الأمة إلا بها .

وقال إن عندنا : سيد علي المرصفي وحسين والي وأحمد تيمور والمهدي زيكو وحسن السكندري ومصطفى العناني وعلام سلامة ومحمد عبد المطلب ومحمد شريف ومحمد الغمزاوي والعمراوي وعبد العزيز جاويش والبشري وحسن نجاتي وأصناف : أفليس عجيباً أن يكون فينا مثل أولئك ثم نوثر عليهم مستشرقاً يدرس أصول اللغة العربية في جامعة عربية لغير ضرورة ؟

٦

ولقد كانت للغة العربية وقفة تاريخية في المحاكم المختلطة فقد قدم عام ١٩٣٤ المستشار عبد السلام ذهني لأول مرة في تاريخ هذه المحاكم منذ إنشائها أحكاماً باللغة العربية وامتنع رئيس الدائرة السويسري (هوربيه) عن النطق بها ، وقد أثار هذا الحادث ضجة كبرى في دوائر الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، فقد ظلت اللغة العربية غير معترف بها منذ إنشاء المحاكم المختلطة عام ١٨٧٦ مع أن قانون هذه المحاكم ينص على جواز صدور الأحكام فيها باللغة العربية كان عملاً مخجلاً بوصفها لغة البلاد الرسمية .

قال عبد السلام ذهني : لم يدفعني إلى عملي غير ضميري وواجبي ، ويكفي أن يكون من بين الأسباب التي تدفعني إلى تدوين هذه الأحكام باللغة العربية أنني أحيي هذه اللغة التي عدت في المحاكم المختلطة وكأنها ميتة لا وجود لها وأنا أريد أن تكون لغتنا القومية موجودة وهي أحق من غيرها بالشيوع والاستعمال » .

وقد تبعت هذه المعركة في مصر معركة أخرى حول الكتابة باللغة العربية في الشركات والبنوك واللافتات ، فقد حملت الصحف على أثر هذه المعركة على اللغات الأجنبية التي تكتب بها مصالح الحكومة والشركات وأشارت كذلك إلى أن المصارف والشركات الأجنبية تقدم لعملائها المصريين كشوف الحسابات والعقود باللغة الأجنبية ، كذلك أشارت الصحف إلى أن وزارة المالية (المصرية) تقدم بياناتها الإحصائية بلغة أجنبية .

ودعت هذه الحملة إلى المطالبة بالاحتفاظ بأعظم مظهر من مظاهر القومية ، وهو اللغة العربية لغة البلاد الرسمية وقد تحقق في عام ١٩٤١ بنص على أن تمسك دور الأعمال في مصر حساباتها باللغة العربية وأن تكون جميع مكاتباتها الخاصة والتزاماتها بهذه اللغة .

الفصل الثالث

الشبهات المثارة حول أصالة اللغة العربية

بدأت معركة العامية على أيدي الغربيين الذين جندوا أنفسهم لحمل لواء الدعوة إليها وتكوين جيل من أبنائها لمتابعتهم على الطريق .

وقد بدأت الدعوة من نقطة واحدة أشار إليها تقرير اللورد دوفرين ، وأكدها كرومر ، وتابعها دنلوب وهي نقطة القرآن . وكان رئيس وزراء بريطانيا (غلادسون) قد حمل المصحف في مجلس العموم البريطاني وأشار بأن الانجليز لا يستطيعون البقاء في الأرض طالما يوجد هذا الكتاب ، ومن هذه النقطة قال كرومر إن الارتقاء في مصر والعالم الإسلامي يبدأ من اختفاء القرآن والكعبة .

وكانت الخطة لتحقيق ذلك تتركز في القضاء على اللغة الفصحى : لغة القرآن وإحلال العاميات المختلفة في كل بلد عربي بديلاً لها وبذلك تذهب الفصحى إلى المتحف كما ذهبت اللغة اللاتينية .

وقد كانت محاولات المستشرقين منصبة على محاولة إيجاد تراث للعامية

يؤهلها للادعاء بأنها لغة وليست لهجة ومن هنا كان حرص الكثيرين على جمع الأمثال والأزجال والكلمات المختلفة ومحاولة تشكيل أبجدية لها وأجرومية أيضاً .

وظل ويلكوكس يعمل منذ اليوم الأول حتى اليوم الأخير في سبيل الغاية ، وكان ختام أعماله رسالة نشرها عام ١٩٢٦ حاول فيها أن يفترض أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا وإيطاليا كانت تتكلم قبل الإسلام البونية لا العربية .

كما زعم أن اللغة البونية التي هي أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألف عام .

وكان هدف ويلكوكس من ذلك أن تصبح العامية لغة خاصة . ثم جاء بعد ذلك جيل تابع المستشرقين في مقدمتهم : لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى والخوري مارون غصن ومحمود تيمور .

ثم توالت أفواج الدعاة ممثلة في رجال احتضنتهم مجامع اللغة العربية ، وكانوا حرباً على اللغة العربية ثم أصبحوا قادة هذه المجامع ورؤساءها .

ثم جاء دعاة يعلنون أنهم يطالبون بكسر جوهر اللغة ويدعون إلى لغة وسطى حتى لا يكتب بلغة القرآن أي صاحب قلم ، وتنحصر الفصحى في شعائر الدين والصلاة ويتصل بهذا ما دعا إليه البعض من ترجمة القرآن إلى العامية .

٢

إن جميع المحاولات التي جرت في سبيل إعلاء العامية قد باءت بالفشل : عجزت العامية أن تستوعب العقل العربي والنفس الاسلامية ، وأكدت أنها لا تستطيع أن تصل إلى أعماق القلوب أو ترضي الأذواق العالية أوتعالج الموضوعات الدقيقة ، كذلك من الناحية الأخرى عجزت المحاولات التي

وجهت إلى الفصحى باتهامها بالجمود أو الصعوبة ، أو عدم القدرة على استيعاب المصطلحات العلمية .

وقد عمدت حركة العامية إلى خلق جو عام وذلك بنشر عديد من كتب الأزجال والمواويل والقصص العامية ، والأحدوثات ، والأغاني الشعبية ، ولكن ذلك كله كان كالهشيم لم يلبث أن انطوى .

ثم جرت المحاولة إلى ترجمة الإنجيل إلى العامية على النحو الذي حاوله ويلكوكس ، غير أن المحاولة لم تجد تقبلاً من المسيحيين .

ثم جرت المحاولة إلى تضمين القصص والكتابات العربية كلمات توراتية كما حاول ذلك المازني وجبران ونعيمة .

وقد تلاشى ذلك كله ولم يجد أي صدى في النفوس .

بل لقد وجهت الدعوة إلى بعض الكتاب للكتابة بالعامية ، ففضح هؤلاء الكتاب قصد الدعاة ، وقد أشار مصطفى صادق الرافعي إلى أن إحدى الصحف الأمريكية اقترحت عليه أن يترك الجملة القرآنية وإن ذلك من شأنه أن يكسبه شهرة كبرى :

ولقد ذهب دعاة العامية إلى آخر الشوط في العجز أنهم لم يستطيعوا أن يدافعوا عن حركتهم إلاّ باللغة الفصحى وعجزوا عن أن يتقدموا إلى الناس بكتابات عامية ، ومن حاول ذلك وجد سخرية وانتقاصاً كشف من عورته .

« إن دعاة اللهجة العامية في الكلمة المقروءة الذين أثاروها حرباً مقدسة ضد الفصحى أو ضد اللسان العربي المبين الذي هو لغة القرآن الكريم قد خسروا حربهم مع الجولة الأولى ، بل إنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا في معركتهم ذلك السلاح المفلول فلجأوا إلى الفصحى في ذيادهم عن العامية المتهالكة » .

بل إن المقارنات التي عقدت لمقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية وجدت

من الحقائق التاريخية ما يدفعها ويردها في قوة .

كذلك فإن إثارة شبهة التناقض بين لغة الكلام ولغة الكتابة كانت زائفة بدليل بسيط هو أن جميع لغات العالم فيها لغة للكلام ولغة للكتابة ، ولما دعا لطفي السيد إلى إحياء الفصحى باستعمال العامية وتابعه في ذلك أمين الخولي سخر منهما المثقفون سخرية مرة وكشفوا زيفهما وعوارهما .

ولقد تطاول الزمن بالدعوات إلى العامية منذ دعوة ويلكوكس ، جيلا بعد جيل ، دون توقف ، في أساليب ومحاولات ودعوات لم تذهب يوماً مذهب العلم أو الأصالة أو الإصلاح ، وإنما حملت معها الأهواء والشبهات والأغراض الضالة المضلة .

٣

كشف الباحثون عن مخطط حرب اللغة العربية عن محاذير متعددة :

(أولاً) إلغاء اللغة الفصحى وحصرها بالجوامع كما تحصر السريانية في الكنائس والاستعاضة عنها باللغة العامية الدارجة .

وهو أمر لم يمكن تحقيقه .

والذين يعتنقون هذه الفكرة يوهمون الناشئين وغيرهم أنه ليس في الغرب لغة عامية دارجة ، بل يكتب الغربيون ما ينطقون به ، وهذا خطأ متعمد ، ذلك لأن لكل من اللغات الغربية أكثر من لهجة عامية فضلاً عن الفصحى ، والمعروف أن عامة الشعب يتفاهم باللهجة الدارجة والعلماء والشعراء والكتاب وسائر المؤلفين هم الذين يكتبون بالفصحى .

وقد أورد الأستاذ ساطع الحصري في هذا الشأن صورة دقيقة لذلك في كتابه في اللغة والأدب .

(ثانياً) إلغاء الحرف العربي والاستعاضة عنه بالحرف اللاتيني تقليداً لما فعله الأتراك . وهي دعوى جريئة تقدم بها بعض المستشرقين ثم تابعهم فيها فريق من خصوم اللغة العربية وأعدائها ثم تورط فيها قاض كبير هو عبد العزيز فهمي .

وقد واجه القاضي الكبير معارضة ضخمة وفصلت آراؤه ورد عليها وكشف عن زيف هذه الدعوى .

وليس أدل على فساد دعوى كتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني من أن بعض الباحثين الغربيين عارض هذا الاتجاه ، وفي مقدمتهم سير إدورد بنسون مدير مدرسة اللغات الشرقية في لندن الذي أدلى بتصريح قال فيه :

حذار من هذا (أي من استعمال الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية) لأن الحروف العربية هي حروف لغة القرآنو إذا مسستم الحروف العربية مسستم القرآن بل هدمتهم صرح وحدة الإسلام . إن الإسلام أساسه اللغة العربية فإذ ضاعت ضاع الإسلام .

كما أشار إلى هذ المعنى (كارلو نلينو) حين قال :

قامت الحكومة الكمالية منذ سنوات بانقلاب خطير إذ اختارت الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية في الكتابة التركية ، وهذا ما لا أرى له مبرراً في نظري على الإطلاق في اللغة العربية ، وما يقال من كتابة العربية بالحروف اللاتينية فهذا ما لا أراه ولا أقول به ، فالحروف العربية ضرورة لازمة لا يمكن العدول عنها . والحقيقة أن الخط العربي حفظ للآن وحدة اللغة اللغة العربية ، وإن كان النطق يختلف من قطر إلى قطر . أما الحروف اللاتينية فهي مبنية على أساس أن صوت الحرف واحد غير متبدل أما في العربية فهناك أصوات لكل حرف ولا سيما فيما يختص بالحركات .

وإذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني أصبحت النتيجة خطيرة للغاية ،

فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التي خلفتها الآداب الإسلامية في الدين والفقه والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وكلها مدونة بالخط العربي .

(ثالثاً) دعوى صعوبة اللغة .

وهي دعوى باطلة أريد بها التشكيك في قدرة اللغة العربية على الأداء .

وقد أجاب الكثيرون بأن اللغات الأوربية بالنسبة للغة العربية أشد صعوبة : واللغة الألمانية أصعب من اللغة العربية وإعرابها أشد من إعراب اللغة العربية ، ومع ذلك فإن هذه اللغة تتكلمها دولتان هما ألمانيا والنمسا ونحو الثلثين من سويسرا ، ولم يفكر أحد منهم في تسهيلها بترك الإعراب ، ولا يتبرم أحد بهذه اللغة بل يحبونها ويفخرون بها ، والعاميات عندهم محرم أن تدخل المدرسة من الابتدائية إلى الجامعة ومحرم أن تدخل المحكمة أو البريد أو الصحافة أو الإذاعة .

وصعوبة اللغة إنما يرجع إلى عدم التكلم بها وعدم سماعها منذ القرن الثالث الهجري إلى اليوم فضلاً عن الأساتذة والمدرسين في الجامعات الذين يتكلمون العامية .

وإذا راجعنا أمر اللغات الأوربية وجدنا فيها إعراباً وتصريفاً وثلاث أدوات للتعريف ومثلها للتنكير وجموع تكسير وغالب هذه الأمور خارجة عن القياس ولا تدرك إلا بالحفظ .

(رابعاً) الاهتمام بدراسة اللهجات

وهذه محاولة خطيرة شجع عليها الغزو الفكري ووضعها موضع المسائل العلمية ؛

يقول الدكتور عمر فروخ : « لقد استغلت الدول المستعمرة في العصر الحديث نفراً من العرب في الأقطار العربية وبوسائل مختلفة ليدعو إلى تدوين اللهجات العربية بالحرف العربي آناً وبالحرف اللاتيني آونة ، وقد استجاب

هذا النفر إلى تلك الاستمالة الاستعمارية بدافع من مصلحته طمعاً في مال أو بدافع آخر لست الآن في سبيل تحليل بواعثه فشنوها حرباً لا هوادة فيها على اللغة العربية تحت ستار تسهيل اللغة مرة والحفاظ على الآداب الشعبية مرة أخرى وتحت ستار التمشي مع التقدم في الحياة لأن اللغة كائن حي يجب أن يتطور ويتقدم » .

ومن العجيب أن هذه المحاولات لا تجري في الطريق الصحيح ولا تعمل على خدمة اللغة العربية بهدف تعريب هذه اللهجات إلى الفصحى وإنما هي تغالي في تقدير ما يوجد في هذه اللهجات من أزجال وكلمات شعبية بما يسيء إلى اللغة الفصحى .

ولا ريب أن الاهتمام بدراسة اللهجات الدارجة ومخصصاتها يسيء إلى اللغة الفصحى ويؤثر عليها تأثيراً عميقاً ويلفت النظر إلى أهمية هذه اللهجات وبقائها واستمرارها .

ولا ريب أن هذه اللهجات قد أقامت نوعاً من الحواجز ، وأن الاهتمام بها والتركيز عليها يعمق هذه الحواجز بينما يهدف دعاة الفصحى إلى إلغاء هذه الفوارق وخلق اللغة الجامعة للأمة العربية على مستوى البيان القرآني .

ولا شك يستهدف النفوذ الأجنبي من وراء حركة التغريب هذه غايات كبرى لإيقاف التكامل والامتزاج بين أجزاء الأمة فكرياً ولغوياً .

ويجري هذا مع الهدف الذي تسعى إليه الصهيونية العالمية كما صرح به ليفي أشكول « إننا لن نسمح بوجود لغة واحدة وشعب واحد ودين واحد في الشرق الأوسط » (١) .

ولا ريب في صدق القائل : إن استخدام العامية عمل منهجي ظلم

---

(١) جريدة الأخبار ١٥ يوليو ١٩٦٤ .

لإضعاف اللغة الفصحى وتقييد لأدبنا في إطار ضيق .

وهناك حقيقة أساسية هي أن الأمة العربية كلما اقتربت من بيان القرآن توحدت وانصهرت لهجاتها في اللغة الفصحى الجامعة وفي هذا يقول أحد الباحثين :

«إن القرآن كان له أثره في حفظ اللغة العربية من الانقراض وفي الحد من تطور اللهجات الإقليمية العامية وبذلك حفظ الإسلام عاملاً هاماً من عوامل التقارب بين العرب بحيث لم تتمكن هذه اللهجات من أن تتطور إلى لغات مستقلة قائمة بنفسها . وذلك أن وحدة الأمة الروحية القائمة على القرآن بقيت سليمة بعد أن تجزأت الأمة سياسياً . ولقد استمر العرب المسلمون في عهد انقسامهم السياسي كما كانوا في عهد وحدتهم يتلون القرآن كل يوم خمس مرات في صلواتهم ، وظل القرآن وبقيت الفصحى » (٢) .

خامساً : شبهة الترادف .

من بين الشبهات التي وجهت إلى اللغة العربية ، وهوجمت من أجلها هجوماً شديداً : شبهة الترادف والمترادفات .

وقد أنكر أئمة اللغة القدامى والمحدثون شبهة الترادف في اللغة العربية وفي مقدمتهم أبو علي الفارسي والمبرد وأبو منصور الثعالبي في فقه اللغة ، وابن فارس في الصاحبي وأبو الهلال العسكري في الفروق اللغوية .

وقد حملوا عليه حملة قاسية وكتبوا مؤلفات وبحوثاً في بيان اختلاف الدلالات باختلاف الالفاظ المقول بترادفها .

« والقرآن الكريم يحسم قضية الترادف حيث يشهد التتبع الدقيق لألفاظه في سياقها بأنه يستعمل اللفظ بدلالة محدودة منضبطة ولا يمكن معها أن يقوم لفظ آخر في المعنى الذي تحشده له المعاجم » .

---

(١) بتصرف عن نص ، لنبيه أمين فارس .

ومن ذلك أن القرآن استعمل مادة حلف وأقسم وهو بمعنى واحد في كتب التفسير ومعاجم اللغة ولكن استقراء مواضع استعمالها في القرآن كله يمنع هذا الترادف حيث تأتي مادة حلف دائماً في مقام الحلف باليمين » .

* * *

والعلماء الأوربيون الذين تعمقوا اللغة العربية وفهموا أسرار بيانها وصلوا إلى هذه الحقيقة نفسها ومنهم (ج . ويدمار السويسري) الذي يقول « إن الذي يعيب على اللغة العربية كثرة مترادفاتها لا بد أن يكون جاهلاً لها ، فمعظم هذه المترادفات في نظري ليست مترادفات لمعنى واحد ، بل هي في الحقيقة وفي الأصل ألفاظ لمعان مختلفة ولم يجمعها في باب المترادفات إلاّ الإهمال والنسيان ، والشاهد على ذلك أننا إذا حللنا ودرسنا كل لفظ من هذه الألفاظ المترادفة وجدنا اختلافاً أصيلاً في المعنى بين هذه الألفاظ » .

(سادساً) بين العربية واللاتينية

لمعرفة أبعاد الفوارق بين اللهجات واللغات في الغرب يجب معرفة الفرق بين اللغة العربية واللغة اللاتينية . ذلك أن منطلق التعمية التي تحاول أن تسود بالتمويه في أفق دراسات اللغة العربية فيما يتعلق باللهجات واللغات تنطلق من مفهوم غربي خالص ، هو أن اللغات القائمة حالياً في الغرب كانت قبل بضعة قرون لهجات تستمد حروفها ومضامينها من اللغة اللاتينية .

ذلك أن اللغات الأوربية الحالية هي مجموعة لهجات نمت ثم استقلت عن اللغة الأم ، ثم لم تلبث هذه اللهجات التي أصبحت لغات ان ارتقت إلى مرتبة اللغات ذات الآداب الراقية .

ولكن هذا التحول الذي حدث في أوربا يختلف تماماً عما يمكن أن يحدث في الأمة العربية ، من حيث انفصال اللهجات العامية عن اللغة العربية وقيامها

بذاتها . ذلك أن هناك عوامل كثيرة تحول دون حدوث هذا التطور الذي يظن الغربيون أنه سهل وميسور ، وأنه يمكن أن يقع بأن تتحول اللهجات العراقية والسورية والمصرية والمغربية إلى لغات .

هناك عدة عوامل تحول دون ذلك مهما بدا أنه سهل ميسور ، هذه العوامل ترجع إلى الفرق بين طبيعة اللغة العربية وطبيعة اللغة اللاتينية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ترجع إلى رابطة القرآن التي حسمت الموقف فحالت دون انحدار المتكلمين باللغة العربية إلى الكتابة باللهجات العامية التي يتكلمون بها .

وقد أجمل الأستاذ ساطع الحصري هذه الفوارق في خمس نقاط هامة :

(أولاً) يتميز تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغة الفرنسية من جهة العوامل والأحداث ، فإن اللغة العربية بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي لم تتعرض إلى هجمات وغزوات لغات جديدة كما تعرضت لها اللغة الرومانية من جراء استيلاء القبائل الجرمانية واستيطانها مختلف أنحاء البلاد .

(ثانياً) إن البلاد العربية لم تبتل بتفتيت سياسي وإداري واقتصادي مثل ما ابتليت به البلاد الرومانية في عصور الإقطاع الطويلة .

(ثالثاً) إن الأمية المطلقة لم تتفش في بلاد العربية في وقت من الأوقات بقدر ما تفشت في العالم الغربي خلال العصور الآنفة الذكر .

(رابعاً) إن البلاد العربية لم ينعزل بعضها عن بعض انعزالاً يشبه الانعزال الذي حصل في البلاد الرومانية ، بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائماً بفضل القوافل التجارية التي لم تنقطع عن الازدهار من ناحية وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة من مختلف الأنحاء إلى الحجاز .

(خامساً) إن الديانة الإسلامية التزمت العربية الفصحى التزاماً تاماً وظلت تساندها وتؤازرها دون انقطاع ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات في وقت

من الأوقات . ذلك لأنها لم تعهد بمهمة تلاوة القرآن إلى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني ، بل فرضت ذلك على كل مسلم ومسلمة فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة من الآيات القرآنية كل يوم خلال الصلوات الخمس .

(كذلك) فإن هذه الأحكام الدينية استوجبت إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم القرآن — قراءة وحفظاً — إلى جميع الأطفال وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع أنحاء البلاد ولم تنقطع عن العمل في أسوأ عصور الانحطاط .

وكل ذلك حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية العظمى التي ظل يذكرهم بها ويوصلهم إليها على الدوام عن طريق السماع المستمر والتلاوة المتتالية .

سابعاً — لغة الكلام ولغة الكتابة

ونستطيع أن نقول إن فكرة التعليم العام التي ظهرت في العالم العربي مع ظهور البروتستنتية في القرن السادس عشر للميلاد كانت قد تولدت في العالم العربي منذ ظهور الإسلام وصارت تنفذ فيه بصورة فعلية وبمقياس أوسع منذ القرن الأول للهجرة ولذلك عم تعليم القرآن في جميع الجهات بسرعة كبيرة ، ومن المعلوم أن لغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى .

أما اللهجات الأوربية فإنها ظلت تنفصل عن اللغة اللاتينية حثيثاً حتى قامت بنفسها كلغات في بلادها (فرنسا وإيطاليا وإسبانيا) لأنه بالإضافة إلى هذه العوامل لم يكن هناك ثمة رابط جامع .

وإن هذه اللهجات التي أصبحت لغات من بعد كانت قد وصلت إلى أقصى حدود التعدد والتنوع خلال العصور الوسطى من جراء تأسيس النظم الإقطاعية في مختلف أنحاء البلاد وتفشي الأمية بين الخواص فضلاً عن العوام .

يقول الأب صالحاني : إن اللغة اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة وبقيت لغة الكنيسة والعلماء ، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بكيفيات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ، ولم تكن « اللاتينية » لغته الأصلية وإنما كانت لغات أخرى كالصقلبية والسكوتية والجرمانية الهندية امتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات إلاّ بتمادي الزمن وتنوع الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب(١) .

هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية لم تستطع التغلب على اليونانية لأن اللغة اليونانية ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة اليونان فلما انشطرت الأمبراطورية إلى شطرين : الأمبراطورية الشرقية والأمبراطورية الغربية كانت اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب .

ويمكن أن تصور تجربة (اللغة الفرنسية) ونموها من لهجة إلى لغة صورة أشد وضوحاً لهذا الموقف الذي يستغله دعاة التغريب وأعداء العربية ، وهم يعلمون الفوارق البعيدة بين العربية واللاتينية ولكنهم يحاولون خداع المسلمين والعرب بتزييف المواقف والتفسيرات .

لقد تكونت(٢) اللغة الفرنسية كما تكونت اللغات الأدبية الحالية من اللهجات الأولى ، وفي فرنسا كانت هناك لهجتان :

لهجة الأويل في الشمال ولهجة الأول في الجنوب .

وكان تأثير اللاتينية واضحاً في الجنوب كما كان تأثير الجرمانية واضحاً في الشمال ، واللهجة التي انحدرت منها اللغة الفرنسية كانت في بادىء الأمر لهجة خاصة بالمنطقة التي تحيط بمدينة باريس الحالية ، وقد خرجت العامية

---

(١) الأب صالحاني مجلة المشرق م ١٩٢٥ .
(٢) ملخص عن بحث لساطع الحصري (في اللغة والأدب) .

الفرنسية من طور العامية وتحولت إلى لغة كتابة وأدب ، وازدهر هذا الأدب في بدء عصر النهضة والانبعاث ولا سيما في القرنين ١٦ ، ١٧ .

ومع انبعاث هذا الأدب الراقي لم تندثر جميع اللهجات الرومانية وغير الرومانية التي كانت دارجة في مختلف أنحاء البلاد الفرنسية .

وقد كان خليقاً بلهجة تحولت إلى لغة أن يقضي ذلك على الفروق بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، ومع هذا لم يحدث بل حدث العكس ، « ذلك أنه في العصر الكلاسيكي الزاهر وفي القرن ١٨ كان معظم الفرنسيين يرطنون لهجات كثيرة تختلف عن اللغة الأدبية بخصائص عديدة » .

ولدينا وهناك لغة خالدة مديدة العمر ، ولهجة ، يتكلم بها الناس هي في حد ذاتها قريبة جداً ، وبتوالي اقترابها من الفصحى ، تثور الأهواء وتتعالى أصوات المضللين ، ليصوروا هذا الموقف الطبيعي بصورة الأزمة والقضية والمشكلة التي تهز الدنيا .

وهدف ذلك كله هو إثارة الغبار في وجه اللغة العربية التي يقرأ أصحابها ما كتب منذ خمسة عشر قرناً بينما يعجز غيرهم عن قراءة ما كتب منذ خمسة قرون !

وفي تأكيد زيف هذه الفرية : لا بد أن نتحدث عن الراهب جريجوار الذي قدم تقريراً عام ١٧٩٠ وقدم فيه حقائق خطيرة عن الفوارق العميقة بين اللغة الفرنسية (التي هي كانت قد نمت من لهجة قريبة) .

هذه الحقائق هي أن سكان فرنسا وهم وقتئذ نحو ٢٥ مليوناً ،

يوجد نحو ستة ملايين منهم لا يعرفون شيئاً عن اللغة القومية ،

وستة ملايين آخرين إذا عرفوا منها شيئاً فإنهم لا يستطيعون أن يواصلوا التحدث بها ، وإن من يحسنون التكلم بالفرنسية بفصاحة لا يتجاوزون الثلاثة

ملايين ، أما الذين يستطيعون كتابتها على وجه الدقة فهم أقل من ذلك بكثير

يقول ساطع الحصري : فإذا قيل لنا الآن « لا فرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة في فرنسا وجب أن نعلم علم اليقين بأن ذلك إنما تم بفضل الأحداث التي توالت من مدة تزيد على ثمانية قرون والجهود التي تبذل منذ الثورة الفرنسية للقضاء على اللهجات العامية .

« ومع هذا كله يجب أن نلاحظ بأن القول بأنه لا يوجد في فرنسا فرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام لا يخلو من المغالاة .

« فإن ذلك إن كان صحيحاً بالنسبة إلى معظم المدن والقصبات الكبيرة فإنه بعيد عن الصحة بالنسبة إلى كثير من القرى في بعض الإيالات » فإنه من الثابت بأن هناك ملايين من الفرنسيين لا يزالون في طور (ثنائية اللغة) فاللهجات العامية في فرنسا لم تندثر تماماً وإن كانت قد تضاءلت كثيراً » .

وعلى وجه المقارنة فإن التقارب بين اللغة الفصحى ولغة الكلام في الأمة العربية قد تقارب بصورة فعالة في العقود الأخيرة وتغلب على اللهجات العامية ، وما يزال يزداد قوة يوماً بعد يوم .

* * *

ومن الحقائق ذات الدلالة في المقارنة بين اللغات المبنية على اللهجات أنها دائمة التحول وأن أهلها لا يستطيعون أن يقرأوها بعد عدة قرون إلاّ عن طريق القواميس . « وأن اللغة الفرنسية كانت تكتب في العصور الوسطى بغير ما صارت تكتب به في القرن السادس عشر وهي الآن تكتب بغير هذا وذاك مع المحافظة على الأدوار الثلاثة على كيانها الأصلي وحروفها اللاتينية ، فإن هناك تغيراً ظاهراً بين رسم الكلمات وقواعد اللغة في القرن الحادي عشر

والرسم وقواعد اللغة في القرن السادس عشر ثم الرسم والقواعد مع أن اللغة واحدة والحروف واحدة (١) .

* * *

ومن أهم ما يتصل بالمقارنة بين اللغتين العربية واللاتينية أو في الدعوة إلى توحيد طريقة الكتابة بين اللغتين ، ذلك العسر الواضح في ذلك بين لغة قوم « تقوم على الاشتقاق ويتوقف فيها المعنى على حركات التصريف وحركات الإعراب وبين لغة تقوم على النحت ولصق المقاطع بعضها إلى بعض بغير دلالة لاختلاف الأشكال والحركات » .

« وقد تفردت اللغة العربية — حتى بين اللغات السامية باطراد الأوزان وقواعد التصريف وقواعد الإعراب فلا مشابهة بينها وبين اللغات الأخرى في هذه الخاصة ولا داعي إلى محاكاة اللغة العربية لتلك اللغات مع كثرة العيوب الهجائية في تلك اللغات .

(ثانياً) الحروف اللاتينية

ولقد حملت رياح التغريب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وكشفت الدراسات عن أخطاء ومحاذير شديدة الخطر منها :

(أولاً) إن كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ليست تنقيحاً لها ولا تخفيفاً لما فيها من الثقل ، وإنما هي تضييع لها بتضييع اثني عشر حرفاً من حروفها الهجائية فحرف (الثاء) لا يعرفه الفرنسيون في أبجديتهم ، والإنجليز يركبونه من حرفين فإذا كتبت بالحروف اللاتينية اختلط بحرف السين فضاع بعد قليل من الزمن وبقي هذا الأخير ، وحرف (الجيم) غير معروف بنطقه العربي في الأبجدية اللاتينية ، وحرف (الهاء) ليس له مقابل في الإنجليزية

(١) البلاغ ، أول يونيه ١٩٢٨ .

اللاتينية وهو فيها يختلط بحرف الهاء فيضيع ، وحرف (الذال) غير معروف في الأبجدية اللاتينية ، ولذلك لا تعرفه اللغة الفرنسية وتؤديه اللغة الإنجليزية بحرفين ، فإذا كتبت بالحروف اللاتينية اختلط بحرف الزاي فضاع ، وحرف (الصاد) لا مقابل له في الانجليزية اللاتينية ، وهو فيها يختلط بحرف السين فيضيع ، وحرف (الضاد) لا وجود له في الأبجدية اللاتينية ولا يمكن أن يؤدى بها وهو حينئذ يختلط بحرف (الدال) فيضيع ، وقد مثل ذلك في حرف (الطاء — والظاء — والعين — والغين — والقاف) فإنها لا وجود لها في الأبجدية اللاتينية ، وهي حينئذ تختلط بحرف التاء والزاي والألف والجيم (الجيم الإفرنجية لا الجيم العربية) والكاف فتضيع وتبقى هذه الأخيرة .

فهذه اثنا عشر حرفاً في الأبجدية العربية إذا أديت بالحروف اللاتينية اختلطت بغيرها رسماً ونطقاً فضاعت بعد قليل من الزمن . وقلّ أن توجد كلمة ليس فيها حرف من هذه الحروف فتضييعها هو تضييع لجزء عظيم من اللغة ، إذا لم نقل إنه تضييع للغة برمتها ، وإذ ذاك لا ينفعها بشيء أن يكون لها تلك الميزات التي رأى ماسينيون أنها تمتاز بها على اللغات الآرية وعلى كثير من اللغات الأخرى .

يقول الأستاذ عبد القادر حمزه (١) — صاحب هذا العرض — فأولى إذن للذين يقولون بالحروف اللاتينية أن يكشفوا القناع عن وجوههم وأن يقولوا إنهم يريدون في الحقيقة هدم اللغة العربية .

على أن اقتراحهم هذا لا يبيح النتيجة التي يصلون بها ويقيمونه عليها ، إذ هم يقولون إن قصدهم منه تسهيل اللغة على المتعلم وهذه السهولة لا تتحقق لأن المتعلم لا يقرأ فقط بل يكتب أيضاً ، وهو إذا قرأ صحيحاً بعودة الحروف المرسومة أمامه فلن يستطيع أن يكتب صحيحاً إلاّ إذا تعلم الأجرومية العربية فعرف حركات الحروف والعوامل النحوية والصرفية التي تؤثر فيها ، وهذه الحركات والعوامل هي معظم ما يشكو منه الشاكون .

---

(١) البلاغ ، أول يونيو ١٩٢٨ .

أعداء الفصحى

لطفي السيد : عام ١٩١٣ : كتب عدة مقالات في الجريدة يدعو فيها إلى استعمال الألفاظ العامية وإدخالها حرم اللغة الفصحى.

قاسم أمين في عام ١٩١٢ : أعلن تصريحه عن الإعراب وتسكين أواخر الكلمات .

الخوري مارون غصن : كتاب (حياة اللغة وموتها : اللغة العامية) ١٩٢٦ .

عبد العزيز فهمي : مشروع مقدم إلى المجمع اللغوي المصري في ٢٤ يناير ١٩٤٤ لاتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية .

الزهاوي : مقال في المؤيد سنة ١٩١٠ لغة الكتابة ووجوب اتخاذها باللغة المحكية

سلامة موسى : (١٩٢٦) الدعوة إلى اللغة العامية وكتابة البلاغة العصرية .

طه حسين	: ١٩٣٩ — كتاب مستقبل الثقافة — وموقفه في المجامع العربية ودعوته إلى تطوير النحو وقوله : (اللغة ملك لنا ولاحق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها) .
سعيد عقل	: (ياره — شعر) ١٩٦١ .
أنيس فريحة	: نحو عربية ميسرة — ١٩٥٥ .
لويس عوض	: ديوان بلوتولاند — ١٩٤٧ ودعوته إلى كسر عمود الشعر وكسر اللغة .

• كذلك دعا أمين الخولي إلى إهمال اللغة الفصيحة واستخدام العامية كلغة للكتابة وقال إن اللغة الفصيحة تشبه اللغة اللاتينية . ويضاف إلى هذا الثبت الأستاذ أحمد أمين الذي قال : (مذهبي أن اللغة ملك لنا ولسنا ملكاً للغة) .

١

لطفي السيد والعامية المصرية

ملخص دعوة لطفي السيد أن يحتضن الكتاب المفردات العربية الموجودة في اللهجة العامية ، فيردوا ما تشوه منها إلى أصله العربي ، ويستعملوها استعمالاً صحيحاً ، وإن أقرب الطرق إلى إصلاح العربية باستعمال الكلمات العامية ، فإذا استعملناها في الكتابة اضطررنا إلى تخليصها من الضعف وجعلنا العامة يتابعون الكتاب في كتاباتهم .

* * *

وقد واجه هذه الحملة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فقال : حيثما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها واشتمالها جلد أمة أخرى . فلو بقي للمصريين شيء مميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستقلة عن اللغة الهيروغليفية .

وإن في العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصحيح ، ويحكم منطقاً وإعراباً ، بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها ، وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر ثم هذا المعنى الإسلامي (الدين) المبني على الغلبة والمعقود على أنقاض الأمم والقيم على الفطرة الإنسانية حيث توزعت وأين استقرت فالأمر أكبر من أن يؤثر فيه سورة حمق أو تأخذ منه كلمة جهل .

إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامي ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله ، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة . الخ الخ .

٢

عبد العزيز فهمي والحروف اللاتينية

لم يكن عبد العزيز فهمي هو أول من حمل لواء هذه الدعوة ولكنه أول عربي تبناها في إطار مؤسسة اللغة وعلى رؤوس الأشهاد في مجمع اللغة العربية .

وكان المستشرقان الفرنسيان : ماسينيون وبنيار (رئيس البعثة العلمانية في الشرق) قد نصحا أصدقاءهما العرب بكتابة لغتهم بالحروف اللاتينية عام ١٩٢٩ .

كما نشرت المقطم في ١٠ تموز ١٩٢٩ مقالاً لمستشرق هولندي اقترح على الحكومة المصرية كتابة العربية بالحروف اللاتينية .

وقد وصلت هذه المعركة إلى ذروتها عندما قدم عبد العزيز فهمي إلى المجمع اللغوي في القاهرة (٢٤ يناير ١٩٤٤) مشروعاً يرمي إلى اتخاذ اللاتينية لرسم الكتابة العربية وقد ردد في تقريره عبارات معروفة سبقه إليها لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى ، بل وسبقه إليها ولمور وويلكوكس وغيرهم من أن اللغة كائن حي ينمو ويهرم ويموت مخلفاً من بعده ذرية لغوية .

وهي القاعدة التي قدمتها اللغة اللاتينية وأصرت اللغة العربية على أنها قاعدة باطلة :

وقال عبد العزيز فهمي إن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون

العربية الفصحى هي لغة الكتابة عند الجميع وأن يجعلوا في قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً ، وقال : إنه فكر في هذا الموضوع منذ زمن طويل فلم يهده تفكيره إلاّ في طريقة واحدة هي اتخاذ الحروف اللاتينية وما فيها من حروف الحركات بدل حروفنا العربية كما فعلت تركيا .

وقد أثارت دعوته عدداً كبيراً من الكتاب بالرد عليه ومعارضة وجهة نظره في مقدمتهم عبد الوهاب عزام وإسعاف النشاشيبي وعباس العقاد ومحمود محمد شاكر ومحب الدين الخطيب وغيرهم (١) .

ومن هذه الردود : رد الأستاذ محمد كردعلي الذي قال :

إن قول زميلي إنه يوشك أن تغزونا اللغات الأجنبية فنترك لغتنا ونستعيض عنها بلغة من لغاتهم ، هذا خوف لا محل له ، لأن العربية تزداد كل يوم رسوخاً في نفوس أهلها بفضل النهضة التي نهضناها وبفضل توفر أسباب التعليم والنشر .

كذلك قوله إن لغتنا كانت سبب تخلفنا في مضمار الحضارة .

وما أظن شيخ القضاة إلاّ ويعرف أن لانحطاط الشعوب الإسلامية في بعض مظاهرها عوامل أخرى لا علاقة لها بحروف الكتابة وقواعد الرسم ، وأن برهانه هذا ضعيف لا يصح الاستدلال به على ما هو بصدده .

إنه يعرف أننا أنشأنا مدنية شهد لعظمتها كل من قاموا بعدنا وما حال هذا الخط ومن قبله الخط الكوفي دون الانتفاع بما آل إلينا من علوم القدماء وما وضعناه نحن وما قدمته قرائحنا من علوم وآداب . أما تبرمه باللهجات العربية فأنا أبشره بأن هذه اللهجات يقل عددها ولا يزيد وهي تقترب كل

---

(١) نقلنا بتوسع نصوص هذه المعركة في كتابنا . ١ – المعارك الأدبية ٢ – المساجلات والمعارك الأدبية .

يوم من الفصحى بفضل المدرسة والجريدة والخطبة والمذياع ، أي أن اللهجة الدارجة تتضاءل أمام اللغة الأدبية والفصحى تتغلب على العامية اليوم بعد اليوم. إن الصعوبة الموهومة في لغتنا ما وقفت في سوريا دون تعليم الرجال البالغ من ابن العشرين إلى ابن الخمسين في المدارس الليلية التي أنشأها بما أخرجناه به في أربعة أشهر من الأمية .

إذن فالعربية ليست من الصعوبة بخطها على ما يزعم ، والعرب إذا قصروا في التصوير فقد عوضوا عنه هذا الخط الجميل والمنقوش .

* * *

وقد أشار إدوارد دنيسون روس مدير مدرسة اللغات الشرقية في لندن معارضاً هذه الدعوة فقال : لا شك أن مصطفى كمال باشا من أكبر العبقريين في العالم فإنه أراد إدخال إصلاح يحق قانوناً مفروضاً على الناس : خذ مثلاً مسألة الحروف لو ألفت لجنة لبحثها لقضت عشر سنوات بعد سنوات دون أن تصل إلى نتيجة .

أما كمال باشا فإنه جلس مع آخر أظنه وزير المعارف ووضع معه الحروف التركية اللاتينية ثم قال : غداً تكون هذه حروف البلاد .

وفي الغداة فرض الغازي على الناس تعلمها .

أما بالنسبة لاستبدال الحروف العربية باللاتينية فإياكم وهذا الأمر ، إني أفهم اقتباس الحروف اللاتينية في بلاد مثل تركيا وإيران ، أما في مصر فالحذر من هذا لأن الحروف العربية هي حروف لغة القرآن وإذا مسستم الحروف العربية مسستم القرآن بل هدمتم صرح وحدة الإسلام .

٣

الخوري مارون غصن (سوريا)

دعا الخوري مارون غصن إلى العامية .

نشر في بيروت ١٩١١ كتابه بستان السلوى ، وفي عام ١٩٢٤ نشر كتابه درس ومطالعة وتحدث فيه عن حياة اللغة وموتها وعن اللغة العامية وعن تحسين اللغة العربية بإدخال علامات الوقف عليها .

ثم توسع في البحث فأصدر كتاباً عنوانه (حياة اللغة وموتها : اللغة العامية) عام ١٩٢٦ .

ينطلق الكتاب من افتراض (أن كل لغة سائرة إلى الفناء قياساً على ما عرفه تاريخ اللغتين اليونانية واللاتينية) .

وأشار إلى تعلق الشعب باللغة العامية . ودعا إلى قاعدة العامية : وهي اللهجة العامية السورية ،

ودعا إلى إحلال العامية محل الفصحى ،

وقال : نعم إن العربية الفصحى يحتمل بل يرجح بقاؤها في القرآن إلى منتهى الأزمان ، ولكن لا ينتج عن ذلك بقاؤها في البلاد العربية اللهجة كما هي الآن .

١

رد عليه الأب لويس شيخو اليسوعي قال :

نشر الخوري غصن كتاباً (درس ومطالعة) كتب فيه فصلاً عنوانه (حياة اللغة وموتها) أيد فيه الدفاع عن اللغة الدارجة منتصراً في قوله لحقوقها

المهضومة ، وأنذر بهبوط اللغة العربية الفصيحة وبتبوء اللغة الدارجة سدة الشرف بدلاً منها .

وقال إن الكثير يأنفون : من استعمال اللغة العامية لنشر أفكارهم وترويج مقاصدهم وعرض نموذجاً مما كتب الحوري :

أمي : لا تحسبوا أن الزمان بيقدر دايمن يمحي الجمال ولا البكا والهموم بيقدروا دايمن يروحولو نضارتو : هيدي أمي عمرا ستين سنة وكل ما نظرت ليها وتطلعت فيها بشوفا عمال تزيد جمال بنظري وإذا التفتت أو ضحكت أو حكيت بتأسر قلبي ألطف تأسير .

ثم قال : أترى أن هذه الرطانة ستصبح يوماً اللغة الفصيحة ؟

وقال : لقد قصر الكلام في كتابه على لغة سورية ، وفي قوله هذا نظر فإن قواعده او ثبتت لما صحت إلاّ على اغة لبنان (مع اختلافها من قرية إلى قرية) فهيهات أن تطلق على لغة حلب وحمص وحماه والقدس ومصر والعراق والمغرب فأي لغة من هذه اللغات العامية يريد لها الحكم فكيف لم يفطن إلى ذلك فيثير روح الشقاق بين تلك البلاد . ولو ذكرنا أمثلة من لهجات كل قطر لتأكد ما بينها من الاختلاف الذي ينفي كل وحدة بينها .

وقال : اللغة العربية الفصيحة ليست لغة ميتة وهي على مثال اللغات الحية تنمو وتتسع وتنال من أحوال البلاد وعناصر الشعوب التي تتكلم بها سواعد تتصل بها وتتكيف بكيفيتها وتصبح معها جسماً واحداً .

وإن الألفاظ الدخيلة والتعبيرات اللغوية لم تمس جوهر اللغة ، ولم تؤثر في أصولها والدليل هو ما نشر من التآليف القديمة والدواوين الراقية . وقد وقفت هذه اللغة بإزاء اللهجات العامية وقفة الحكم العاقل ولم تأنف من أن تستعير منها بعض ما رأت فيه صلاحية للدلالة على المخترعات الحديثة : هذا الدخيل الذي يغنيها دون أن يفسدها

وإذا عارضنا اللهجات العامية باللغة الفصيحة وجدنا أن تلك اللهجات هي التي ترقى إلى اللغة الفصيحة وتتقرب منها مع الزمان فتنال من فضلها أكثر مما تكتسب اللغة الفصيحة من لغات العموم .

٢

رد الأب صالحاني على الخوري مارون غصن :

إن السبب الذي أوقع الكاتب في الخطأ هو أنه افترض في العربية لغتين ، الواحدة فصيحة والأخرى عامية . وليس هذا بصحيح لأن اللغة العربية هي واحدة ، أما ما يسميه لغة عامية فليس في الحقيقة إلاّ الألفاظ والعبارات التي يستعملها الكتاب والأدباء ، فالعامية نستعملها ممزوجة بالأغلاط . وللعامة أيضاً لهجات في الحركات عند التكلم ، تختلف باختلاف البلدان شرقاً وغرباً وجبلاً وسهلاً ومدناً وقرى .

ولا قاعدة لهذه الأغلاط واللهجات تسير العامية بموجبها .

وتستعمل العامة ألفاظاً أجنبية لا وجود لها في الأمهات اللغوية وذلك إما لجهلها اللغة أو لعدم معرفتها ما يقابل الألفاظ الأجنبية في العربية وهذا وإن كان لا يستحسن لا يمس سلامة اللغة وصحيحها لأنه يسير بالنسبة إلى غنى اللغة العربية .

نحن لا نسلم بالنتيجة التي استنتجها ولا بوفرة الألفاظ الأجنبية التي تدخل اللغة العربية وننكر قدرتها على تحويل اللغة الفصيحة إلى عامية .

* * *

ثم إن المبدأ الذي قرره بقوله : إن اللغة آئلة إلى الفناء لأنه محتم على كل

حي أن يموت هو مبدأ لا يصدق في اللغات ، لأنه يفترض أن اللغات تحيا كالأجسام وهذا ليس صحيحاً .

أما اللغة فنراها غالباً بعد انحطاطها لإهمال الآداب وموت الأدباء تنهض من كبوتها وتنتعش بعد ضعفها ، فاللغة لا تموت كما يموت النبات والحيوان ، بل يموت الشعب الذي ينطق بها ، فإذا بقي الشعب العربي في الحياة تحيا لغته ويتجدد شبابها ولا تنحط بل تترقى بترقي آدابه . وإذا انقرض الشعب العربي (لا سمح الله) وابتلعه غيره من الشعوب تموت لغته العربية ، وهذا ما حدث في البلاد السورية فإنه لما كثر العرب الفاتحون لها وقويت شوكتهم وصارت السلطة إليهم أبادوا اللغة اليونانية في المدن السورية واللغة السريانية في القرى . فمن المقرر أن اللغات لا تموت إلاّ بانقراض الشعوب ، فما دام الشعب حياً فلغته هي أبداً شابة .

* * *

ولو كانت اللغة في نشوئها لأمكن القول إنها ستتحول ، لكن لا من الكمال إلى الانحطاط بل من النقص إلى الكمال ، أما إذا كانت بلغت أشدها أي كمالها فقلما يطرأ عليها تغيير أو قلما يؤثر فيها ، لا بل متى عمت اللغة الفصيحة في الأمة فإنها تبيد كل اللغات الخصوصية وتميتها سواء كانت في فرنسة أم في ألمانيا أم في غيرهما من الممالك .

* * *

ولنا مثال آخر في اللغة العربية وهي من أثبت اللغات ، فإنها في العصر الجاهلي كانت تختلف معاني كثير من ألفاظها باختلاف القبائل ، ولكن بعد أن كتب القرآن (والمسلمون دائبون على تلاوته في الأقطار) وبعد أن أخذ العلماء يفسرونه وانتشرت الكتب في الحديث والتاريخ والطب والرياضيات

وغيرها من العلوم ، وضبطت قواعد العربية وأنشئت المدارس وشاعت المخطوطات ثبتت العربية كما ثبت البناء المشيد بالحجارة والكلس فنفهم اليوم كتباً ألفت منذ ألف ومائتي سنة ويكتب أدباؤنا اليوم كما كتب العرب لفائدة العامة في جزيرة العرب والبلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وفارس ومصر وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس الغرب ، ويتكلم دأباؤنا كما يتكلم أولئك مع اختلاف يسير في اللهجة واستعمال بعض الألفاظ فإذا قام اليوم من يتكهن بانحطاط العربية الفصيحة واندثارها وتغلب العامية عليها لا أحد يلتفت إليه أو يصغي إلى أقواله بل يهز عطفيه مبتسماً ويقول :

(سراب يريه واضمحل !)

وقد كان الكاتب يعتقد أن الألفاظ الأجنبية تدخل في العربية كل سنة بالمئات والألوف فتحول اللغة العربية من هيئة إلى هيئة ، فها قد مضى زمن على الشعب العربي يعيش الفرنج بين ظهرانيهم وينتقل كثير منهم إلى البلاد الأوربية والأمريكية فليحص لنا حضرته المئات من الألفاظ الأجنبية التي أدخلوها في العربية فأثرت في فصاحة اللغة . فهذه مجلات المقتطف والهلال والمشرق وجرائد الأهرام والمقطم ولسان الحال والبشير وغيرها كتابها منشئون بالعربية الفصيحة مقالات ضافية الذيول فلا تستعصي عليهم الألفاظ العربية لتأدية ما تحتاج عقولهم من المعاني في كافة العلوم القديمة والحديثة من علم الفلسفة والإلهيات إلى علم الهيئة ووصف الأرض ، وقد يضطرون إلى اقتباس بعض الألفاظ الأجنبية فيكسونها ثوباً عربياً ويخضعونها لقواعد اللغة العربية أو يرصعونها في إنشائهم كفص ياقوت في خاتم ذهب ملامسه فلم يعترض أحد ليقول إن لغتهم عامية .

* * *

إنه اقتبس بعض أفكار كأشباح لاحت له في غلس الظلام ، فجمعها

وأنفها كما يرسم المصور المازح الماجن فيضم رأس رجل ذي لحية إلى عنق فرس ويكسو بالريش الأعضاء المختلفة وينهي الصورة بجسم سمكة فيكون المجموع صورة مسخ .

متى يحق لحضرته أن الشعب اللبناني لا يفهم إلاّ ما يكتب باللغة العامية ؟

إذا كان حضرته قد انخدع بكتاب فنيانوس المكتوب باللغة العامية فليعلم أن هذا الكتاب وضع لغاية خصوصية توخاها مؤلفه .

٤

الزهاوي (العراق)

كتب الشاعر جميل صدقي الزهاوي مقالاً في ٩ أغسطس ١٩١٠ في جريدة المؤيد بعث به من بغداد عن ما أسماه :

[لغة الكتابة ووجوب اتحادها باللغة المحكية] .

يقول : إني فتشت طويلاً عن انحطاط المسلمين فلم أجد غير سببين : أولهما الحجاب الذي عددت في مقالتي الأولى مضاره لو كانت هناك آذان واعية . والثاني : هو كون المسلمين ولا سيما العرب منهم يكتبون غير اللغة التي يحكونها .

وواضح أن الزهاوي قد تابع في هذه الدعوة كتابات المقتطف وولمور وويلكوكس ومن لف لفهما وأنه لم يكن يصدر عن الأصالة بل كان يصدر عن التبعية التي عرفت عنه في كثير مما اتجه إليه ، وقد صفق له دعاة التغريب وأعجبوا به وأطلقوا عليه لقب المجدد والمحقق والعالم الكبير .

رد الشيخ علي يوسف على الزهاوي فقال :

إن مسألة اللغة الكتابية في العربية ذات وجهين : لكل أصحاب وجهة

منهما براهين وأدلة على صحة مذهبهم وبطلان مذهب مخالفيهم . وأكبر الاعتراضات التي ترد على حضرة الفاضل الزهاوي أن لغة التخاطب ليست واحدة عند الأمم العربية بل هي تكاد تكون لغات متعددة ، وبين لغة كل أمة من هاته الأمم دخائل مجهولة عند الأمم الأخرى ، فأهل المغرب الأقصى يختلفون في النحت والمزج اختلافاً كثيراً عن أهل العراق مثلاً في تخاطبهم ويكثر في كلامهم الدخيل من لغة البربر ، وأهل الجزائر في الغرب يختلفون كثيراً عن أهل اليمن في تخاطبهم مزجاً ونحتاً ودخيلاً .

كذلك يوجد بعض الاختلاف بين أهل الشام ومصر وهي أهل الوسط في اللسان العربي كما يوجد اختلاف بيّن كثير بين بعضهم والأمم العربية الأخرى بحيث لو صيرت لغة التخاطب : لغة كتابة لجهل قارئو العربية بين الأمم ما لا يجهلون الآن .

وعسير أن توجد لغة الكتابة لسان الأمم العربية من هاته الألسن البابلية ، أما اللغة الفصحى التي يتحفنا بها السيد الزهاوي كل كاتب عربي فهي مقروءة مفهومة عند كل قراء العربية ليس الخاصة فقط ، بل الذين ارتفعت عنهم الأمية .

وكلما ارتفع إحصاء القارئين الكاتبين في الأمم العربية اتسع ميدان اللغة الفصحى لأهلها ، وهي لا تأبى الدخيل الجديد من أسماء المخترعات والمكتشفات.

ولعل السيد الزهاوي يراجع مذهبه ثانياً ليرى أن ما يسميه معطلاً للعرب ليس هو بالقدر الذي يعبر عنه بيانه ، وهنالك محاذير أخرى يجرها على الأمم العربية اتخاذ لسان التخاطب لساناً كتابياً ، منها جعل لغة القرآن بمعزل عن القارئين والكاتبين الذين سيذهب بهم التجدد بعد ذلك كل مذهب .

ومنها أن تجعل بيننا وبين الكتب العربية المرقومة باللغة الفصحى من فقه وحديث وسيرة وتاريخ وعلوم حاجزاً كلما تقدم الزمان وصار صفيقاً حتى تعود اللغة العربية الفصحى كاللغة اللاتينية عند الأمم الإفرنجية

٥

سلامة موسى (مصر)

دعا سلامة موسى إلى استعمال العامية المصرية

تابع في ذلك ويلكوكس أول داعية إلى العامية وأذاع له في ١٩٢٦ حديثاً في الهلال جدد فيه الدعوة وتولى قيادتها بعد أن اختفت أربعين عاماً ، له كتاب مسموم هو : البلاغة العصرية واللغة العربية .

وجه إليه أكثر من نقد وكشف زيفه وادعاءه (١) .

العامية المصرية وسلامة موسى

وتساءلت الأقلام في مواجهة سلامة موسى فقالت :

لماذا لا يكتب سلامة موسى بالعامية التي يدعو إليها : أليس لأنها قاصرة لا تؤدي إلاّ المعنى العامي الضئيل في اللفظ القلق المضطرب فلا يقرأ إلاّ بالجهد ولا يفهم إلاّ بالتأويل (الزهراء جمادى الثانية ١٣٤٦ هـ) .

* * *

يقول العلامة عزة دروزة في الرد على سلامة موسى :

المعروف أن وجود لغة عامية إزاء لغة فصحى ليس خاصاً باللغة العربية فالعامية موجودة إزاء الفصحى في كل لغة وفي كل بلد ، بل إن اللغة الفصحى بينما هي واحدة في التعليم والتدوين والأداء العلمي في قطر من الأقطار نجد

---

(١) راجع كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية .

رد العقاد وأحمد الحوفي وزكي مبارك على افتراءات سلامة موسى .

اللغة العامية متعددة سواء في الألفاظ أو الأساليب أو في الأداء واللهجة .

ويقول : كيف تستقيم العامية : لغة تعلم وكتابة ما دامت العامية في ناحية مغايرة للعامية في ناحية أخرى منه ، فاللغة العامية ليس لها طابع العمومية حتى تصلح لأن تكون عامة في وجوه استعمالات اللغة .

ثم إن اللغة العامية من حيث هي لا ضابط لها تقف عنده ، ويجعلها صالحة لأن تكون لغة تعلم وتدوين وذات وحدة علمية ثابتة في قالبها على الأقل قلما تتقيد بقاعدة حرفية أو نطقية وقلما تكون كاملة الأداء .

إن الآداب التي تؤدى بلغة عامية كالروايات والأغاني والمسرحية والأهازيج الشعبية لا يمكن أن تكون خالدة . بسبب تحول وتبدل اللغة العامية .

إذ لا تلبث أن يبتعد عنها العامة رويداً رويداً ولا تبقى لها إلا قيمتها التاريخيةللدلالة على نفسية الأمة وآدابها في زمن من الأزمان .

أما القول بأن اللغة العامية أوفى بالمقصود من اللغة الفصحى فليس صحيحاً ، وأرجح أن هذا غلط أتى من ناحية قدرة المتعلمين على التفاهم والتعبير عن آرائهم التي تسمو عن العامية بلهجة قريبة من العامية . ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه القدرة إنما أتت للمتعلمين بسبب أنهم استعاروا ويستعيرون دائماً مفردات وأساليب كثيرة من اللغة الفصحى ويصقلونها في مخاطباتهم ومحاوراتهم فالأصل في هذه القدرة هي اللغة الفصحى وانتشارها ، أما العامية فلا يعقل أن تحتوي على مفردات كثيرة تتسع للتعبير عن كل ما يريده الإنسان من أفكار علمية واجتماعية وأدبية .

٦

عامية لويس عوض

يعد لويس عوض من أعدى أعداء اللغة العربية ، وقد وضح ذلك في مختلف كتاباته ، وفي دراساته الغربية حتى في رسالته التي أحرز بها الدكتوراه من جامعة لندن .

وقد كشف عن ذلك في وضوح في مقدمة ديوانه (بلوتولاند) الذي طبعه عام ١٩٤٧ .

فأعلن حربه على الفصحى ودعوته إلى العامية وكسر عمود الشعر .

وادعى بأن استخدام العامية سيؤدي بعد قرنين إلى ترجمة القرآن إلى العامية ، وأعلن أنه لم يقرأ خلال صدر شبابه باللغة العربية وأن حساسيته للعربية ضعيفة وأجنبية معاً .

وقد واجه الأستاذ محمود محمد شاكر ادعاءات لويس عوض عن العامية والفصحى فقال :

إن التجربة التي مر بها لويس عوض في مسألة الدعوة إلى العامية : تجربة هو مسبوق إليها ، وغير معقول أن لا يكون عرف عنها شيئاً . وينبغي أن أقول لماذا هو غير معقول لا استنباطاً ولكن بنصوص كلام . فقد تبين أيضاً أن الأفكار الثلاثة التي دارت في تجربته كلها منقولة نقل مسطرة من كتب كان يتوهم هو أنها غير موجودة إلا في بعض الخزائن العميقة المظلمة التي لا تصل إليها الأيدي بسهولة ووضوح . ما دام مسبوقاً إليها حرفاً حرفاً وخطوة خطوة وتشبيهاً تشبيهاً . فهو لا شك مدعٍ وكاذب في تجربته بل هو يعيش في أحلام لا حقيقة لها .

وأشار إلى أنه حين ترجم لنفسه عام ١٩٤٧ في ديوانه بلوتولاند وقصائد أخرى فحدد اتجاهه تحديداً واضحاً فقال :

حطموا عمود الشعر ، لقدمات الشعر العربي ، مات عام ١٩٣٣ ، مات بموت أحمد شوقي ، مات ميتة الأبد . مات .

وقال : كان لويس عوض عام ١٩٣٧ يتعلم مبادىء اللغة الإيطالية بين الحشائش السحرية التي تملأ الفلاة بين كامبردج وجرانشستر واسترعى انتباهه أن البعد بين اللغة اللاتينية المقدسة ولهجتها المنحطة الإيطالية أقل من البعد بين اللغة العربية المقدسة ولهجتها المنحطة المصرية . . . فعجب لإصرار المصريين على اللغة المقدسة ، وكان يحدث أصدقاءه بخلاصة فكره ، فوجد منهم إعراضاً رقيقاً مؤدباً فعجب ، فلما عاد إلى مصر سنة ١٩٤٠ وجاهر برأيه فلم يصادف إعراضاً ، وإنما صادف غلظة ، فازداد عجبه ولكن سرعان ما فهم من بعض أصدقائه أن المسألة حساسة ، لأنها تتصل بالدين رأساً ، لأن استخدامه اللغة المصرية كأداة للكتابة قد ينتهي بعد قرن أو قرنين بترجمة القرآن إلى اللغة المصرية كما حدث للإنجيل أن ترجم من اللاتينية إلى اللغات الأوربية الحديثة ، فزال عجبه .

وهو يفهم كذلك أن الاعتراف باللغة المصرية لا يتبعه بالضرورة موت اللغة العربية إذا احتاط الناس لذلك فليس هناك ما يمنع من قيام الأدبين جنباً إلى جنب .

وأنه عاهد الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مد سمر في خلوة مشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكمبردج ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية (يعني العامية) .

وقد بر بعهده الأول في العام الأول بعد عودته فكتب شيئاً بالمصرية سماه مذكرات طالب تعبة ولكنه استسلم بعد ذلك وخان العهد وأشار أن إحساسه

باللغة ضعيف بالفطرة ، وقد اعترف بأنه لم يقرأ حرفاً واحداً بالعربية بين سن العشرين والثانية والثلاثين إلاّ عناوين الأخبار في الصحف السيارة وبعض المقالات الشاردة ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها ، فإحساسه باللغة أجنبي جداً على كل حال .

وقال محمود محمد شاكر : لويس عوض ملأه مالئه منذ دهر ثم تركه ، وضبطه إلى أهداف بعينها ثم أطلقه ، فانطلق يجوس خلال الآداب عامة ثم الآداب العربية خاصة وهو لا يكاد يرى إلاّ ما ركب لاجله ، لا يكاد يرى إلاّ اليونان والروم والقرون الوسطى والمثقفين والحضارة الحديثة والحروب الصليبية والصلبان والخلاص والفداء والخطيئة وكسر رقبة البلاغة وكسر عمود الشعر العربي واللغة العامية والفتح الإنجليزي لمصر . هذا التركيب الموجه لا يكاد يرى ابن خلدون إلاّ مقروناً بأورسيوس ، ولا المعري إلاّ مقروناً براهب دير الفاروس وبالحروب الصليبية . وبالصلبان التي غصت بها حلب ولا يكاد يرى مكرم عبيد وعرابي إلاّ مقرونين بالمعلم يعقوب رئيس الخونة المظاهرين للفرنسيين الغزاة أيام نابليون ولا توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وصلاح عبد الصبور إلاّ مقرونين بعقائد الخلاص والفداء والخطيئة .

ولا يكاد يرى القرآن العظيم إلاّ مقروناً بترجمته إلى اللغة العامية كما ترجم الإنجيل إلى اللغات الحية وهي عامية اللاتينية وإلاّ مقروناً بكسر رقبة البلاغة وكسر عمود الشعر العربي .

٧

سعيد عقل وعامية لبنان بالحرف اللاتيني

دعوة سعيد عقل الى خلق لغة جديدة يسميها اللغة اللبنانية لإحلالها محل العربية تعتمد على عنصرين اللهجة العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني بدلاً من

العربية وقد تفضل فقدم رموزها وشتيتاً من نماذجها التي كان قد وصفها عدد من المستشرقين والمبشرين لغايات علمية ومآرب سياسية معروفة . وقد أصدر أول كتاب لبناني بالحرف اللاتيني عام ١٩٦١ باسم (ياره ـــ شعر) وهذا الكتاب مطبوع بأحرف الأبجدية اللاتينية مضافاً إليها سبعة رموز جديدة وأحد عشر حرفاً لاتينياً زيد عليها إشارات خاصة حتى تؤدي أصواتاً مكان الحرفين الذين يؤديان في اللهجة اللاتينية صوتاً واحداً .

ويتابع سعيد عقل الدعوة المضطردة التي حمل لواءها : ميشال الفغالي وجبور عبد النور وأنيس فريحة .

وتجري هذه الدعوة في نطاق عزل لبنان عن الأمة العربية وإحياء الإقليمية وضمن المخطط التبشيري الاستشراقي المرسوم الذي سار فيه كثيرون من قبل مستهدفة قطع الماضي عن الحاضر وتحطيم الوحدة اللغوية في الأمة العربية . وقد لخص سعيد عقل دعوته في عبارات موجزة حين قال :

« علينا أن نترك لغة الكتب لنأخذ لغة الحياة وعلينا أن نترك فرع الهجاء الفينيقي المعروف بالحرف العربي ونعتمد فرعاً آخر منه كاللاتيني أو ما أشبه لا تعوزه تلك الحروف .

إن بقينا على لغة الكتب نكون قد استنكفنا عن مجاراة الناموس العام : الأخذ بما هو شاب وترك ما قد شاخ .

الدكتور عمر فروخ

إن الدعوة الى اللهجة العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني قديمة وقد حاول وضع رموزها وشيئاً من النماذج مستشرقون كثيرون لغايات علمية أو لمآرب سياسية .

وتأتي محاولة سعيد عقل مختلفة من ناحيتين :

في أن الرموز التي اعتمدها تختلف عن الرموز التي كان أولئك قد اعتمدوها ، أما الناحية الثانية فهي أن سعيد عقل قد دون برموزه لهجة هي لهجته الشخصية وقارىء الكتاب لا يستشعر أنه يقرأ لهجة قطر من الأقطار ، كما كنا نقرأ في جريدة الدبور البيروتية أو في مجلة المضحك المبكي الدمشقية أو في مجلتي الفكاهة والبعكوكة المصريتين ، أو في مجلة جيز نور البغدادية .

وكان أحدنا يقرأ أحياناً ويضحك لنكتة عامية أو تعبير محلي ، وكان الغالب على هذه المجلات العامية وما يكتب فيها أن يقرأها أشباه الأميين الذين تعالج هذه المجلات مشاكلهم التي يعانونها على مستوى يتفق مع قدر مداركهم اللغوية والأدبية .

وكان كل جماعة من هؤلاء يقرأون المجلة التي تصدر في صقعهم ، ولم يكن العامي المصري يقرأ جريدة الدبور أو مجلة جيز بوز ولا كان العراقي . الخ

ويأتي الآن سعيد عقل ليشق في حياة الأمة طريقاً جديداً : طريقاً له وحده لا يشركه فيه أحد ، كنا نقرأ شعر سعيد عقل باللغة الفصحى وبالحرف العربي فنجده أحاجي وألغازاً فما قولك بنا ونحن نقرأ شعره العامي بالحرف اللاتيني .

يبدو أن سعيد عقل شعر بهذا الحاجز بينه وبين الناس فلف كتابه الجديد برباط كتب عليه بالحرف العربي :

(أول كتاب لبناني بالحرف اللاتيني)

إن غير اللبناني لن يقرأ هذا الكتاب إذ ليس في مكنته ولو كان يعرف الأحرف اللاتينية الخمسة والعشرين ثم حفظ الرموز العشرين التي زادها سعيد عقل على الأبجدية اللاتينية أن يصل الى تلك الرموز المطموسة .

إن اللبناني العامي من أهل الجنوب ومن أهل بيروت أو طرابلس أو صيدا لن يقرأ فيما أظن هذا الكتاب . إن هذا الكتاب موضوع بلهجة لا تهز فيهم

حماسة ولا تدخل في قلوبهم متعة ، فالمتعة الأدبية كالمتعة الفنية : جو اجتماعي قبل أن تكون حروفاً ورموزاً .

إنني أدرك أن جهات خاصة ستصفق لصدور الكتاب لا على أنه إنتاج أدبي جديد ، بل على أنه محاولة من المحاولات التي يحبونها في ميدان النشاط الذي يقومون به ، ذلك أن الدعوة الى اللغة العامية بالحرف اللاتيني جاءت أولاً من الخارج .

إن هذا الكتاب سيمر أمام عيون أناس لا يرون فيه أكثر من محاولة لا تذهب الى أبعد من الكتاب الذي وضعت فيه ، ولكن هذا الكتاب امتحان قاس لأنصار العامية ولأنصار العامية بالحرف اللاتيني ولأنصار الأدب العامي أيضاً .

هذا الكتاب سيثير ضجة مصطنعة وراءها مآرب، تأخذ ما بين المشرق والمغرب من كل شيء إلاّ من القيمة الفنية للموضوع .

ذلك شيء هو آخر ما يفكر به أولئك الذين يحبون أن يروا مثل هذا الكتاب ماثلاً في الأسواق . لقد جاؤوا بمزحة فطبعوها بالحبر الأسود على ورق نفيس .

٨

أنيس فريحة (لبنان)

ينصب اهتمام (الدكتور أنيس الخوري فريحة) استاذ اللغات السامية بالجامعة الأميركية على دراسة اللهجة العامية والدعوة إليها مكتوبة بالحرف اللاتيني وقد بدأ نشاطه الجدي في اللهجة العامية بكتابه : معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية عام ١٩٤٧ وفي عام ١٩٥٠ كتب مقال الأمثال العامية (مجلة

الأبحاث م ٣) . وفي عام ١٩٥٢ نشر كتابه تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد .

وفي ١٩٥٥ كتب موضوعه المشهور :

هذا الصرف وهذا النحو : أما لهذا الليل من آخر

تمنى فيه أن يرى حاكماً عسكرياً سياسياً يفرض العامية على العرب ثم ألقى عام ١٩٥٥ محاضرات في معهد الدراسات العربية عن اللهجات وأساليب دراستها وأتبع ذلك محاضرة عن اللهجة اللبنانية .

وكتابه (نحو عربية ميسرة) حملة مركزة على اللغة العربية الفصحى وعلى الأدب العربي ، وتحدث بصفة خاصة عن صلة اللغة العربية بالقرآن الكريم .

رأي الدكتور عمر فروخ

إن الخوري مارون غصن دعا إلى إحلال العامية مكان اللغة الفصحى . أما أنيس الخوري فريحة فدعا فوق ذلك الى إحلال الأحرف اللاتينية مكان الأحرف العربية .

ومع أن للدكتور أنيس فريحة نشاطاً أدبياً متعدد الجوانب الى حد ما ، فإن اهتمامه الأول منصب على دراسة اللهجة العامية والدعوة إليها مكتوبة بالحرف اللاتيني ، ويستشعر القارىء من دعوة الدكتور فريحة نقمة شائعة وخصومة شديدة لمخالفيه في الرأي . نقمة وخصومة تبرزان حيث لا مبرر لبروزهما ولا لظهورهما .

بدأ الدكتور أنيس فريحة نشاطه الجدي في اللهجة العامية بكتابه :

(معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية)

جمعها وفسرها وردها الى أصولها ، وقد صدر عن الجامعة الأمريكية

في بيروت عام ١٩٤٧ . إن مأخذنا على معجم الدكتور فريحة يتبدى في ناحيتين أساسيتين :

(أولاً) قلقه النفسي الذي يتجلى في مقدمته فليس من حاجة في تقديم قاموسه الى أن يقول :

(ومسألة توحيد اللهجات في الجاهلية إنما هي خرافة إسلامية (إن الدكتور فريحة يقصد أن الرأي القائل بأن العرب كانت لهم لغة واحدة في الجاهلية رأي نشأ بعد الإسلام ، ولكن الرجل طغى عليه قلقهُ النفسي وشيء من النقمة والخصومة ، فعبر عن فكرة قد تكون صائبة وقد نوافقه فيها الى حد كبير ، تعبيراً غير دقيق .

ب – قلة تقيده بالدقة التي يدعو إليها ، يقول الدكتور فريحة في المقدمة (إن الشعراء والأدباء ورجال الدين كانوا ، عن وعي ، يغايرون القوم في لغتهم للظهور بمظهر خاص ، يعلو على مستوى العامة ، فكانوا يتخلون عن لهجاتهم المحلية الإقليمية ليقرضوا شعرهم أو ينثروا خطبهم باللغة الأدبية التي كانت لغة أدباء الجزيرة وشعرائها قبل أن تكون لغة قريش بالذات . وكان على هذه اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن ان تكافح وتنازع غيرها من اللهجات واللغات ، ولم تنتصر انتصارها الباهر الكلي حتى قارب القرن الهجري الأول الزوال) .

إن الذي يقوله الدكتور فريحة مخالف للواقع التاريخي . إن القرآن الكريم نزل باللغة التي كان يتكلمها العرب فعلاً وجَمَع لغاتهم .

وذلك بيّن جداً في القرآن الكريم في قوله تعالى :

(وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم) سورة ابراهيم . والآيات على نزول القرآن الكريم باللغة التي تبين للناس يعيا عنها العد والحصر فنظرية الدكتور فريحة في هذا الشأن خاطئة من أساسها .

ثم إننا نلاحظ أن معجم الدكتور فريحه تنقصه مفردات كثيرة جداً وليس هذا بمستغرب ، ولكن المستغرب أن يكون الدكتور فريحة قد اعتبر جانباً واحداً من اللهجة التي يسميها لبنانية وكان الخوري مارون غصن ـ يسميها اللهجة السورية . هناك عشرات من الكلمات ومن معاني الكلمات التي أهملها الدكتور فريحة وليس من المعقول أن يكون جاهلاً بجريانها على الألسن ولكن في إحدى زوايا ذاكرته أمراً آخر وفي عام ١٩٥٠ كتب الدكتور فريحة مقالة عنوانها (الأمثال العامية) ودرس الأمثال العامية أمر ممتع مفيد ، ولا ريب في أن الأمثال مثل غيرها من الأشياء تحفظ وتنسى وتنبه وتخمل ، ولكن ما المرجح لهذه النقمة والخصومة اللدودة اللتين تدفعان باحثاً في سبيل موضوع في مجلة إلى أن يقول (إن الكثرة الساحقة من الأمثال العربية التي حفظها لنا الأدب العربي قد ماتت ، ماتت لأن الحياة نبذت الكثير منها وما تنبذه الحياة لا رجعة له.

وفي نقده لقاموس الشيخ عبد الله العلايلي يقول :

(إنما نخالفه الرأي في ليونة اللغة العربية وطواعيتها وذلك لأنها تتصف بصفات بدائية احتفظت بها من شأنها أن تقف حاجزاً في سبيل كونها لغة الحياة اليومية وأشدها خطراً الإعراب الذي اتصفت به اكثر اللغات القديمة ، ولكنه سقط عنها عندما اصبحت هذه اللغات لهجات تعبر عن الحياة . وكل لغة ، كي تكون لغة صالحة حية تعبر عن الحياة ، يجب أن تسير سيرها الطبيعي ، ومتى سارت سيرها الطبيعي فإن إسقاط مالا قيمة بقائية له يصبح أمراً محتوماً) .

والمفروض أن القاموس لا يتعرض للنحو ولا للإعراب وما كان للدكتور فريحة أن يستطرد الى ذكر ذلك لو لم يكن في نفسه ما يطغى على لسانه .

وفي عام ١٩٥٢ قدم الدكتور أنيس فريحة للطبع كتاباً عنوانه (تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد) .

وهو يعبر عن التيسير بأنه : هو التيسير الذي فرضته الحياة (لو أن العرب

الأحياء أجمعوا على أن قواعد العدد هي قواعد العدد كما هي في عامية الناس لكان هذا تيسيراً حقيقياً بمعنى آخر التيسير هو ما يمس الجوهر (في اللغة العربية الفصحى) وها إن العامية مثلاً أسقطت الإعراب وبسطت التركيب ولنا في الأمر رأي سننشره قريباً للناس ، لا ليأخذوا به ، لأنهم لن يأخذوا به الآن وإنما ليكفوا عن هذه المحاولات الفاشلة .

وفي عام ١٩٥٥ انفجر الدكتور فريحة بمقال في مجلة الأبحاث عنوانه :

(هذا الصرف ! وهذا النحو ! أما لهذا الليل من آخر) .

فحواها معروف من عنوانها ، إن معظمها تهكم سمج ، غير أن الدكتور فريحة يتمنى هنا أن يرى عاملاً عسكرياً سياسياً يفرض اللغة العامية على العرب .

وأنا أذكر أن الدكتور أنيس فريحة كان يعلم التاريخ القديم أو الحديث في الجامعة الأميركية ، ولعله يذكر أن البلاد العربية عرفت جميع أنواع العوامل العسكرية : الإنجليز والإفرنسيين والطليان ، وعرف لبنان الأسطول الأمريكي عام ١٩٥٨ ، ولقد كان عدد الذين تعلموا العربية من الفرنسيين مثلاً أكثر من الذين تعلموا الفرنسية من العرب .

وألقى الدكتور أنيس فريحة في معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية محاضرات عن اللهجات وأسلوب دراستها . المحاضرات ، في الحقيقة ، هي ملخص لكتبه ومقالاته السابقة مع شيء يسير من التوسع والتحليل والاستطراد طبعاً .

وفي العام ١٩٥٥ نفسه أعاد الدكتور أنيس فريحة ترتيب المواد التي جاءت في كتبه ومقالاته السابقة وأخرجها للناس في كتاب جديد سماه (نحو عربية ميسرة) .

وفي هذا الكتاب حملة مركزة على اللغة العربية الفصحى وعلى الأدب

العربي . وليس من جديد في هذا الكتاب سوى الكلام على صلة اللغة العربية الفصحى بالقرآن الكريم .

قال الدكتور فريحة : ونعتقد أن المجتمع الإسلامي الأول نسبة لإعجابه بهذه اللغة ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم ، جهدوا في أن يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية ، يدلك على ذلك مبلغ الجهد الذي أنفق في سبيل ضبط أحكام هذه اللغة ، وفي محاربة اللحن ، وفي إصرار المقامات العليا على أن تكون هذه اللغة الدواوين والكتاب والمنشئين » .

إننا نعلم أن الذي يزعج الدكتور فريحة ليس اللغة العربية الفصحى وحدها ، بل يزعجه فيما يبدو لنا بقاء القرآن وبقاء الإسلام ببقاء القرآن — وهذه شكوى تبشيرية واستعمارية قديمة . ونحن لا ننسب شيئاً من ذلك الى الصديق الدكتور فريحة لأننا نعلم من تاريخ النقد أن اتفاق اثنين على قول واحد ليس من الضروري أن يكون أحدهما قد أخذه عن الآخر ، بل يمكن أن يكونا قد أخذاه من مصدر واحد سابق عليهما كليهما كما يمكن أن يكون توارد خواطر أصيلاً منهما وحدهما . ويبدو أن القرآن الكريم هو الذي يسد على الدكتور فريحة مذاهبه فنراه يصرخ بما كان قد كتمه طويلاً فيقول : ولكن للناس أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ، وماذا سيحل بالأدب القديم ، وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد وسيبقى على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب . وها هي الكنيسة الكاثوليكية ، فإنها تعتبر الترجمة اللاتينية للتوراة لغة الكنيسة الرسمية ولا يكون القداس إلاّ باللغة اللاتينية ، ومثل هـذا في الكنيسة الأرثوذكسية التي حافظت على اللغة اليونانية التقليدية ، والكنيسة المارونية التي احتفظت باللغة السريانية والكنيسة المسيحية الحبشية التي احتفظت باللغة السامية القديمة المعروفة بالجفر .

« على أن الفارق بين الكنائس التي احتفظت بلغاتها القديمة وبين الإسلام

عظيم جداً ، وذلك لأن العامية (العربية) المهذبة المحكية لا تختلف عن لغة القرآن الكريم اختلاف السريانية عن العربية أو الاغريقية عن العربية أو اللاتينية عن الفرنسية ولقد تكون لغة القرآن الكريم غريبة على أفهام الناس وسيظل الناس يتلونه ويحفظونه غيباً ويدرسون صرفه ونحوه وسحر بيانه كما يفعلون اليوم ، وسيظلون يقرأونه ويستظهرونه تبركاً ، هذا فيما يتعلق بالمستقبل القريب ولكن ما سيحدث في المستقبل البعيد بعد مئات السنين ، هنا ندخل في نطاق الحدس والتخمين » .

بمثل هذا الغرور يتكلم الدكتور أنيس فريحة عن اللغة والأدب والإسلام والقرآن ، ولكن الدكتور فريحة يعلم علم اليقين أن كتبه ليست الحجارة الأولى التي تساقطت على العرب والعروبة وعلى القرآن الكريم والإسلام . نحن مع الدكتور فريحة في أن اللغة لا يضيعها شخص ولا جماعة ، ولكن عليه أيضاً أن يعلم أن اللغة لا يبدلها شخص ولا جماعة ما دام هناك قوانين طبيعية تعمل في كل كائن حي . فما باله يريد أن يتدخل في القوانين الطبيعية ؟

ويستشهد الدكتور فريحة دائماً بما آلت إليه اللغات القديمة في أوربة ثم يتمنى أن يطبق على اللغة العربية ما صار إليه أمر اللغة اللاتينية ، وأنا أعتقد أن الدكتور فريحة يعلم أن نشأة اللغات الحديثة في أوربة على أنقاض اللغة اللاتينية كان مرتبطاً الى حد بعيد بالثورة الدينية على البابوية وبالثورة السياسية على سلطة الكنيسة فالألمانية والإنكليزية والإسوجية والنرويجية كانت ترتبط بتينك الثورتين .

ولم تكن نشأة الفرنسية والإيطالية والإسبانية بعيدة عن ذلك كثيراً .

ثم يتجاهل الدكتور فريحة أمراً في غاية الخطورة أن الإسوجيين والنروجيين والدنماركيين والألمان والفرنسيين والإسبانيين والبرتغاليين والإنجليز لم يكونوا لاتيناً ولا كانت اللاتينية يوماً لغة لهم ، وإنما كانت لغة جيوش محتلة نزلت في أراض غريبة ثم تشوهت في تلك الأراضي حيناً ثم ماتت .

أما أهل الشام والعراق فعرب تكلموا هذه اللغة من زمن قديم وحينما كان حسان بن ثابت والنابغة الذبياني يأتيان إلى الشام والعراق يمدحان الغساسنة والمناذرة فإنما كانا يمدحانهم باللغة العربية لا باللغة السريانية .

واللغات اليونانية واللاتينية والفارسية كانت لغات عربية في الشام والعراق ، أما الآرامية ، أو السريانية في أحد أوجهها فكانت أيضاً لغة احتلال قديمة ثم لغة مذهب جرت به سنة الطبيعة وجاء العرب من الجزيرة ينقذون إخوتهم الذين سبقوهم في الهجرة من نير الفرس والروم البيزنطيين فجمع الله الشمل ورأب الصدع ثم عاد الجميع يتكلمون لغتهم الأولى الصافية فليس من الحق يا أخي أنيس أن تتنكر للغة التي تأكل بها خبزك وحرام أن يجزى الإحسان بالإساءة والنعمة بالكفران .

الفصل الخامس

الرد على أعداء الفصحى وتزييف دعواهم

استثارت قضية العامية أقلام المؤمنين باللغة العربية ودفعتهم الى كشف الزيف وإقرار الحقيقة وإبراز الآثار العميقة المترتبة على الدعوة الى العامية والخلفيات القائمة وراءها .

١
الرافعي والجملة القرآنية

نبهتني إحدى الصحف العربية التي تصدر في أمريكا عندما تناولت الكلام على (رسائل الأحزان) بقول جاء في بعض معانيه ، إني لو تركت (الجملة القرآنية)والحديث الشريف لكان ذلك أجدى علي وللأت الدهر ثم لحطمت في أهل المذهب الجديد حطمة لا يبعد في أغلب الظن أن تجعلني مذهباً وحدي .

وقد وقفت طويلاً عند قولها (الجملة القرآنية) فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل .

وإذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في

تربية الملكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقام نشأة خاصة في أفصح قبائل العرب وردها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا منه وصلتنا به حتى كأنه فينا ، وحفظها لنا منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم هي عند التلاوة تدور في أفواهنا ، وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها ، إذا أنا فعلت ذلك ورضيته أفتراني أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية ، وأسفّ الى هذه الرطانة الأعجمية المعربة وأرتضخ تلك اللكنة المعوجة وأعين بنفسي على لغتي وقوميّي وأكتب كتابة تميت أجدادي في الإسلام ميتة جديدة وتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلاّ الميت وأنشىء على سنّتي المريضة نشأة من الناس يكون أبغض الأشياء عندها هو الصحيح الذي يجب أن يكون أحب الأشياء إليها .

كنت أعرف أن الكاتب البليغ المدقق الشيخ إبراهيم اليازجي لما أرادوه على تصحيح ترجمة الأناجيل رغب إليهم أن يصرّف قلمه في الترجمة وينزلها منزلتها من اللسان ويتخير ألفاظها ويزيل عجمتها ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف ويفرغ عليها جزالة ويجعل لها حلاوة ، فأبوا عليه كل ذلك ومنعوه منه وأقاموه فيها بمنزلة من يعرب آخر الكلمة فعليه أن يترك الكلمة إلا آخرها .

كنت أعرف ذلك وما فطنت يوماً الى سببه ، حتى كانت قولة (الجملة القرآنية) كالمنبهة عليه . فرأيت القوم قد أثمرت شجرتهم ثمرها المر وخلف من بعدهم خلف أضاعوا العربية بعربيتهم وأفسدوا اللغة بلغتهم ودفعوا الأقلام في أسلوب ما أدري أهو عبراني الى العربية أم عربي الى العبرانية ولا يعرفون غيره ولا يطيقون سواه . وترى أحدهم يهوي باللغة الى الأرض وانه عند نفسه لطائر بها في طيارة من طراز زبلن .

ومرجع هذا البلاء كله : أن عربية الجملة الإنجيلية تغزو عربية الجملة القرآنية من حيث يدري أولئك أو لا يدرون فما أشبه هذه الأساليب الركيكة

في مقرها من الآداب العربية بالمرض الموروث الكامن في الجسم الصحيح يتربص غفلة أو علة أو تهاوناً فيظهر فإذا هو مشغلة للصحة ثم يستشري فإذا هو مفسدة لها ثم يضرب فيتمكن فإذا هو مزاج جديد ثم إذا هو الموت بعد .

على أني لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها إلاّ واحداً من ثلاثة : فإما مستعمرون يهدمون الأمة في لغتها وآدابها لتتحول من أساس تاريخها الذي هي أمة به ولن تكون أمة إلاّ به ، وإما النشأة في الأدب على مثل نهج الترجمة في الجملة الإنجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ، وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف فإنه ليس كل كاتب ينبغ ولا كل من ارتهن نفسه بصناعة نبغ فيها ، وإن هو نسب إليها وإن عد من طبقة أهلها والكتابة صناعة لها أدواتها وفيها النمط الأعلى والأوسط وما دون ذلك .

إن هذه العربية بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم ولا تموت لأنها أعدت من الأزل فلكاً دائراً للنيرين الأرضيين العظيمين : كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء لا يملك معها البليغ أن يأخذ وأن يدع ، وأنا أتحدى كل أصحابنا الذين أشرت إليهم أن يأتوني بكاتب واحد تنقل في منازل البلاغة وأطاق أساليب الكتابة العالية ثم نزل منها الى الركاكة أو المذهب الجديد أو ما شئت من الأسماء ولزمها مذهباً وجعلها طريقة .

فأما أن لا تقدر يا أبا خالد وتزعم العفة ، وتعجز ثم تجنح الى الرأي ، وتضعف ثم تتمدح السلامة ، فهذه أساليب ابتدعها من قبلك ثعلب من أذكياء الثعالب وزعموا أنه اقتصر على القول بأن العنقود حامض .

وكيف تريد ممن عجز عن الفصيح أن يثني عليه وهو لو أثنى عليه لطولب به . ولو طولب به لبان عجزه وقصوره ، ولو ظهر الناس منه على العجز

والقصور لما عدوه في شيء ولذهب عندهم قليل ما لا يحسنه بالكثير الذي يحسنه (١) .

٢

شكيب ارسلان

علق الأمير شكيب أرسلان على الجملة القرآنية فقال :

نعم إن وراء الأكمة ما وراءها ، وإن هناك دسائس خفية تظهر بعض أطرافها في هذه الجملة ، ولكن دعني أقول لك إنه ليس مرادهم العدول الى الركاكة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرد كونه فصيحاً . وليس الأمر من قبل ما ذكره أحمد فارس في (الفارياق) من أن بعض خدمة الدين ممن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ ولا هو من نمط ما رواه في (كشف المخبا في فنون أوربا) من أنه كان يعرب التوراة وهو في انكلترا فكان يقف على الترجمة العربية قسيس انجليزي شدا شيئاً من العربية فكان كلما رأى لأحمد فارس جملة شم فيها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة ، فكان الشدياق يعجب من أمره ؛ وقد نقل عنه من هذا النسق جملاً يستغرب لها الإنسان من الضحك إذ كيف كان القسيس يتعمد قلب العالي بالساقط والجيد بالرذل تعمداً ويتهافت على الركيك تهافت الذباب على الحلواء ويصرح بأنه إنما يتوخى بذلك إبعاد الكلام عن شبه القرآن

إن هذه الفئة لا تمج الفصاحة من حيث هي ولا تدين بالركاكة التي كان

---

(١) إن الذين عنوا بنقل العهدين القديم والجديد إلى العربية زمن الدولة العباسية كانوا يختارون لترجمتها أقلاماً بليغة تلبس معانيها ديباجة من القول تليق بأسفار يكثر سواد الناس من تلاوتها ، فتنطبع في ذاكرتهم أساليبها وتتربى ألسنتهم على ملكاتها ولو كان للذين تولوا هذا الأمر في القرنين الأخيرين غيرة اليازجي على هذه الأسفار لكان لهم مثل رغبته في غير ألفاظها ووشي ديباجتها .

يدين بها قسوس أحمد فارس فيسخر بهم ما يسخر ولا تحارب اللغة العربية نفسها ولكنها تحارب منها القرآن .

إن هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الإسلامية وتريد أن تتبدل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتى المخضرمين والمولدين ، وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية وهذه الفئة قد تعددت غاياتها في هذا المنزع ولكن قد اتفقت في الوسائل ، فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحى ولكنه يدس الدسائس من طرف خفي لإقصائه عن دائرة الأدب العربي وتزهيد الناشئة فيه بحجة كونه قديماً وأن كل قديم فهو بال .. حتى إذا تم لهم ما يبغون من غض مكانة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الإسلام طعنة سياسية في أحشائه ، على حين يزعمون أن الموضوع موضوع أدبي لغوي لا مدخل للسياسة فيه فيزلقون بهذه الدعوى المدحاض كثيرين ممن لو تفطنوا لما وراء هذه الدعاية البارزة في زي لغوي أدبي في المآرب السياسية الخبيثة لكانوا منها على حذر بل لانقلبوا عليها وصاروا قرآنيين .

هذه الدسيسة التي ظهر لكم مكنونها جملة واحدة إن هي إلا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود فيها الإسلام لا القرآن من حيث كونه قرآناً ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة .

إن الوجوه الثلاثة متوفرة في السبب ولكن الوجه الأول هو أقواها وأصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الأمة في لغتها وآدابها خدمة لمبادىء الاستعمار الأوربي ومنهم من يشير باستعمال العامية بحجة أنها أقرب الى الأفهام ولكن منهم من لا يحاول هدم الأمة في لغتها وآدابها ، لا حباً باللغة وبالآداب ، ولكن علماً باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم ، ولذلك نرى هؤلاء دعاة إلى اللغة والآداب على شرط ألا يكون ثمة قرآن ولا حديث وأن تكون الصبغة لادينية .

وحجتهم في ذلك حب التجدد وكون القرآن والحديث كلمات السلف من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح العصرية في شيء ، وآخرون حجتهم في ذلك النزعة القومية التي بزعمهم تناقض النزعة الدينية . وهؤلاء يقولون إن الدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان ، فأما إذا سألهم سائل قائلاً : إنكم وأنتم من دعاة التجدد ومن قراء الآداب الأوروبية لا تنكرون أن كتاب أوربا آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية وأن آيات التوراة والإنجيل تدور على ألسنتهم وأقلامهم جارية فيها مجرى الأمثال لا يكاد يخلو منها خطاب ولا كتاب .

وإنما نريد أن نثبت كون التجدد والمعاصرة لم يمنعا بقاء لغات أوربا وآدابها على صيغتها القديمة ومآخذها من التوراة والانجيل ومن شعراء يونان وخطباء رومـــة .

يندر العربي أن لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلماً ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف لأنها هي الطبقة العليا التي يصح أن تكون مثالاً ، ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حرباً وتوري بغيرها ، تبغي نقض قواعد القرآن التي هي السد الأمنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الأجنبية بفروعها ، ويأتي ذلك عن طريق نبذ القديم والبالي والأخذ بالجديد والحـــالي .

ولا يوجد من يتنبهون لذلك ويعلمون مرمى الدعاية بل إن كثيراً من ناشئتنا ومن عامتنا هم من فخ الى فخ . ومن جملة الأشراك أن القرآن حائل دون القومية العربية لا يفسح لها مجالاً ، فتراهم يبيتون له العداوة ؛ وأمراض العقول كثيرة ، ولكن أمراض القلوب هي التي لا حيلة فيها ، وإنما هم يؤثرون الشيء إذا علموا أن بعض الأمم الإفرنجية أخذت به .

٣

حقي المحتسب

(الشبهة الأولى) :

إن اللغة ليست إلاّ مجرد وسيلة للتفاهم وليست غاية في ذاتها .

ونحن لدى إمعان النظر نتبين أن تأييد هذا المستند لدعواهم لا يقوم إلاّ إذا حصرنا الموضوع في حدود ضيقة من الزمان والمكان ، أما إذا نظرنا الى القضية من خلال زوايا متعددة وفي نطاق واسع فسوف نجد أن حجتهم الأساسية يمكن استخدامها لنقض دعوتهم من أساسها ، وبهذا تنقل الحجة من يدهم وتتحول سلاحاً في جانب خصومهم وبذلك تحمل تلك الدعوة في كيانها عوامل موتها وفنائها .

ولكي يظهر لنا ما في حجة أولئك الدعاة من التهافت والتناقض وما في دعوتهم من الخطأ والضرر يجدر بنا أن نلم ببعض خصائص العامة وما يقابلها من خصائص الفصحى واللغات الأخرى ثم نوازن بين هذه الخصائص .

٤

الكلام على بعض خصائص العامية والفصحى واللغات الأخرى :

(ا) إن أبرز ما يلفت نظر الباحث في أحوال اللغة العامية مظاهر اختلافها تبعاً للأمكنة وسرعة تحولها تبعاً للأزمنة .

ذلك لأنها لغة غير مقيدة بأصول مدونة ثابتة مشتركة ، وإنما تخضع في ألفاظها ومصطلحاتها ومدلولاتها وقواعدها لطوارىء الظروف الاعتباطية

والمصادفات العفوية كالتأثر باللغات الأعجمية المتعددة التي صادفتها العربية إبان الفتوحات الإسلامية أو التأثر بلغات الأعاجم الذين سيطروا على البلاد العربية إبان ضعفها أو الذين أتوها مهاجرين من بلادهم الأصلية .

وقد أدى ذلك الاختلاط اللغوي الى فساد السليقة الصافية التي كانت مصونة ضمن الجزيرة العربية قبل مخالطة الأعاجم ، فلما تشوهت تلك السليقة الصحيحة ظهرت العامية تمثل العربية الممسوخة .

وقد نشأ من تفاعل اللغة العربية مع اللغات الأجنبية المتباينة لغات عامية كثيرة العدد متمايزة اللهجات في مختلف الأقطار العربية .

وهذه العاميات لا تختلف بين قطر وقطر فحسب ، بل إنها تختلف في القطر الواحد اختلافاً محلياً من مدينة الى مدينة ومن قرية إلى قرية وقد تتباين الفروق بين اللهجات والمصطلحات العامية تبايناً كبيراً حتى إذا التقى الرجلان العاميان من بيئتين عربيتين مختلفتين تعذر عليهما التفاهم في حديثهما .

(ب) وكما تختلف العامية بحسب المكان تختلف كذلك في المكان الواحد بحسب الزمان فليست المصطلحات العامية التي يألفها اليوم عوام دمشق مثلا هي في جملتها المصطلحات التي كانت معروفة لديهم قبل حين من الزمن ولن تدوم هي نفسها بعد حين .

فالعامية في تغير مستمر سريع نسبياً ، ولكن إلى أين يتجه هذا التغير ! إن هذه اللغات تولدت تدريجياً من أم واحدة ، أخذت كل منها تتجه نحو الاستقلال بنفسها وتكوين شخصية لها قائمة بذاتها لها خصائصها ومميزاتها ، وستكون كل لغة منها بالنسبة للأخرى كأنها لغة أجنبية خاصة . كما هي الحال مثلاً في اللغات اللاتينية التي انحدرت من أصل واحد وتفرعت في بيئات أوربية مختلفة حيث استقلت عن أصلها بالتدريج كما استقل بعضها عن بعض فغدت كل منها لغة أجنبية بالنسبة لسائر أخواتها وأمها .

وليس معنى ذلك أن تلك اللغات الفرعية قد وصلت في وضعها الراهن الى طور نهائي ثابت لا يتغير بعده ، بل إنها لا تزال تتغير ألفاظها ومفاهيمها ومصطلحاتها وقواعدها جيلاً بعد جيل حتى انه ليتعذر على أهل الجيل الحديث منهم أن يفهموا آثار كتابهم وشعرائهم المتقدمين إلاّ بعد الاستعانة بالمفاهيم التاريخية وترجمة النصوص الأدبية والفلسفية والعلمية من لغتها القديمة الى لغتها الحديثة .

(ج) وإذا أردنا الموازنة بين مميزات اللغة العربية واللغات الأجنبية نلحظ أن العربية تتميز بوضع خاص دون سائر اللغات في العالم .

* * *

والآن نتساءل :

ما هي النتائج الحسنة والسيئة التي تنجم عن استعمال العامية للتأليف والكتابة وهل تكون مشكلة اللغة قد انحلت نهائياً بهذا الاستبدال . وما مقدار النسبة بين الربح والخسارة لدى احتلال العامية مكان الفصحى ، ومن يكون الرابح الحقيقي أخيراً من هذا الاحتلال .

والإجابة :

(أولاً) : اتخاذ اللغة العامية للحديث والكتابة يتيح التفاهم موقتاً في بيئة محدودة وزمان محدد .

(ثانياً) : إن التفاهم في البيئات العربية المختلفة يحتاج في المستقبل الى تأليف معاجم للغات العامية كما هي الحال في اللغات الأجنبية . وإذا أراد الرجل العربي في مقتبل الأيام أن يقرأ صحيفة أو كتاباً صادرين من غير بيئته وجب عليه الاستعانة بالمعجم لترجمة اللغة العامية الأجنبية الى اللغة العامية المحلية وهو بحاجة الى عدد من المعاجم يساوي عدد اللغات العامية التي يترجم منها وإليها .

(ثالثاً) : بما أن كل لغة : عامية ثابتة في أوضاعها فهي في حاجة الى معجم تاريخي خاص بها يبين تغير معاني ألفاظها ومصطلحاتها وقواعدها بحسب الزمن كي يستطيع الخلف أن يفهم ما كتب السلف ويترجم لغة آبائه العامية الى لغة العصر الذي يعيش فيه ، وبغير هذه الترجمة لا تتصل الوحدة الفكرية بين الأجيال المتعاقبة .

وكذلك الأمر في اللغات الأجنبية الحية في عصرنا الحاضر ، تلك اللغات التي ليس لها مرجع ثابت يصونها من التغير والاختلاف . قال أحد المستشرقين الألمان : إن اللغة العربية تتميز على سائر اللغات بثبات عجيب لا مثيل له في غيرها ، فهي خير وعاء لحفظ الفكر على مر الزمن دون أن يتشوه بالترجمات المتوالية وينااله التحريف .

ولذلك يدعو قومه الى استخدام العربية لتدوين الآثار الفكرية التي تبنى عليها الحضارة وتستحق الخلود .

(رابعاً) : إن الأخذ باللغة العامية يقطع حاضر العرب ومستقبلهم عن ماضيهم ، فلا يمكن الأجيال القادمة أن تتفهم تراث الماضي المدون باللغة الفصحى إلاّ إذا نقل هذا التراث الى مختلف اللغات العامية ، على أن ذلك النقل يتطلب من الأوقات والجهود والنفقات ما لا قبل لأحد به ولا سيما إذا علمنا أن التراث الإسلامي العربي ضخم جداً لأنه نتاج أربعة عشر قرناً في ظلال امبراطورية واسعة الأرجاء .

ثم لنر اذا تم النقل من العربية الفصحى الى اللغات العامية برغم العقبات الاقتصادية والعلمية والفنية والزمنية التي تعترض سبيله .

— نرى أن ذلك النقل يحتاج إلى تجديد في كل وقت تأخذ فيه اللغات العامية طوراً جديداً مما يستلزم العودة الى بذل الأموال والجهود والأوقات عند كل نقل حديث .

وتلك خسارة لا بد من تكرارها للإبقاء على الاتصال الفكري مستمراً بين حلقات الأجيال .

والنقل المتكرر لا بد أن يشوه روح النصوص ، ويبعدها بالتدريج عن أصلها الصحيح ؛ فإذا أراد الدارس أن يتأكد من صحة النقل فلا مناص له من الرجوع الى الأصل أو الأصول المنقول عنها يدرسها بلغاتها العامية القديمة .

(خامساً) : لم تبلغ العامية من النضج والضبط والإحكام مستوى اللغة الفصيحة ، ولا يمكن أن نعدها لغة علم وفكر ، وإنما هي لغة بدائية (خام) بعيدة عن الصقل ، وذلك لأنها لم تتمرن على النهوض بأعباء الحياة العملية والفكرية بينما كانت (الفصحى) حاملة رسالة العلم والأدب والفلسفة أعقاباً طويلة فاكتسبت من ذلك صقلاً ومرونة وتجاوباً مع الفكر والشعور في مظهرها الرفيـــع .

فالعامية أعجز من أن تقفز الى المستوى الذي تحتله الفصحى منذ دهر طويل ؛ زد على ذلك أن العامية لا مناص لها من الانحصار في بيئة ضيقة محلية فلن يتاح لها ما أتيح للعربية من الرقي والنضوج في شيوعها إذ إن شيوع العقيدة الإسلامية كان سبباً في شيوع العربية التي تحمل العقيدة فاشترك في الإنتاج بلغتها أمم مختلفة ، وهذا الشيوع اللغوي أدى الى زيادة طواعية اللغة ومرونتها للتعبير عن كل مطالب الفكر الإنساني .

فقد هضمت اللغة العربية إبان الازدهار كل ما أمدتها به الحضارات الأخرى من آثار العلم والأدب والفلسفة فأحاطت بها إحاطة محكمة ، وعبرت بطلاقة وبراعة عن كل مطالب الحياة المادية والنفسية والروحية .

وبالجملة فإن مزايا العربية (١) المرونة العجيبة ومطاوعة الاشتقاق وقابلية الحياة . (٢) القدرة على مجاراة كل ظرف . (٣) ملابسة كل زمان ومكان .

(سادساً) : قد تكون في العربية بعض المصاعب التي لا تخلو منها لغة

من اللغات الأخرى ، بل إن بعض اللغات الحية الغربية تعاني من المصاعب في اضطراب القواعد وكثرة الشذوذ وفوضى الإملاء مالا نجده في العربية . ومع ذلك لم نسمع تلك الأمم التي تخدم قوميتها تضج بالشكوى والتذمر والثورة على لغتها القومية .

إن كثيراً من الصعاب التي تصادف المبتدىء في تعلم العربية ترجع الى فساد الطرائق المتبعة في التعليم وعدم التبسيط في كليات شاملة مضطردة ، أما الصعوبة الناجمة عن نقص اللغات في المسميات الحديثة فهذا أمر يمكن تداركه ، وليس هو نقصاً في جوهر اللغة : ولكنه « عرض » وشقة الخلاف بين العامية والفصحى تأخذ بالضيق بقدر ما تنتشر الثقافة بين أفراد الأمة فتقرب العامية من أصلها العربي وليست الفصاحة تناقض معنى السهولة والبساطة .

ولا ينبغي أن يحملنا التساهل الى درجة التفريط في اللغة والأخذ بالنظرية المتطرفة القائلة : (الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور) .

والخلاصة :

(١) إن العامية لا يمكنها أن تحقق « التفاهم » الذي هو الغرض من اللغة بل إنها تحول دون التفاهم بين أبناء الأقطار العربية أو أبناء القطر الواحد : والتفاهم بين أهالي الأقطار حجة للغة لا للعامية .

(٢) ليس في اتخاذ العامية توفير للوقت والجهد كما يتوهمون إذ يضطر الناس في المستقبل الى دراسة أطوار العامية لكي يفهموا النصوص المكتوبة في عهد سابق ، كما يضطرون الى دراسة العاميات المجاورة لهم كما ندرس نحن اليوم اللغات الأجنبية .

وتشمل مكان دراسة قواعد اللغة الفصيحة الواحدة ، دراسة قواعد العاميات المتعددة ، وبذلك تزداد الدراسة اللغوية تعقيداً وارتباكاً وصعوبة من حيث يظن التسهيل وتوفير الوقت والجهد .

(٣) إن فضل اللغة الفصحى وأياديها البيضاء على الحضارة العربية والثقافة البشرية خلال ما تنتج مجيد مما يجعل العامية أضأل شأناً من أن تقاس إلى الفصحى ، وإن المزايا اللغوية التي تتمتع بها العربية لا يمكن أن تقاس بها مزايا العامية .

(٤) إن وراء هذه الدعوة خطراً وضرراً على الأمة العربيه هو أنها تؤدي الى إضعاف أواصر الوحدة القومية بين أجزاء الوطن العربي ، كما تؤدي الى إضعاف الوحدة الروحية بين أتباع العقيدة الإسلامية .

وهذا التهديم في القومية والعقيدة هو ما يهدف إليه شياطين الاستعمار من وراء مؤامراتهم ودعواتهم المدسوسة يؤازرهم في ذلك أعوانهم من المبشرين والمستشرقين والإرساليات والمنظمات الثقافية ، ينفثون سمومهم في النفوس البريئة باسم العلم والإصلاح فيصرفون الناشئة عن التمسك بكل ما من شأنه أن يضعف سيطرة الاستعمار الثقافي والاقتصادي في البلاد التي يطمع المستعمرون في إخضاعها لنفوذهم .

وإن رواج هذه الدعوات السامة ربح كبير لأعداء العروبة والإسلام وخسارة فادحة على العرب والمسلمين .

(٥) لقد وجدنا للعربية وصفاً خاصاً يميزها عن سائر لغات العالم قديمها وحديثها ، وهذا الوضع المتميز قد أحنق المستعمرين وغاظهم وجعلهم ينقبون في ابتكار وسيلة لتهديمه وتحطيمه .

(٦) إن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم ، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة في سالف العصور ، إلاّ العربية فسوف تبقى بمنجاة من هذا الموت وستبقى حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر . ولا غرو فإنها متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية ، فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الحصين

والملجأ الثابت الأمين الذي تحتمي به اللغة العربية ، ويصون وحدتها ويجعلها تقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ودسائسها الهدامة .

إنه الكتاب الأول للعربية والعروبة ، كما أنه الكتاب الأول للرسالة الإنسانية الخالدة التي حملت أمانتها العربية والعروبة(١) .

٤

دكتور محمد محمد حسين : مجامع اللغة وحربها للفصحى ودعوة طه حسين

لقد تشكلت مجامع اللغة في مواجهة التحديات التي بدأها أنصار العامية سواء من المستشرقين أم من أتباعهم ، ولكن مع الأسف استطاع خصوم اللغة العربية أن يثبتوا إلى هذه المجامع وأن يسيطروا عليها ، وأبرز خصوم العربية طه حسين ، أحمد لطفي السيد ، عبد العزيز فهمي وأمين الخولي ، كانوا من أبرز رجال هذه المجامع وتولى بعضهم شؤون الرئاسة سنوات طويلة .

وقد كشف الدكتور محمد محمد حسين مخططات مجامع اللغة وكيف أنها تابعت الدعوة إلى العامية حين عرض لمؤتمر المجامع الذي عقد في دمشق وأشار إلى أن هناك عدداً من الموضوعات التي طرحت كان كلها يجري في اتجاه (١) الدعوة إلى العامية .

(٢) تبديل الخط العربي .

(٣) وقواعد النحو والصرف والبلاغة .

وأهمها مقال أحمد حسن الزيات (مصر) وعلي حسن (الأردن) وأحمد عبد العليم (تونس) واقتراح إبراهيم مصطفى في كتابه الهمزة والألف اللينة

---

(١) المعلم العربي ، آذار ١٩٥٤ .

ومبحث طه حسين عن تسيير القواعد في اللغة ومنير العجلاني في أثر اللغة في وحدة الأمة .

وقد رفض المؤتمر الأخذ بشيء من هذه الآراء المعوجة والدعوات الشعبية فقد دعا الزيات إلى تسهيل وتطوير الفصحى حتى تقترب من العامية والشروع في دراسة عاميات الأقطار العربية المختلفة لإقرار ما هو مشترك منها وإباحة استعمال المولّد . ودعا إلى تقريب الخلاف بين العامية والفصحى بفتح باب الوضع .

ونقد ما قدمه أنيس فريحة في محاضراته عن اللهجات وأسلوب دراستها وقال إنه يفكر للغة العربية باللغة الإنجليزية ، ويريد أن يلبس لغتنا أثواباً لم تجعل لها . وقال : إن منير العجلاني لا يعرف أن الإسلام رحم وصلة بين المسلمين وأنه جامعة من أوثق الجامعات ، لأنه يجري في تعريف القومية العربية على قياسها بمقاييس أوربا اللاتينية التي روجها اليهود منذ الثورة الفرنسية اليهودية . وذلك حين يقول (أي العجلاني) :

كان الدين في العصور الوسطى يجمع الشعوب ويفرقها ولكن أثره في تكوين الأمم تضاءل في الزمن الحاضر وربما أسقطه غلاة القومية من حسابهم .

يقول الدكتور حسين : هذا في الغرب ، أما في الشرق العربي فالدين أوسع أفقاً من مدلوله في الغرب ، والعروبة أكثر تعاوناً مع الاسلام في ماضيها وحاضرها .

ويقول : إن تعبير العصور الوسطى تعبير أوربي يقترن في أذهان أصحابه بالتخلف والهمجية لأنه يقترن بالظلام والنظام الإقطاعي وبالرق وباستبداد الكنيسة وطغيانها . فالعصور الوسطى تقابل عندنا عصر الرسالة المحمدية وأزهى عصور الإسلام وهو بالقياس إلى العربي وإلى المسلم : عصر النور والمجد والعدل .

ويقول في الإشارة إلى إبراهيم مصطفى :

إنه ألف منذ عشرين عاماً كتاباً ميتاً في النحو سماه (إحياء النحو) وإن طه حسين ألقى محاضرة دعا فيها إلى العدول عن قواعد النحو الثابتة المتدارسة التي اجتمع عليها العرب والمسلمون زاعماً أنها لم تعد صالحة وأنها هي السبب في ضعف الطلاب وتخلفهم .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : إنهم يعتمدون دائماً على أن الناس إذا تكرر سماعهم للباطل أو شكوا أن يصدقوه، فهم يكررون القول حيناً بعد حين وفترة بعد فترة ولا ينضب لهم معين في إلباس مقالهم أليق الأثواب بالمقام وعرضه من جوانب جديدة تقربه من نفوس الناس ، وهم لا يسأمون من هذا التكرار لأنهم يعرفون أنهم يخاطبون في كل مرة جيلاً جديداً غير الذي سمعهم من قبل ، وقد ينجحون في إغواء بعض من ضاقت عنه حيلهم من قبل . وهم يعتمدون في ذلك كله على أفراد عصابتهم ممن وصلوا إلى مراكز تسمح لهم بمد يد العون في ترويج هذه الدعاوى وفي وضعها موضع التنفيذ ، وفيهم من يشغل مراكز خطيرة تسمح لهم بالسيطرة على الصحافة والإذاعة ووزارات التعليم والجامعات . لذلك كان فرضاً لازماً على كل عارف بحيلهم أن لا يمل من تكرار الرد عليهم ركوناً إلى أنه قد أذاع الرد من قبل حتى لا تنفرد دعاياتهم المفسدة بالشباب فتستأثر به ثم لا تجد من يصححها وينتشله من تيارها ويبطل فعل سمومها .

ومن ذلك دعوة مجامع اللغة العربية ومجمع القاهرة منها خاصة . .

هذه الدعوات المريبة إلى تطوير اللغة وقواعدها ورسمها . وهو تطوير يختلف أصحابه في تسميته ولكنهم لا يختلفون في حقيقته فهم يسمونه : (تهذيب — تيسير — إصلاح — تجديد) .

وهم يعنون شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين والأصول التي صانت

اللغة خلال خمسة عشر قرناً ، فضمنت لجيلنا وللأجيال المقبلة أن تسرح وتمرح في معارض فنون القول وآثار العبقريات الفنية والعقلية .

فإذا تحللنا من هذه القوانين والأصول التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة تبلبلت الألسن وأضاف كل يوم جديد ، مسافة جديدة توسع الخلف بين المختلفين ، حتى يصبح بين الشامي والمغربي ما بين الإيطالي والإسباني . وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي والإسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دراسة الآثار ومفسري الطلاسم . وعندئذ يصبح كل جهد سياسي أو حربي أو أدبي مما يبذل اليوم في جمع شمل العرب وتدعيم القومية عبثاً لا طائل تحته .

ليس (الخطر) في الدعوة إلى العامية ولا في الدعوة الى الحروف اللاتينية ولا إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب أو إسقاط نحوها .

ليس لهم خطر العتاة ممن يعرفون كيف يخدعون الصيد بإخفاء الشراك . إن الخطر الحقيقي هو في الدعوات التي يتولاها خبثاء الهدامين ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويصوغونها في أحب الصور إلى الناس ولا يطمعون في كسب عاجل ولا يطلبون انقلاباً كاملاً سريعاً .

الخطر الحقيقي هو في قبول (مبدأ التطوير) نفسه ، لأن التسليم به والأخذ فيه لا ينتهي إلى حد معين أو مدى معروف يقف عنده المتطورون ولا ريب أن التزحزح عن الحق كا لتفريط في العرض .

يقول طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة .

« وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون وليست أقل منا إيثاراً لدينها ولا احتفاظاً به ولا حرصاً عليه ولكنها تقبل من غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي بها صلواتها.

« فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث والسريانية هي لغة الدينية لفريق رابع » .

وليس هذا الكلام من صنع طه حسين ، فهو ترديد لما قاله القاضي الانجليزي (ولمور) من قبل في كتابه :

(The spoken Arabic of Egypt)

طه حسين : وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي اللغة العربية ومن المحقق أنها ليست أقل منها إيماناً بالإسلام وإكباراً له وذياداً عنه وحرصاً عليه » .

الدكتور محمد حسين : إذا وعى القارىء هذا القول وما وراءه فليلق بكل ما سواه بوجه صاحبه لأنه ضرب من النفاق وأسلوب من الكيد .

« على أن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم يكن في يوم من الأيام داعياً إلى تحجر اللغة وجمود مذاهب الفن فيها ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة » .

فليس التطور نفسه هو المحظور ، ولكن المحظور هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة ، وذلك يشبه تقيد الناس في حياتهم الاجتماعية بقوانين الدين والأخلاق ، فليس ذلك يعني أنهم قد استعبدوا بهذه القوانين ، أو أنها قد أصبحت تحول بينهم وبين مسايرة الحياة .

كذلك اللغة: وضع اللغويون والنحاة والبلاغيون لها حدوداً طابقوا بها مذهب القرآن وكلام العرب ، وتركوا للناس بعد ذلك أن يستحدثوا ما شاؤوا من أساليب وأن يتصرفوا فيما أرادوا من أغراض . ولكن ذلك لا ينبغي أن يخرج بهم عن الحدود المرسومة . وهل عاق ذلك عرب بغداد أو عرب الأندلس عن الافتنان في القول وفي مذاهب الفن ، وهل ضاقت عربية البدو عن الاتساع لما نقل العرب وما استحدثوا من معارف وعلوم .

إن من أعجب العجب أن يعين في مركز القيادة في ذلك الحصن (المجمع) رجل يشهد ماضيه الثابت المسجل فيما نشر على الناس من صحف أنه كان حرباً على الجامعة الإسلامية وعلى الجامعة العربية لايراهما إلاّ وهماً من الأوهام ، وأنه كان أول من رفع صوته بالدعوة إلى تمصير اللغة العربية .

ولقد أخطأ علي حسن في القول بتوحيد العامية والفصحى وجعلهما لغة واحدة ، ليس مطلوباً أن تصبح لغة الحديث ، والأسواق والتعامل بين الناس هي نفسها لغة الشعر والأدب والعلم (١) .

تطوير اللغة يجب أن يكون بالقدر الذي لا يقطع صلتنا بالماضي ، وبالقدر الذي لا يخشى معه أن يتطور إلى قطع صلة الأجيال المقبلة بالجيل الماضي بحيث يتحول قرآننا وحديث نبينا وفقه فقهائنا إلى طلسم لا يقرؤه إلا طيقة من الكهان يحتكرون تفسير الإسلام .

إلى الدكتور طه حسين

وطه حسين يذهب إلى أن هناك خطراً على العربية الفصحى أن يهجرها الناس إلى العامية إذا لم تخضع لما يريدون من تطور .

(وهو نفس التهديد الذي هدد به من قبل لطفي السيد) وما أظن أن أحداً سيخدع بما يبدو في ظاهر قوله (طه حسين) من البراءة حين يتظاهر بأنه معارض في استعمال اللغة العامية للكتابة الأدبية وحين يشترط في المعاجم المقترحة أن لا تتضمن إلا الألفاظ العربية الفصيحة . فالمهم أن معاجم اللغة العربية سوف تختلف باختلاف بلاد العرب وأقطارهم ، وأن المعجم التونسي المصري ، الشامي ، الحجازي ، سوف تصبح حقيقة واقعة ، هذه المعاجم

(١) يراجع م ٣٠ ، مجلة الأزهر ص ٢٥٥ .

نفسها سوف تصبح بدورها موضع تنقيح وتغيير ، وسوف تنأى في كل تنقيح جديد عن أصلها الأول ، حين يتناكر المتعارف ويتفرق المجمعون ثم لا يرجى لصدعهم رأب .

هذا هو المصير المظلم لدعوة خلابة براقة بريئة الظاهر إلى دراسة اللهجات والعناية بما يسمونه (تمويهاً على الشعوب) بالآداب الشعبية .

وقد اعتمد طه حسين على هذا الأسلوب نفسه في الدعوة إلى تبديل النحو والخط حين قال :

(إن أبينا إلا أن نمضي كما كان النحو وكما كانت الكتابة فلا بد أن تنشأ عن هذه اللغة العربية الفصحى القديمة لغات مختلفة كما نشأت الفرنسية والإيطالية والبرتغالية عن اللغة اللاتينية القديمة) .

ويخدع الناس حين يقول :

(وبعد فلا أدعو أن تهجروا القديم مطلقاً ، ولكن لماذا لا يكون النحو والبلاغة كله متطوراً كما تطورت اللغة يحفظ قديمه لدرس المتخصصين في الجامعات والمعاهد ويبيح للملايين البائسة من الشباب أن يتعلموا تعليماً قريباً سهلاً .

(ثم عرض الدكتور محمد حسين إلى أبعاد دعوة التطوير في العادات والتقاليد والزي والمثل والشريعة وقال :

من أجال النظر في هذا كله وقرن بعضه إلى بعض عرف أن أصل هذه الفروع واحد ، وأن روح الدعوة فيها واحدة جميعاً ، وأن أصحابها لا يقنعون إلا بقطع كل ما يربطنا بإسلامنا وعروبتنا وشرقيتنا من وشائج وصلات. عندئذ نفقد طابعنا الذي يميزنا بوصفنا جماعة أو قوماً أو أمة ، وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كتابنا وفقدنا القدرة على التكتل والتجمع ، وأصبح من اليسير على الشرق أو الغرب أو كائناً من كان من خلق الله أن يلحقنا به ويجعلنا تابعين له ندور في فلكه ونسبح بحمده من دون الله .

والقائمون على ترويج هذه الدعوات كالجراثيم تكمن حين تأنس في الجسم السليم مقاومة ولكنها تتحين حتى تجد فرصة أخرى ملائمة للظهور فتثور .

فإذا نظرنا إلى مصدر الدعوة وكيف بدأت عرفنا أن الدعوة لم تنشأ إلاّ في ظل استعباد الغرب لبلاد العرب والمسلمين وفي حمايته من ناحية وفي حضانة التبشير من ناحية أخرى . سبيتا ، فولار ، فاول ، فبلوت ، بوريان ، ماسبيرو الذين قادوا هذه الدعوة في مصر منذ ١٨٨٠ فظهر صداها في صحيفة المقتطف الشهرية أولاً ١٨٨٢ ثم اتصل إلى بقية السماسرة ومنهم فارس نمر : وكان المستر سمارت مستشار السفارة الانجليزية زوجاً لابنته .

جميع هؤلاء المؤلفين ، وكلهم ممن شغل وظائف عامة في ظل الاحتلال طائفة من الحكايات المتداولة بين طبقات العمال الكادحين في مصر ونادوا باتخاذ اللهجة التي كتبت بها هذه الآثار لغة للتدوين والتأليف والأدب الرفيع ووضع بعضهم كتباً استنبط منها قواعد للهجة المصرية العامية واقتصر معظمهم على لهجة القاهرة محاولاً إقناع المصريين بأن لهجتهم هذه لها كل مقومات اللغة الراقية .

ولاك كلامهم بعد ذلك كل بوق وكل سمسار وكل فاسد العقيدة مزعزع الإيمان : لطفي السيد وطه حسين ليس لهما فكرة جديدة فكل ما قالوه ويقولونه ترديد لما قاله هؤلاء حتى أن الذين أكثروا من الكلام فأسموه الأدب والشعر وادعوا أنهم جمعوا منه ما جمعوا لم يكونوا إلاّ ناقلين لما جمعه أمثال ماسبيرو وبوريان، بل لقد اعتمدوا عليهم في تصنيف ما جمعوه وفي ترتيبه وتبويبه .

٥

عمر فروخ : الفصحى ولبنان

أراد الاستعمار منذ مطلع هذا القرن تحطيم وحدة العرب فحاول أن يطل على ذلك من ثغرة في لغتهم وقوميتهم ، فبعث الأشورية في العراق والفرعونية في مصر والبربرية في المغرب ، ولكن الأحداث في تلك البلاد والوعي في أهلها قضت على جميع الدسائس في مهدها .

ومنذ أيام الانتداب الفرنسي على لبنان نشأت ناشئة التدوين للعامية . ثم توسعت المطامع إلى جعل هذا التدوين بالحرف الفرنسي ، ثم خمدت هذه الدعوة زمناً ، ثم عادت إلى الهبوب ثم خمدت من جديد ، ومنذ عام ١٩٥٨ عادت هذه الدعوة إلى رفع رأسها .

إن عدداً من الشعوب الأوربية كانت معذورة لما دونت لهجاتها العامية بالحرف اللاتيني ذلك لأنه لم يكن لها قبل ذلك لغة مدونة ولا أحرف تكتب بها وكذلك كان قد نشأ في بلاد تلك الشعوب قبل ذلك شقاق ديني ونزاع سياسي أديا حقاً أو باطلاً إلى الانفصال لغوياً وأدبياً عن شعوب كان لها على البلاد التي اتخذت لغات جديدة بأحرف جديدة سيطرة وعسف ، أما نحن اليوم فلسنا من ذلك في شيء ، إننا نتمتع بلغة من أرقى اللغات وأوسعها ، وبأدب من أروع الآداب وأقدمها وبحرف من أجمل الأحرف في كل شيء .

ودعاة العامية والحرف اللاتيني يزعمون أن العامية والحرف اللاتيني أهون تعلماً . من قال لهم إن اللغة العربية أصعب من الألمانية والنروجية والأسوجية والروسية والبولونية . من ذا الذي قال لهم إن اللغة العربية أصعب من الانجليزية في هجائها ، من قال لهم إن الخط العربي أصعب من الخط النروجي ، حتى لا نذكر الخط الياباني والصيني .

إذا لم يكن للغة العربية والخط العربي من فضل سوى أنهما يجمعان العرب من أقصى الشرق الأدنى إلى أقصى المغرب الأقصى لكان ذلك منهما كافياً ، ولكانت كل صعوبة فيهما — إن صح أن فيهما من الصعوبة ذلك القدر الذي يتوهمه دعاة العامية والحرف اللاتيني — محتملة .

ولكن هؤلاء لا يكرهون من اللغة الفصحى ومن الخط العربي إلاّ هذا العامل الجامع الوحيد إني أعجب من الذين يدرسون اللغات الميتة من العبرية القديمة والسريانية ثم يريدون أن يميتوا لغة حية كالعربية الفصحى . تلك أمانيهم ، ولكن للكائنات الحية من البشر واللغات والحركات قوانين تشبه أن تكون طبيعية ، وهذه القوانين تعمل ولكن لا تخضع لأماني الافراد ولا لأماني الجماعات .

أما أغرب ما يمكن أن يمر في تاريخ أمة من الأمم ، فهو أن يكون في بلادنا دعاة إلى العروبة ثم ينشأ في بلادنا نفر يحاربون اللغة العربية ويدعون إلى الحرف اللاتيني فلا يحرك أولئك الدعاة إلى العربية والقومية ساكناً ، بل هناك ما هو أشد غرابة ، هو أن أحد هؤلاء الدعاة كان يتولى معهداً للدراسات العالية فدعا أحد أولئك النفر إلى إلقاء محاضرات في اللغة العامية ، لا محاضرات بحث وعلم ، بل محاضرات هي في واقعها دعوة سافرة إلى اللهجات العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني. إن الدفاع عن اللغة دفاع عن الأمة التي تتكلم تلك اللغة.

أما من الناحية العملية فإن تدوين اللهجات العامية بالحرف اللاتيني قد أدى إلى تعقيد في اللغات الأوربية لا يرجى معه إصلاح ، وكلما استأنف أهل تلك اللغات الإصلاح للنحو والصرف أو للتهجية زاد التعقيد في لغاتهم حدة . في اللغة العربية ثلاثة مدود تأتي طويلة (ا ، و — ي)

وتأتي قصيرة ـُـ ، ـَـ ، ـِـ .

أما إذا اجتمع بعضها مع بعض فإن الحرف الأول منها يعامل معاملة

الحرف الساكن في نحو (أي ، أو يا) ينطوي الخ .

وهذه لا تحتاج في اللغة العربية إلى قاعدة ولا إلى ملاحظة على أن الألف تأتي مرققة بعد أحرف معينة من أحرف الأبجدية أو مضخمة بعد الأحرف الباقية من الأبجدية .

ولا نرى قاعدة الترقيق والتضخيم هذه تخل بحال من الأحوال . أما في اللغات الأوربية فإن التهجئة في الانجليزية مثلاً لا تجري على قاعدة معينة . وندرك ما في التهجئة الفرنسية من الشذوذ هذا فضلاً عن الأحرف الخرس في اللغتين ، تلك التي تكتب ولا تلفظ ، ومع ذلك فإن اللغتين الفرنسية والانجليزية تعدان في هذا الباب لغتين قياسيتين بالإضافة إلى الأسوجية والنروجية والبرتغالية.

* * *

إننا نحن العرب قد كفينا هذا السوء بما قام به أسلافنا من ضبط لغتنا ضبطاً محكماً دقيقاً ، أنا لا أنكر أن اللغة العربية تحتاج إلى جهد في إتقانها ولكن الجهد الذي تحتاج إليه في ذلك لا يكاد يعد شيئاً بالإضافة إلى الجهد الذي تحتاجه أهون اللغات في الغرب .

ويحسن أن نعلم هنا أن اللغة الإفرنسية الدائرة بين المثقفين هي لهجة أهل باريس ، وأن لهجة ابن مرسيليا ولهجة ابن الالزاس ولهجة ابن بريتاني ولهجة ابن المقاطعات الشمالية الغربية تختلف كلها عن لهجة ابن باريس ، ويختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً حتى أنها لا تعد في اللهجات المتآخية بل في اللغات المتباعدة ، وهذا أمر طبيعي في الحياة اللغوية .

يقول العالم اللغوي أنطون مايه في كتابه :

Méthode Comparative

« إن أبرز ما يسترعي الانتباه هو ذلك الذي يعترضنا في كل مكان في

أوربا تقريباً . إن في كل منطقة مجموعاً من اللهجات المحلية ترجع إلى أصل واحد ثم لغة مكتوبة : هي لغة الحضارة تصلح لجميع أوجه الاستعمال العامة فيما يتعلق بمجموع البلاد (التي تتكلم تلك اللغة) ثم هي لغة الحكومة (الرسمية) ولغة المدرسة ولغة الدواوين (الحكومية) ولغة الصحافة الخ .

وفي مثل هذه الأحوال يكون للغة المكتوبة أثر بالغ في اللهجات المحلية » .

إن العالم اللغوي الفرنسي يعد من الطبيعي ومن حسن الحظ أيضاً أن يكون لكل منطقة لغة مكتوبة بينما نحن العرب نكتب ونقرأ ونتفاهم كلنا من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي بلغة واحدة ، ولقد مكننا الإسلام من أن نتفاهم مع عدد كبير من المسلمين من غير العرب في الصين وتركستان والهند وباكستان والأفغان وإيران وتركية والبلقان وفي الملايو وأندونيسية وسيلان ثم في أواسط أفريقية : في السنغال ومالي وغينيا وغانة — ونيجيريا وما حولها .

ولكن بينما نجد العالم متجهاً إلى التوحيد في السوق الأوربية وفي الأمم المتحدة وفي البحث عن لغة تاريخية أو مصنوعة يتفاهم بها أكبر عدد من البشر ، نجد نفراً يعيشون بيننا وهم منا ، يريدون أن يخرقوا الوحدة التي صنعتها لنا اللغة العربية الفصحى .

ليست المعركة بين العامية والفصحى أول معركة تعرضت لها العروبة ، ولا هي آخر معركة ستخرج العروبة منها ظافرة ، إن الثقة بالظفر آتية من أننا نعلم أن المعركة تدور على أرض العرب ، ولكن أركان حربها يقبعون في عواصم الدول المستعمرة في وشنطن ولندن وباريس .

* * *

إن سبب الخيبة في الدعوة إلى حلول اللهجات مكان اللغة العربية الفصحى يرجع إلى جهل الداعين عدداً من الحقائق في تاريخ اللغة العربية وفي تاريخ اللغات الأجنبية أو إلى تجاهل ذلك على الأصح .

إن نشأة اللغات الأوربية الحديثة مرتبط إلى حد بعيد بنقل التوراة والإنجيل من اللغة اللاتينية إلى اللهجات التي كانت سائدة في الأقطار الأوربية المختلفة . كذلك كانت نشأة اللغة الإيطالية والألمانية والاسوجية والنروجية . وكذلك تبدلت لغات كثيرة بعد هذا النقل كثيراً أو قليلاً . ونسي الداعون إلى اللهجات العربية أن مثل هذا الأثر قديم في اللغة العربية وأن التاريخ لا يعيد نفسه بالمعنى الذي يتخيلونه ، وأن العرب قبل الإسلام مروا بمثل هذا الدور المحزن ثم رأب الله الصدع وجمع الشمل ورد العرب إخواناً ومواطنين إن فرقت الحدود المصطنعة أجسامهم فإنها لم تفرق قلوبهم .

٦

دكتور علي عبد الواحد وافي : العامية في الكتابة في مواجهة لويس عوض

التفريط في جنب العربية الفصحى :

لقد كانت الفصحى موضع إهمال كبير طوال الفترة التي كانت الانجليز في أثنائها مشرفين على شؤون مناهجنا الدراسية . وضع هذه الأسس مفتش إنجليزي يدعى دنلوب كان يعمل حينئذ مستشاراً في نظاره المعارف المصرية وكان مسيطراً على شؤون التعليم في مصر ، ثم تولى هذه الشؤون من بعده ومن بعد خلفائه من الانجليز ثلة من المصريين نشئت في هذه المدارس وتعهدها الإنجليز وصنعوها على أعينهم وأعدوها لتكون حرباً على الثقافة العربية الإسلامية ، وكانوا يزهون بأنهم يلوون ألسنتهم برطانة أسيادهم الإنجليز . وخلف من بعد هذه الثلة خلف تربى على يديها وترسم خطاها ، ونظر هؤلاء وأولئك إلى هذه السياسة الفاسدة التي وضعها (دنلوب) نظرة إجلال وتقديس ولم يحاولوا أن يغيروا شيئاً من الأسس القائمة عليها ولا من الأغراض التي تستهدفها. ولا من المناهج الجوهرية التي سنتها وإنما داروا في فلكها وانصرفت

جهودهم إلى عبث من التغييرات السطحية التي لا تمس الجوهر في شيء . وكانت العربية أهم هدف سددت إليه سهام السياسة الخبيثة فعملوا على إضعاف هذه اللغة في المدارس المصرية والحط من شأنها .

وكانت كلمة (خوجه) عربي تعتبر قريبة من كلمات الشتائم والسباب وكانت معظم الروايات الهزلية تدور حول السخرية بمدرس اللغة العربية .

* * *

ويقترح البعض أن يهبط بلغة الكتابة والآداب إلى لغة الحديث فيستخدم العامية في الشؤون التي تستخدم فيها الآن العربية الفصحى ، ويقضي بذلك على هذا التعدد في أداة التفاهم .

وكان من المنظرين لهذا المذهب الكونت كولودي لندنبرج الأسوجي في تقريره الذي تلاه في مجمع اللغويين في مدينة ليدن ١٨٨٣ .

واللورد دوفرن السياسي الإنجليزي في تقريره الذي رفعه إلى وزير خارجية انجلترا بشأن لهجة مصر العامية ومن هؤلاء ولهلهم سبيتا الألماني (أمين دار الكتب بالقاهرة) المتوفي ١٨٨٣ وقد مهد لتحقيق هذا المشروع باستنباط حروف أجنبية تكتب بها لهجة مصر العامية وتأليف كتاب ألماني في قواعد الصرف والاشتقاق التي تسير عليها هذه اللهجة .

وقد ارتضى جماعة من موظفي وزارة التربية والتعليم العامية في تعليم الأطفال الهجاء فابتدعوا طريقة سموها (طريقة شرشر) وألفوا كتبها باللهجة العامية المستخدمة في القاهرة وضواحيها ، بل لقد جنح إلى هذا الاتجاه قدماء الباحثين ومنهم ابن خلدون .

ويحمل لواء هذا الاتجاه الآن ويدعو إليه بحرارة وحماس يبعثان على الريبة في الدافع له إلى دعوته : كاتب محدث عهد إليه بالإشراف على البحوث

الأدبية في صحيفة مصرية يومية (١) .

ويبدو لنا أن الداعين إلى هذا الاتجاه لا يخرجون عن أحد فريقين :

إما شعوبيون مسيرون بالرغبة الآثمة في القضاء على أهم دعامة من دعائم الوحدة العربية والقومية العربية والثقافة العربية ، وإما غافلون عن الأضرار البليغة التي تنجم عن تحقيق ما يظنون أنه ضرب من ضروب التبشير .

والعامية التي يرى أصحاب هذا الاتجاه استخدامها في الشؤون التي تستخدم فيها العربية الفصحى لغة فقيرة كل الفقر ، في مفرداتها فلا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي وهي إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها .

وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقاً على التعبير عن المعاني الدقيقة ولا عن حقائق الآداب والعلوم والانتاج الفكري المنظم .

ومن أهم أخطارها الحيلولة دون الانتفاع بالتراث .

والعامية في لغة ما غير ثابتة على حال واحدة بل هي عرضة للتطور في أصواتها ودلالاتها ومفرداتها وقواعدها .

والعامية تختلف باختلاف الشعوب العربية وتختلف في الشعب الواحد باختلاف مناطقه .

واختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوي على شيء من الشذوذ حتى يلتمس علاجاً لها بل هو السنة الطبيعية في اللغات . واستخدام العامية في تدريس العلوم والآداب يؤدي لا محالة إلى تخلف كبير في الثقافة العلمية والأدبية نفسها .

وقد ظلت اللغة اللاتينية لغة كتابة حتى نضجت لهجات محادثتهم وكمل

---

(١) يقصد لويس عوض وجريدة الأهرام .

نموها فاستطاعت أن تنحي اللاتينية عن وظيفتها وتحتل مكانها ، فأصبحت الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية التي كانت لهجات عامية تستخدم في المحادثة فقط ، أصبحت لغات كتابة وآداب .

تم ذلك حوالي القرن السابع عشر الميلادي ، ولكن خاصية الازدواج القديمة لم تلبث أن انبعثت مرة أخرى ، ذلك أن لهجات الحديث في هذه البلاد كانت في المبدأ متفقة مع لغات الكتابة فيها ، ثم أخذت تتطور شيئاً فشيئاً وتنحرف عن أصولها الأولى ، بينما ظلت لغة الكتابة فيها جامدة على حالتها القديمة أو ما يقرب منها ، وبذلك أصبحت لهجات الحديث في هذه البلاد تختلف اختلافاً غير يسير عن لغات الكتابة .

* * *

ومن الأخطار التي تواجه اللغة العربية : أنه يندر أن تجد بين مدرسي اللغة العربية نفسها من يستخدمها في شرح ما يريد إنما يستخدمون اللهجة العامية، وكذلك محاكاة الكثير من الصحفيين الأساليب الأجنبية في تسلسل أجزاء الجملة وربط عناصر العبارة بعضها ببعض ، كذلك في محاكاة الأسلوب الافرنجي في الخروج عما يسير عليه الأسلوب العربي في ترتيب عناصر الجملة وربطها بعضها ببعض وتنسيق أجزاء العبارة ، فيأتون بعبارات عربية المفردات والقواعد ولكنها أعجمية التركيب والنظم .

٧

العلامة صلاح الدين السلجوقي : ليست لغة العرب وحدهم

اللغة العربية ليست محصورة في العرب: إنها لغة يصلي ويدعو بها أكثر من خمسمائة مليون مسلم ؛ إنها لغة القرآن الكريم الذي أنزل إلى المسلمين كافة أنزل إليهم وهداهم إلى صراط مستقيم . كما أن على جميع المسلمين واجبات

نحو لغة القرآن ، فإن لنا حقوقاً عليها لأننا معشر الأعاجم خدمناها أكثر من العرب ، ولا حاجة بي إلى أن أسرد أسماء كرسوا حياتهم في خدمة اللغة العربية وثقافتها .

إن الأكثرية الساحقة من العلماء الذين بنوا حضارة الإسلام هم من الأعاجم حتى علمي الصرف والنحو في اللغة العربية لم يفكر فيهما أي شخص عربي سوى الأعاجم . خرج من الأفغان عدد كبير من الفقهاء ، أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل والبخاري والترمذي ومن الفلاسفة الرئيس أبو علي بن سينا والفارابي ومن اللغويين أمثال التفتازاني والسكاكي وعبد القاهر . وكذلك أخرجت أفغانستان عدداً من كبار المجاهدين أمثال عمرو بن ليث الصفاري الذي عمم الدين الحنيف في سائر أنحاء أفغانستان .

والدين والقومية ليس لهما مظهر أجل من اللسان . فهو القرآن وهو الصلاة التي تجمعنا حول كعبة قدسية من الدين والمثل العليا .

علينا أن نجاهد لكي يبقى القرآن ولغة القرآن الخيط الذهبي الذي يؤلف بين قلوبنا ديناً وثقافة ، كي لا تنفصم العروة التي كنا معتصمين بها والتي جاهد في سبيلها الآباء .

فهذا القرآن — معاشر العرب — يجمعنا وإياكم كما حفظ كيانكم وحمى اللغة العربية من الاندثار في حين أن اللغتين الشقيقتين : السريانية والعبرية اللتين كانتا أوسع نطاقاً من العربية قد ماتتا وانقرضتا منذ أمد بعيد .

* * *

إن المركز اللغوي الثقافي هو بين العرب لا بين العجم ، فإذا ما فقد المركز جاذبيته ونقطة ارتكازه فلا شك أن المحيط يتلاشى بتلاشي المركز .

إن أول ما يجب علينا أن نفعله أن نقضي على العامية في اللغة العربية ،

هذه العامية تنزل بمستوى اللغة العربية المبين ، وتقضي على ما فيها من عذوبة وسعة نطاق ونظام ، وتخلق برزخاً واسعاً بينكم وبين القرآن ، وبينكم وبين ثقافتكم والألوف من علمائكم والملايين من كتبكم التي كتبها لكم آباؤكم الكرام من العرب وإخوانكم الأعزة من العجم .

وفضلاً عن هذا ، فهذه العامية توسع الهوة بين الأمة العربية يوماً فيوماً إلى أن تنقسم إلى أمم متباينة في الفهم والإفهام كما هو واقع الآن بين الأمم الآرية .

وإذا اختلف اللسان فليس هناك شيء يربط بين البلاد العربية .

وقد يزعم البعض أن هذه النقيصة تزول بنشر المعارف ، وأقول إن هذا ليس بصحيح ، لأني أستمع إلى العلماء وهم يتكلمون بالعامية وأقرأ مسرحيات لكبار الكتاب باللغة نفسها ، كما أقرأ بعض الأحكام القضائية وأستمع إلى مناقشات المحاكمات باللهجة نفسها ، زد على ذلك أن أعمدة المجلات مملوءة بها وأفلام السينما على اختلافها ناطقة بها .

ويسوغ البعض استعمال هذه اللهجة بأنها لسان الشعب ، ولكن هناك فارقاً بين الشعب وبين الطبقة العامية ، فالشعب مفهوم عام يشمل جميع الطبقات ، كما أن هناك فرقاً بين الرأي العام والذوق العامي .

قد تنزل الطبقات الممتازة عن مطامعها الخاصة لمصالح الشعب ، ولكن ليس على هذه الطبقات أن تنزل عن فضائلها ومعارفها ، بل عليها ألا تفعل ذلك ، بالعكس عليها أن تبذل المحاولات والجهود لكي ترفع الشعب إلى مستواها العالي الممتاز .

* * *

إن جميع المصطلحات العلمية في أفغانستان وتركيا باللغة العربية ولكن

مع شيء قليل أو كثير من الانحراف ، وهذا الانحراف أكثر ما يكون ظهوراً في الهند وباكستان ، لأن هذه المصطلحات وضعت بجهود أشخاص لم يكونوا يتقنون اللغة العربية .

فإذا لم تؤلف هذه القواميس والمعجمات ولم تصل إلى الديار الإسلامية فإننا نخشى أن تحاول الدوائر العلمية في هذه الديار اختراع كلمات عربية من عندها ، أو أن ترجع كل واحدة منها إلى لغتها الوطنية أو تضطر إلى استعمال المصطلحات الأوربية ذاتها وفي جميع الحالات تقع الخسارة على اللغة العربية والثقافة والإسلامية .

فاللغة العربية في ديار الإسلام شأنها كشأن اللغة اللاتينية في أوربا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والفارق بينهما أن اللغة العربية ستدوم وستظل دعامة العلم والأدب في هذهالديار ما دام القرآن والدين والصلاة وملايين الكتب تؤيدها من بين يديها ومن خلفها .

٨

تجربة الدكتور كمال يوسف الحاج

تجارب ثلاث توالت في حياتي : حدتني على الاعتقاد بغائية اللسان ــ أعني بفاعلية اللغة ــ الأم في تكوين شخصية الإنسان ، فرداً ومجتمعاً ، لقد وضح لي أنه لا فكر خلاقاً في معزل عن ديباجة شريفة ، لا حرية صادقة لشعب يزدري لغته القومية ،

أما التجربة الأولى فإنها تعود إلى اليوم الذي كنت فيه ناعم الأظفار ، وليداً بعد أحصل العلم ، وكان هذا القدر ذاته قد كتب على ورقتي إذ ذاك بضعة أسطر من نور هي تنزيل حكيم في سبائك الفؤاد ، لقد نقش حب

العربية في لوحة صدري ، رحم الله والدي ، وأطال بعمر والدتي ، اللذين اقاما لها معبداً في حنايا نفسي لقد ضرباني وأنا صغير بعد على قوالبها السليمة بين هذين الوالدين العربيين لساناً ترعرعت وكبرت .

لقد وضع الأساس الأول في حياتي منذ البداية على حب اللغة العربية وعلى إجلالها وتقديسها وعلى مزاولتها قبل سواها ، وعلى إعطائها حق الصدارة في أبهاء نفسي .

ثم دخلت إحدى المدارس الأجنبية الكبرى حيث كان على الوليد أن يلسن وقت العلم واللعب ، بغير اللسان العربي ، لقد أنخنا كلنا يومئذ لذلك المنطيق ، ولتلك المشيئة الظاهرة بحد ذاتها وقد دعمها شيئان : انتداب سياسي ونظرة تربوية .

وهكذا فرضت علينا السياسة يومذاك مفاهيم تربوية – من بينها اللسن بغير العربية – لا تتفق أصلاً مع أسانيد النفس البشرية . وقد أنخنا كلنا لتلك المفاهيم فأرغمنا على الخيانة باعتبار أنها فضيلة . أما الوليد الذي يعطى منطيق تلك السياسة فقد كان العقاب نصيبه والعقاب على ضروب منها الحرمان عن الطعام ومنها الإسقاط في الامتحان ومنها الحرمان عن الطعام ومنها الحجر عن اللعب ومنها التشهير أمام الأتراب .

وكلها أسباب تذليلية تخلق في النفس عقد التصاغر والدونية ، ثم تبدأ المأساة في قلب الوليد الذي كنته ، كنت من الناجحين كثيراً ، ولكني لم أكن من المجلين في لسان الأغيار . لقد ركزت على العربية وكان هذا عيبي في نظر الانتداب .

عقدة تصاغر إزاء الذين يلسنون بغير العربية ، لم أستطع أن أجمع بين لسانين ، وأخذت المأساة تلعب دورها في قلبي : سيف العربية مسلط فوق رأسي في بيت أبي وسيف غيرها مسلط فوق رأسي في المدرسة مستحيلان يتجاذبان وليداً .

لقد كانت العربية تنتصر في كل حلبة من تحصيلي .

وفي باريس ، حدثت لي التجربة التي أماطت اللثام أخيراً وبصورة نهائية وساقتني إلى الاعتقاد التام بغائية اللسان القومي ، أما تلك التجربة فهي جد عادية بحد ذاتها ، عايشها دون ريب كل عربي اللسان طلب العلوم الكبيرة في رقعة الغرب وهي تقوم على أني تأرجحت تأرجحاً مضغوطاً بين لسانين : العربي والفرنسي ، ولم أستطع أن أتحكم فعلاً بالفرنسية على غرار أبنائها الذين يتكلمونها عفواً ، ولم أستطع أن أحافظ على نقاء لغتي – الأم في مناخ لا عربي يحيط بي من كل جانب .

ولعب في قلبي شيطان الغرور قلت : عليك بلغة الفرنسيس غاية ، هي فرصة مؤاتية لك ، أنت تعيش بين ظهرانيهم وتنساق في مضمارهم عن كثب ، وهكذا اندفعت في مسالك اللغة الفرنسية .

هنا بدأت المأساة . . لم أتنبه ، أول بدء ، أني جنحت عن الواقع البشري اني في منزلق خاطىء ، لقد طمس الغرور على بصيرتي وأضلني جهلي بفلسفة اللغة : قلت وما ضرني لو امتلكت لسانين حق الامتلاك وركبت متن هذا العمل . أما النتيجة فكانت عكس المرتقب ، كانت نتيجة سلبية من جهة اللسانين معاً ، شعرت بأني بعدت عن نقاء العربية ، بعدت عن سليقتها الرفيعة في القلم ، بعدت عن مجراها السريع في الأداء ، وشعرت من جهة أخرى ، أني لم أدن من نقاء الفرنسية . لم أدن من سليقتها الرفيعة في القلم . وهكذا تأرجحت مضنوكاً بين لسانين مبتورين فيّ . أجل ، لقد بعدت عن صفاء اللغة العربية ، عن بداهتها في اللسان ، ورشاقتها في الكتابة ، بعدت لأني هجرتها كتابة وقراءة ومشافهة ، واللغة الأنيقة تعق ، عند الأديب إذا أبطأ في مزاولتها ، إن الكلمة المصقولة عزيزة الجانب ، هي ذات عفاف لا تريد أن ينخدش ، إنها غيرى ، معنى كل هذا أن التحكم باللغة – الأم ، لا ينفصل عن التحكم بالطبيعة – الأم ، أقصد الوطن – الأم ، أو بما يذكّر الوطن .

الإنسان لا يتعلم لغة أجداده ، أو في ما هو مثيل لوطن أجداده من حيث المناخ الروحي . فمن أراد أن يتقن لغة ما إتقاناً فيه زخم الألمعية والأريحية والعبقرية ، كان عليه أن يعيش بين ظهراني أبنائها الذين يتكلمون عفواً أو أن يحيط نفسه بشعب منها يتكلمها عفواً . اللغة حياة ، وقد صادف أن انقطعت عن محيطي ، العربي اللسان ، فجفت لغتي في العروق ، واستمسك القلم بين الأصابع وحرنت الديباجة الأنيقة ثم غلظت ، لقد أصابني الرصاص ، فوقعت في الأحبولة . لم أعد أديباً في لساني القومي .

أما الفرنسية التي خنت لساني من أجلها فلم أركب متن عفويتها ، لأنني لم أستطع ذلك، بقيت خارج بهوها الفسيح، على أن الكد في سبيلها لم ينقض.

لقد كنت استمحر بالنية الصافية ، والعزم الفتي ، كي أقطع رحابها كي أصبح ذا سليقة فيها كسليقة أبنائها ولكنه حلم ضائع ، بل خيانة وجريمة ، لم أعلم أن الإنسان ذو مجرى لغوي واحد ، ذو عفوية لسانية واحدة ، ذو تاريخ واحد ، وأمة واحدة ، لم أعلم أن هذه الآحاد الواحدة هي التي تنقل الإنسان إلى الكثرة المتكاثرة ، إلى المطلق ، لم يكن ممكناً لي أن أدرك عفاف اللسان الفرنسي أي عبقريته ، لقد بقيت قزماً حيال أقزم الفرنسيين لغة ،

لا شك أن الذين يجهلون ما للكلمة من وزن انطولوجي ومن خطوة ما ورائية ، تتساوى عندهم الأساليب التعبيرية ، ولكن الأديب الذي يحس بعظمة اللغة وبهول ألفاظها لا يقف من الكلمة هذا الموقف ، اللغة عنده أكثر من وسيلة ، هي غاية ، إذ بدونها لا تكون الفكرة جميلة ، ومن هنا حرص الأديب على الديباجة التي تصبح لديه جزءاً من الفكرة ، بل الفكرة ذاتها ،

لقد تصارعت العربية والفرنسية في قرارة ذاتي ، أجل ، تعادلتا ، صرفاً ونحواً ، في اللسان والقلم ، ولكنهما لم تتعادلا عبقرية ، وهكذا فقدت عبقرية لغتي ولم أدرك عبقرية لغتهم .

لقد ابتلينا في هذا البلد بجهل فلسفة اللغة ، ابتلينا باحتقارنا للعربية ، بغرورنا أن سواها أعف وأبهى ، وأقرب إلى مقومات الحضارة المدنية . فابتلينا بعقدة التكابر حيال لساننا وبعقدة التصاغر حيال لسانهم والنتيجة صغرنا في أنفسنا دون أن نكبر في أنفس الحاكمين .

إن المستعمر يفرض لغة كي تتصارع مع اللغة الأم ، وبذلك تتفسخ ذاتية الوجدان وتضعف ، من هنا كان الإنسان لا يتدنس قومياً أول ما يتدنس إلاّ من لغته ولا يتنقح قومياً أول ما يتنقح إلاّ من لغته .

إن الإنسان مجبر أن يتمسك بلغته تمسكاً كينونياً ذلك لأن اللغة في نظري غاية لا واسطة .

لقد شعرت أن مدى اللغة الفرنسية مقفل علي لأنني لم أتناولها من المهد ولم أعش في محيط فرنسي صرف ، بينما اللغة العربية هي مركوزة في صميم وجداني وقد أوقفها القدر عليّ ولم يفتح لي باب العبقرية إلاّ من جهتها .

ليعلم اللبنانيون أن باب العبقرية في الغرب مقفل عليهم إطلاقاً ، ومهما أتقن اللبناني اللغة الفرنسية مثلاً فهو لن يستحق رغم ذلك أن يتربع في مقعد من مقاعد الأكاديمية الفرنسية .

إن رسالة لبنان هي رسالة عربية اللسان .

والسؤال : هل يوجد فكر معزول عن اللغة ؟

والجواب : لا وجود لهذا الفكر ، إن الفكر دائماً فكر ملسون .

البابُ الثالث

الفصحى تقبَلُ التحدّي



الفصل الأول

اللغة والفكر

لا ريب أن خصوم اللغة العربية يعلمون أن الفصحى قد قبلت التحدي منذ وقت بعيد ، وأن الدعامات الكبرى التي مكنتها من البقاء هذه الأجيال المتوالية ترجع إلى أنها لغة فكر قبل أن تكون لغة أمة معينة هي الأمة العربية : إنها لغة فكر عالمي إنساني ضخم المعطيات والآثار متشعب الفروع متصل بكل قضايا الإنسان والحياة والمجتمع ، ذلك هو الفكر الإسلامي الذي يشكل الدعامة الأولى فيه : القرآن الكريم .

ولا ريب أن هذه الظاهرة تفرد اللغة العربية بين اللغات بطابع خاص وتجعلها نموذجاً وحدها فلا تنطبق عليها قوانين علم اللغات انطباقاً كاملاً . هذه القوانين التي صيغت ووضعت من خلال اللغات الأوربية متصلة باللاتينية أو منفصلة عنها . وتلك ظاهرة أخرى لا تنطبق على اللغة العربية التي انفردت بعد نموها الطبيعي القوي خلال ثلاثة آلاف سنة بأن نزل بها القرآن الكريم فأصبحت تحمل الآن وراءها قدرة على النمو والحركة والعطاء تجعلها قادرة على نقل هذا الفكر القديم إلى المعاصرين من وراء سبعة عشر قرناً حتى اليوم . هذا هو وجه الخلاف وهذه نقطة التبرير التي تجعل اللغة العربية ولها ذاتية

خاصة لا تخضع لقوانين اللغات الأوربية التي تغيرت مرات ومرات حتى باتت اليوم ولا تحمل من تاريخها الحي أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون .

ولعل من أكبر ركائز اللغات وعوامل ثباتها ارتباطها بالفكر ، حتى ليمكن القول بأن بين اللغة والفكر آصرة أشبه بالارتباط العضوي . ومن هنا تبرز ناحية أخرى من نواحي قصور المناهج الغربية الوافدة عن محاكمة اللغة العربية نتيجة لهذا البعد العميق : بعد فهم البيان العربي ومقايساته بالنسبة للباحثين الغربيين والمستشرقين .

وتؤكد الأبحاث الحديثة كلها ذلك الارتباط الوثيق بين اللغة والفكر ، وأن لسان الأمة جزء من عقليتها فيرى (و . فون همبلت) في كتابه المشهور :

Ueber die Kamiofprache

أن كل لسان يؤلف حول الشعب الذي يتكلم به دائرة لا يمكن للمرء أن يخرج منها إلا إذا دخل في نطاق دائرة أخرى ، وأن لغة شعب ما هي إلا روحه كما أن روح الشعب لغته .

ويرى همبولت أن كل لغة تؤلف نظاماً مترابطاً متضافراً محدوداً ، تعرب عن عقلية الشعب الذي يتكلم بها ، ومن المستحيل التعبير عن هذه العقلية بأدوات هي خاصة بعقلية أخرى .

ويقرر الباحث الغربي سابيرون تأثير اللغة في تكوين العقلية ويرى أن اللغة تحمل معها تصوراً للعالم أو شكلاً له . وتحمل القدرة على تبديل العقلية وتحويلها وتعبد سبل المعرفة ، وعنده أن فكرتي الزمان والمكان لا تبدوان دائماً في تجارب الناس بصورة واحدة بل يتفاوت نصيب الناس في إدراكهما ، فهما يرتبطان بطبيعة اللغة التي يتكلمونها أو بطبائع اللغات التي نشأت هاتان الفكرتان وتكاملتا معها .

كذلك يشير الباحث (ورف) إلى تأثير اللغة العميق في المعايير الحضارية

ويرى أن متيافيزياء اللغة هي التي تبرز إلى حد كبير روح الأمة ومعايير سلوك أفرادها . وعنده أن لكل لغة متيافيزياء خاصة بها .

وإن بعض نظريات متيافيزياء اللغة تقتضي نفي كل ترجمة أدبية ولا سيما ترجمة الشعر .

وتقرير وورف : ان العالم الفكري يتداخل في المجموعة اللغوية ليؤلف معها كلاً مترابطاً ومتضافراً لا تنفصل أجزاؤه بعضها عن بعض ، وأنه لا يمكن لهذا الكل الملتحم أن ينتقل إلى نظام لغوي آخر ملتحم أيضاً بألفاظه ومعانيه ، ذلك أن اللسان يجسد روح الأمة فلا يسع المرء الوصول إلى مقاصده بدقة تامة على طريق أدوات وتعابير لغوية مأخوذة من لسان آخر (١) .

ولا ريب أن هذه الحقائق تكشف أمامنا ذلك المخطط الخطير الذي يحاول احتواء اللغة العربية بإدخال أدوات وتعابير لغوية من الألسنة الأخرى ، أو تطبيق مقايسات وافدة كما تكشف عن ذلك الخط الخطير الذي يتابع الدعوة بإلحاح إلى تعلم اللغات الأجنبية لأبناء العالم الإسلامي قبل أن يستكملوا هضم وتمثل القيم الأساسية للغتهم أو يفهموا أبعادها .

كذلك فإن هناك محاذير أخرى تتصل بالترجمة يجب وضعها موضع التقدير من أجل حماية التشكيل النفسي والعقلي للغة العربية عند المسلم والعربي وحتى لا يتعرض للأخطار التي تحاول أن تحتويه في بوتقة اللغات الأخرى ومن ثم تصهره في فكرها .

وإذا كان لنا أن نفيد من تجربة خصوم اللغة العربية فإنهم يفهمون أبعاد العلاقة بين اللغة والفكر على هذا النحو :

يقول نبيه أمين فارس :

---

(١) مجلة المعرفة (السورية) آب ١٩٧٢ .

« اللغة ليست مجرد مجموعة اعتباطية من الرموز كونتها الصدفة المحض فاللغة تاريخية في جوهرها ، فهي على مرور الزمن تجمع معاني وتخلق ارتباطات وتثير ذكريات . إن معرفة لغة من اللغات إذا أريد لها أن تكون معرفة عميقة حقاً لا تعني فقط مجرد المقدرة على ترجمة الفكر إلى لغة أخرى ، وإنما تعني أن كل كلمة تستعمل يجب أن تعبر تعبيراً دقيقاً عن التصور القائم في ذهن مستمعيها .

وإن كل كلمة يجب أن تفهم ليس فقط في فحواها المباشر الواضح وإنما في معناها التاريخي أي جذورها وكيفية استعمالها في الماضي .

ليست دراسة اللغة في معناها الصحيح ، هي دراسة قواعد النحو والإعراب وتركيب الكلام وإنما هي دراسة أفكار الناس الذين يتكلمونها وحضارتهم »ا.هـ.

وبعد : فما أحرانا أن نطبق هذا على اللغة العربية ونفهم أبعاد المحاولة التي تراد باللغة العربية لإخراجها عن فكرها باسم التطوير أو باسم التجديد أو بأسماء أخرى براقة .

ولقد تنبه لهذه الأغراض كتاب ومفكرون من العرب والمسلمين منذ وقت بعيد ، ويجب أن تكون صيحتهم وكلمتهم قائمة في أذهاننا وأنفسنا أبداً ،

يقول العلاّمة علال الفاسي في استعراض للتحديات التي تواجه اللغة العربية في المغرب نتيجة لأخطار الاستعمار الفرنسي وبقاياه في مجال الفكر والثقافة .

« إن التضحية باللغة العربية هي تضحية بالدين الإسلامي لأن الكلمة الفرنسية تردنا مسيحيين ، كل الذين يتمسكون باللغة الفرنسية إنما يرغبون في التعامل مع الأجنبي وفي الحفاظ على مصالحه هنا ، لذا فإننا ننادي بالتعريب من أجل التحرر من سيطرة الأجنبي ومن تبعيته . وإن الاستعمار الحقيقي هو الاستعمار الاقتصادي الذي لا يتحقق لأصحابه إلاّ عن طريق استعمار فكري بواسطة

اللغة والقانون . ولا يخرج المستعمر من البلاد ما لم يخرج من القلوب والأفكار » .

ويقرر العلاّمة علال الفاسي أن اللغة تكون الفكر ، ويقول : فاللغة الأجنبية تكون الفكر الأجنبي ، ويقول : إن الفكر هو الذي يكون الكلام وهذا يذكرنا بقول الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنمـــا جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ويقول : إن شكل اللغة ليس شرطاً في النقل بل هو أولاً شرط في تكوين الفكر فإذا لم تكن اللغة لا يتكون الفكر والتفكير كلام صامت لأننا لا نكون فكرة إلاّ بإطار اللغة وبغير هذا لا تكون إلاّ شيئاً غامضاً منحلاً .

ويقول إن التضحية باللغة تضحية بالدين وإن الاستعمار الفكري هنا واضح فاللغة الأجنبية تخلق منا أناساً على صورة اللغة وصاحبها في عقيدته وأفكاره وما توحي به تلك الأفكار .

وقد قال غوستان لوبون : إذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح حبسها ما احتفظت بلغتها » .

ويقول : إن لكل جماعة معجمها الخاص بالكلمات التي تصنعها عبقريتها لتكون أداة اتصال روحي بينها وبين أمثالها وتفاهم وتبليغ . ولكل عقيدة ومذهب كلمات تخرجها من معناها اللغوي الأصلي إلى معناها الجديد الذي يستغني بكل ما في العقيدة والمذهب من سر ومن حرارة ، إن حرب الكلمات هي أولى حرب النظريات ، إننا عرب ومسلمون فيجب أن لا نخرج في كتاباتنا وأعمالنا عن المعجم الذي يتفق مع عقيدتنا وديننا . لا تستعملوا كلمات ليست في معجمكم ، تعلموا تعبيرات القرآن وتقاليد اللغة التي بها تدركون . ولا تجعلوا الكلمة الإسلامية مدلولاً خارجاً عن ما تريدون أنتم وعن ما هو لها بالطبع : « فكروا بلغتكم » .

ولقد تقرر هذا المعنى في كتابات أعلام الفكر الإسلامي منذ وقت بعيد ،

وقد بدت حاجتنا إليه اليوم في مواجهة محاولة إخراج اللغة العربية من فكرها واحتواء الفكر الغربي لها . يقول ابن تيمية « إن اللغة العربية للإسلام ليست لغة فحسب ولكنها عقل وخلق ودين » .

وتردد هذا في كتابات كثير من الباحثين فقال أحدهم :

« العربي ليس من يتكلم عربياً بل من يفكر عربياً » .

ويقول « فخته » الألماني : إن اللغة هي الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان . ويقول الدكتور عثمان أمين : إن هذه العبارة تصدق على لغتنا العربية . إن هذه الوحدة تقوم في صميمها على الوعي القومي النابع من تلك المشاركة الروحية العميقة فإن للغتنا العربية أثراً بالغاً في تكوين عقليتنا وفي تدبير فكرنا وهداية سلوكنا .

ويقول فخته : إن اللغة هي جهاز الاجتماع في الإنسان : اللغة والأمة أمران متلازمان ومتبادلان . اللغة التي ترافق وتجدد وتحرك الفرد حتى أعمق أغوار تفكيره وتجعل من الحلوق البشرية التي تتكلم بها جماعة متلاصقة يديرها عقل واحد ،

٢

« الفكر » الإسلامي إذن وليست اللغة هي التي صبغت تفكير العرب والمسلمين ووجهت أذواقهم ، وما اللغة إلا تمثلاً لهذا الفكر في مختلف قيمه ومظاهره .

ولذلك فقد كان من الضروري أن تعمق صلة المسلم والعربي باللغة ليفهم أسرارها وأساليبها فيكون قادراً على الاستجابة لفكرها وأداء فرائض الإسلام عليه .

ذلك أنه لا يمكن بحال من الأحوال لمسلم أو لغير مسلم يريد أن يعرف حكم الشريعة الإسلامية من مصادره الأصيلة إلاّ إذا كان عالماً بلغة العرب وبأساليبها ومنطقها وكل ما يتعلق بها . ومن أجل هذا فهم المسلمون الأوائل أهمية اللغة العربية على وجهها وقاموا بنشرها بكل ما أوتوا من قوة ، فكانوا إذا فتحوا البلدان نشروا الدين ونشروا معه لغتهم لأنها مفتاح هذا الدين »(١) .

ولذلك فإن حملات التغريب حين تريد أن تفرض العامية إنما تريد أن تقيم فاصلاً صفيقاً بين المسلمين والعرب وبين معرفتهم شريعتهم وفكرهم ، حيث يؤدي شيوع العامية إلى صعوبة فهم الكتاب والسنة والاطلاع على كنوز التراث الإسلامي التي خلفها لنا فقهاء المسلمين في شتى مناحي العلوم والفنون على مدى الأجيال (٢) .

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى هذا المعنى حين قال : إن جهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم وأقوال أسلافهم ، ففي اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لا يمكن الوصول إليه إلاّ بتحصيل ملكة اللسان ، ولا تحصل هذه الملكة فيها قولاً وكتابة حتى يتكلم بها غالب أهلها ويكتبوا بها بالطريقة الصحيحة لأن في انحطاط لغتنا انحطاطاً لنا ولديننا وعقائدنا وأخلاقنا وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا » .

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة أن الإسلام لا يمكن فهمه إلاّ باللغة العربية الفصحى والقرآن كذلك ، كذلك فإن الصلاة لا تجوز إلاّ باللغة العربية وإن ما أجازه أبو حنيفة في هذا الشأن كان على سبيل الترخيص وحتى لا يحرم المصلي من مناجاة ربه ودعائه ، وقد عدل عن هذا الرأي بعد أن تبين له صواب غيره ، واتفق الفقهاء على أن من يعجز عن قراءة القرآن — وهو عربي

(١ و ٢) من بحث للدكتور عبد العزيز عامر .

كما أنزل الله في كتابه – بالعربية يصلي ساكتاً مناجياً ربه بقلبه لأنه عجز عن ركن القراءة الواجب عليه بقوله (فاقرأوا ما تيسر منه) .

كذلك قرر الفقهاء اشتراط اللغة العربية لصحة الخطبة يوم الجمعة ،

كذلك قرر المذهب الشافعي وغيره عدم صحة الزواج بغير اللغة العربية للقادر عليها ، بل أوجب الفقيه الحنبلي أبو الخطاب تعلم اللغة العربية لصحة الزواج كما روى ابن تيمية عن الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد أنه يكره التخاطب بغير العربية إلاّ لحاجة ، وأنه فهم ذلك من كلامهم ولا عجب فاللغة العربية هي أساس الوحدة الإسلامية العربية » .

هذا الجانب الخطير من علاقة اللغة بالفكر والعقيدة كان واضحاً أمام محاولات التغريب والغزو الثقافي ، وهو هدف مبيت يراد القضاء عليه بإعلاء العاميات أو بإقامة ما يسمى باللغة الوسطى حتى لا يفهم القرآن ويقع الفصام بين العرب والمسلمين وبين أسس فكرهم وقواعد شريعتهم فتندثر كما اندثرت شرائع الأمم الأخرى .

ولا ريب أن تأكيد هذه العلاقة بين اللغة والفكر وبين اللغة والعقيدة يجعل للكلمات مفاهيم خاصة ، فلا تفهم المصطلحات الغربية على نحوها الشكلي من أمثال كلمات Religion بأنها (دين) أو Charité بأنها (زكاة) ، فالمفهوم الإسلامي للكلمات يختلف في اللغة العربية عنه في اللغات الأخرى فالدين في الإسلام جماع من عبادة وشريعة وأخلاق ، وهو ليس كذلك في المصطلح الغربي وكذلك الزكاة التي تعني في العربية إشراك الفقير في مال الغني بصفة إجبارية وليس بمفهوم الصدقة الغربي (١) .

فالإسلام في الحقيقة (فكره وعقيدته وشريعته) هو عامل التكوين النفسي

---

(١) راجعنا في هذا بحثاً للأستاذ علال الفاسي .

والعقلي المشترك الذي تقوم عليه اللغة العربية على نحو لا يمكن معه فصل اللغة عن الثقافة وحيث يكون الدين بمفهوم الإسلام جزءاً من الثقافة لا يتجزأ .

ولعل تعبير ماكس مولر عن علاقة اللغة والفكر مما يجدر النظر إليه فهو يشبههما بوجهي قطعة النقد الواحدة ويقول : إن ما نسميه الفكر ليس إلاّ وجهاً من وجهي قطعة النقود ، أما الوجه الآخر فهو الصوت المسموع .

ويصدق صادق عنبر حين يقول : لقد علمنا أن لكل أمة شاهداً من لغتها على ما فطرت عليه من دين ودون لها من تاريخ وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون .

الفصل الثاني

العربية واللغات

من التحديات التي تواجه اللغة العربية وتحاول أن تنال منها علاقتها باللغات الأجنبية ، فهي من ناحية تحاول تطبيق قوانين اللغات عليها وهذا من شأنه أن يعجز عن استيعاب أبعادها الذاتية والتاريخية ويحولها إلى إحدى اللغات الضيقة بالوطن والأرض من ناحية والضيقة بالزمن من ناحية أخرى ، بينما اللغة العربية ليست لغة وطن وزمن وإنما هي لغة فكر إنساني عالمي هو الفكر الإسلامي ولغة سبعة عشر قرناً أو يزيد ، ما تزال حية تربط أولها بآخرها .

وهناك في علاقتها باللغات الأجنبية تحدّ آخر جدّ خطير هو محاولة غزو اللغات الأخرى لها عن طريق الترجمة إليها وعن طريق فرض مصطلحات الحضارة عليها . ومن ذلك ما حاولته القوى الاستعمارية من تجميد اللغة العربية في المدارس والتعليم وفرض لغتها الأجنبية من ناحية ومن السيطرة على حركة الترجمة ودفعها على نحو فيه كثير من الطغيان على اللغة الأصلية من حيث هي لغة وأسلوب ومن حيث هي مضامين وفكر .

ولقد كشف كثير من الباحثين هذا الخطر فأعلن أن الغاية من إحلال اللغات « ليست هي إحلال كلمات محل أخرى ولكن إحلال فكرة محل أخرى ،

لأن الكلمة هي التي تشتمل على كثير من الاعتبارات والنظريات، وهي التي تلهم المتكلم أساليب من النظر ومن الفهم ومن السلوك لا يستطيع غير المتكلم أن يفهمه إياها، وقد نجح المستعمرون في هذا نجاحاً كبيراً حتى أنهم استطاعوا أن يجعلوا في الشباب من يقدر على التفكير بلغتهم ولو تكلم أو كتب بلغته هو. فاللغة الأجنبية مهدت للمستعمر سبيل السيطرة على فكر المستعمر (بالفتح) وتوجيهه الوجهة التي يريدها الأجنبي ولو في أثناء مقاومته لها ومحاربته إياها، لقد أصبحت الكلمات العربية مثلاً فارغة من معانيها الأصلية في نظر العرب أنفسهم، ولكنها عامرة بالمعاني التي تشتمل عليها الكلمات الأجنبية التي تقابلها عادة في الاستعمال، ونشأ عن ذلك تحول في مدلولات القيم، وفي مفهومات العقائد والديانات وهكذا تغلغل الاستعمار في صميم حياتنا، في أفكارنا وديانتنا ومبادئنا، فنزع عنها ما هي قائمة به في أعناقنا وإذا بنا نجدها خارجة عن وجودنا وغريبة عنا، فنحكم عليها بما يحكم به الأجنبي، ونبني عليها ما يبنيه الأجنبي من أحكام ونظريات طبقاً للتصورات التي حصل هو عليها والظروف التي تفاعلت في نفسه هو حولها »[1].

ونحن نعرف اليوم أن ظاهرة السيطرة باللغات الأجنبية من داخل اللغة العربية قائمة فعلاً في أجزاء كثيرة من البلاد العربية، وأن هذه السيطرة « أحدثت وتحدث في وسطنا خسارة لا حد لها » واننا « لا يمكن أن نعتبر أنفسنا أحراراً بمعنى الكلمة الحقيقي إلا إذا حررنا فكرنا من اللغة الأجنبية وحررنا كلماتنا القومية من المدلولات الأجنبية عنها ».

٢

وتجيء تجربة الجزائر بين استلاب اللغة واستلاب الدين واضحة الدلالة، فقد حاول الاستعمار الفرنسي إحياء البربرية وفرض الفرنسية ومع ذلك فقد

كان ارتباط العربية بالإسلام له أثره العميق في رحلة العودة :

يقول عمار وزقان في كتابه « الجهاد الأفضل » : إن تعلم اللغة العربية هو إحياء للتربية الطبيعية والعقلية التاريخية التي تتيح أن تكشف السبب في أن جبل الجرجرة (الجبل الحديدي) الروماني الذي لم تصله المسيحية قد سمي أعلى قمم الأطلس في منطقة التل باسم (لالا خديجة) الزوجة الأولى للنبي العربي وأم المؤمنين .

وهو إيجاد تفسير لهذا اللغز ، لماذا تغلبت اللغة العربية على اللاتينية في أفريقيا التي طبعت بطابع روماني ، وهو الاكتشاف العلمي القائل بأن اللهجة البربرية ليست غريبة إلى الحد الذي يظن أنها بعيدة عن اللغة العربية » .

نعم لقد حاول الاستعمار أن يعلن وجود لغة بربرية في المغرب ليقضي على العربية ، وحاول أن يوقظ في مصر اللغة الهيروغليفية ليضعف العربية ، ثم كشفت أبحاث العلماء بأن العربية هي أم لهذه اللغات وشقائق ، وأن هذه اللغات كانت مراحل على طريق الفصحى الطويل اتصالاً به لا انفصالاً عنه وباءت دعوات الاستشراق والتبشير بالفشل الذريع .

ومن ذلك نجد في المغرب من يقول : إن اللغة ليست وسيلة من وسائل التعبير ، ولكنها غاية لأن الكلمة هي مصدر الإلهام وهي إذا لم تخرج ممتزجة بالروح التي تصنعها فلن تكون إلاّ كلمة لا محتوى لها وصدى لطبل أجوف يرنّ في الفضاء ثم يغيب في العدم المحض الذي ليس له ثبات » .

ذلك هو قول العلاّمة علال الفاسي الذي يحذر من خطر اللغات الأجنبية على المسلمين والعرب في هذه المرحلة وقبل استكمال خطط الأصالة وسبل الترشيد فيقول :

« إن اللغة الأجنبية تأخذ الإنسان ولكنها لا تستطيع أن تعطيه نفسها ، فهو يظل مأسوراً بين من لا يرغب فيه ولا يمتزج بوجوده .

« إنه يظل في عالم المقعدين الذين يأنسون من أنفسهم القوة على النهوض فلا تعينهم الآلة ، لا يجدون الآلة التي هي لغتهم الأصلية ولا تقوم (الآلة العوض) إلاّ بما تقوم به الأرض الصناعية في النهوض .

« إننا سنظل بدون ثقافة ما دمنا لا نتعلم ونتثقف باللغة الأم » .

ولقد وصف هذا الاتجاه منذ وقت بعيد بأنه : « الاستعمار باللغات » .

فالفرنسية هي لغة التفاهم في المغرب وقد كان المستعمرون يبثون في أذهان النخبة من رجالهم وطلبتهم أن الفرنسية ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها ، وفي مصر والهند كانت اللغة الانجليزية هي لغة التفاهم .

وقد عمد الاستعمار إلى المدرسة فأغلق باب اللغة العربية تماماً ، فكانت العلوم كلها تعلم بالانجليزية ، بل إن الاستعمار الانجليزي في مصر كان يعلم اللغة العربية بواسطة أساتذة إنجليز في بعض الأحيان . وهذا هو معنى التفكير باللغة .

ولم يكن هناك كتاب يؤلف في العلوم الحديثة باللغة العربية لأن جميع الذين تعلموا هذه العلوم إنما تعلموها بالانجليزية (١) .

ومن ناحية أخرى فقد اقترن وجود غالبية اللغات الأجنبية في مصر بحركات تبشير أو شعوبية ، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً « أن بعض الهيئات الأجنبية التي وفدت إلى مصر في بداية القرن التاسع عشر كانت تتخذ من مدارسها وما تقيمه من مستشفيات ومستوصفات ستاراً تخفي وراءه أغراضاً دينية وأهدافاً سياسية كانت مناهضة لدين البلاد وماسة بمشاعر المصريين القومية (٢) .

« وقد شجع الولاة من أسرة محمد علي من أولياء الاستعمار تعلم اللغات

---

(١) الأهرام ، ١٧ - ١١ - ١٩٣٣ .

(٢) دكتور نعمة محمد عبيد في كتابة اللغات الأجنبية ودورها ؟

الأجنبية بشتّى الوسائل المادية والأدبية في الوقت الذي هان فيه أمر اللغة العربية على أيديهم » .

وقد حملت اللغة الفرنسية إلى مصر النظام المدرسي الحديث إلى جانب النشاط الفرنسي للبعثات التبشيرية ، ولما احتل الانجليز مصر تفوقت اللغة الانجليزية على اللغات الأخرى بحكم نفوذ الانجليز في شتّى قطاعات الدولة وخاصة التعليم الحكومي، وقد فرض الاستعمار الانجليزي اللغة الانجليزية فرضاً على مراحل التعليم المصري .

وقد واجهت حركة اليقظة هذه الظاهرة فعمل محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد على إيجاد التعليم الوطني والقومي الذي يقوم على اللغة العربية وأنشئت مدارس تابعة للجمعيات الأهلية كالجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية العروة الوثقى حيث كان التعليم مجانياً وكانت المواد جميعها تدرس باللغة العربية.

ومن خلال مقررات المدارس الحكومية التي كانت خاضعة للنفوذ الأجنبي كان أثر اللغات الأجنبية مزدوج الخطر ، فهو فضلاً عن خلق عقلية غربية ، فقد كانت مواد هذه الدراسات تعمل على القضاء على روح الوطنية والقومية وتنتقص البلاد وأهلها وتاريخها وقيمها ، فقد كانت كتب الجغرافيا مثلاً تصف مصر بأنها بلد زراعي لا يصلح لإقامة الصناعة فيه، وكانت كتب التاريخ تقيم حاجزاً من الاقليمية ضد الأمة العربية والعالم الإسلامي وتصور مصر بأنها بلد عاش على مدى التاريخ مستعمراً باليونان والرومان ، وتصف علاقة العرب والإسلام به بأنها نوع من الاستعمار .

ولقد كان من أثر هذا التعليم أن خرج قيادات سياسية وحاكمة ثقافتها أجنبية ولغة أفرادها واحدة من ثلاث (الفرنسية أو الانجليزية أو التركية) وبذلك هان على هذه الطبقة ذلك الإيمان القوي بالعقيدة أو الفكر أو الوطن .

وقد عمل هذا المخطط الاستعماري وفق هذا النموذج في مختلف الأقطار

العربية والإسلامية واستهدف قتل اللغة القومية وتثبيت اللغة الأجنبية وجعلها اللغة الأساسية لكافة المواد . وتعليم الطبقة لا تعليم الأمة : الطبقة التي تحكم وستحكم في المستقبل . وقصر الدراسة على كتب مستوردة من بلاد الغرب فيها توجيه ثقافي معين يغض من قدر بلادهم وأوطانهم ويعلي من شأن البلاد الأجنبية وتاريخها وحضارتها ، وكانت هذه المواد تدرس على أيدي مدرسين أجانب يحتقرون الأوطان وأهلها ويشيدون بالاستعمار ومآثره (١) .

ولكن هذه الخطة ما لبثت أن تحطمت بعد استقلال البلاد العربية والإسلامية ولكنها ظلت قائمة في المعاهد والمدارس والجامعات التي أقامتها الإرساليات التبشيرية في مختلف أجزاء العالم الإسلامي والتي تضم أعداداً ضخمة من شباب المسلمين والعرب .

وفي مراحل التحرر من النفوذ الأجنبي السياسي ظلت كثير من مفاهيم (التغريب) قائمة من خلال برامج التعليم والتربية وخاصة فيما يتعلق باجتزاء المفاهيم الإسلامية وعزلها في مادة الدين وحدها بينما يمثل الفكر الإسلامي القاسم المشترك الأعظم لمختلف مواد التعليم في المعاهد والجامعات وله أرضيته وأولياته في مختلف مواد العلوم والدراسات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والقانونية ، ومن ثم ركز النفوذ الأجنبي سيطرته على الصحافة والثقافة من أجل عزل اللغة المكتوبة في الصحف عن لغة البيان العربي الأصيل وعن اللغة الفصحى ، وجرى تشجيع العاميات ودعمها في القصة والمسرحية والسينما والإذاعة ، وكان للبعوث التي أرسلت إلى البلاد الغربية أثرها الخطير فقد اختيرت من مجموعات من الشباب لم تتكون لديها القاعدة النفسية والروحية والثقافة الإسلامية ، ومن ثم خضعت بعد عبورها البحر للتيارات الإلحادية والفكر الغربي ذلك لأن هذه البعوث كلها كانت تسقط في أيدي القوى التبشيرية ومعاهد الإرساليات الغربية الملحقة بالجامعات الكبرى والتي يشرف عليها

---

(١) استفدنا في هذا بما جاء في كتاب (اللغات الأجنبية ودورها) .

مستشرقون يهود ومسيحيون متعصبون وطامعون في خلق خلائف لهم في البلاد الاسلامية من هذا الشباب . ومن ثم فقد كان العائدون من البعثات الأجنبية – إلاّ قليلا منهم – مصدر خطر كبير في تأكيد ولاْئهم للفكر واستهانتهم الأجنبي الوافد باللغة العربية والفكر الإسلامي العربي .

٣

ويتصل بهذا ما جرى فرضه على مناهج الجامعات من تعليم اللاتينية واليونانية ومحاولة إدخالها في مناهج المدارس الثانوية وكان الدكتور طه حسين في مقدمة الداعين لذلك . وذلك من الأمور التي من شأنها أن تضعف مكانة اللغة العربية وفكرها في نفوس الأجيال المثقفة ، بالإضافة إلى سيطرة اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، ولقد يمكن أن يقال إن اللغات الحديثة أداة طيعة إذا أحسن استخدامها للربط بين الفكر الإسلامي العربي وبين الفكر الحديث ، ولكن فرض اللغتين القديمتين الميتتين من شأنه أن يحدث أخطاراً لا حدّ لها لأنه سيكون بمثابة خلق جبهتين تضعف بينهما اللغة العربية ومكانتها النفسية والاجتماعية في العقل العربي الإسلامي ضعفاً بالغاً خطيراً .

وإذا كانت أوربا قد أخذت في مناهج جامعاتها بتدريس هاتين اللغتين فإنما جرى ذلك من أجل الربط بين اللغات الحديثة وأصولها القديمة وحتى يمكن للمثقف أن يراجع التراث القديم الذي انفصل عنه عندما اتحدت اللغات الحديثة ، ومع ذلك فإن في الغرب كثيرين يعارضون هذا الاتجاه ويرون أن اللغتين اللاتينية واليونانية « من اللغات الميتة التي ترجع إلى العهود البائدة وأن الحضارات والثقافات التي تتمثل في هاتين اللغتين أصبحت مدفونة في أغوار التاريخ » (١) هذا فضلاً عن أن أغلب الآثار الهامة في الأدبين قد ترجمت إلى اللغات الحديثة .

---

(١) ساطع الحصري ، آراء وأحاديث في التربية والتعليم .

فضلاً عن أن «معرفة اللاتينية واليونانية التي يمكن الحصول عليها خلال الحياة المدرسية لا تستطيع أن ترفع الطالب إلى درجة تمكنه من تذوق مضامين تلك الآثار الفكرية والأدبية ومزاياها في لغاتها الأصلية » .

ومن هذه التجربة الغربية نستطيع نحن أن نجد العبرة ، فإذا كانت اللغة اللاتينية أو اليونانية وهي ذات الصلة الوثيقة باللغات الأوربية تجد مثل هذا النقد والتهوين من قدرها في مجال الدراسة فما بالنا نحن وليست لنا بهاتين اللغتين مثل هذه الصلة نقبل عل تعليمهما . وهل يجوز « التوسل بتعليم لغة ميتة إلى تثقيف العقل » .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري في مواجهة هذا الاتجاه ويرد على قول القائلين بأن تعليم اللاتينية واسطة ضرورية لتثقيف العقول ما يلي :

« إن هذه الفكرة قد ثبت خطؤها كل الثبوت ، إذ قد أصبح من المسلم به في علم التربية أنه لا يوجد موضوع مدرسي (مثقف) في حد ذاته ، كما أنه لا يوجد موضوع مدرسي يحتكر قابلية التثقيف لنفسه .

فعندما نود أن نجعل الثقافة هدفنا الأسمي يجب علينا أن نعلم حق العلم أن الوصول إلى هذا الهدف لا يتم إلا بالبحث عن أوفق « طرق التدريس » لضمان التثقيف والسير على تلك الطرق على الدوام ، أما إضافة لغة أو لغتين من اللغات الميتة إلى مناهج الدراسة فلا يمكن أن يضمن لنا شيئاً من أهداف التثقيف بوجه من الوجود » .

« وإذا جاز للأوربيين أن يخيروا أولادهم بين دراسة اللغات الميتة ودراسة اللغات الحية ، فلا يجوز لنا نحن أن نفكر في مثل هذا التخيير » .

٤

وفي مجال الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية تفرض نفسها محاذير كثيرة وأخطار كبرى . ذلك أن محاولة ترجمة الفكر الغربي إلى العربية في العصر الحديث قد مر بعدة مراحل استطاعت الأهواء والمطامع التي تفرضها حركة الغزو الفكري والتغريب من خلالها أن تحقق أهدافها وأن تجعل عملية الترجمة سلاحاً جديداً من أسلحة ضرب اللغة العربية والفكر الإسلامي العربي وتزييفه وإفساده .

لقد بدأت حركة الترجمة في العصر الحديث على نحو سليم ثم انحرفت تحت تأثير النفوذ الأجنبي الذي سيطر على العالم الإسلامي ، بحيث لم تكن حرية الاختيار والإرادة الحرة مكفولة في اختيار المترجمات .

كانت حركة الترجمة التي بدأها رفاعة الطهطاوي حكيمة وإيجابية فقد ارتبطت بترجمة العلوم والفنون والقانون وكل ما تحتاج إليه البلاد الناهضة من نتاج الفكر الغربي ، وقد نجحت مدرسة الألسن ورجالها في ترجمة نحو ألفي كتاب بين مطبوع وغير مطبوع في مختلف العلوم والفنون كالتاريخ والقانون المدني والرياضة والطب والهندسة والصحة والحيوان والفلسفة والجغرافيا ، وعرفت نماذج الترجمة بالأصالة كما وضع لهذه المؤلفات مقدمات تكشف عن أهميتها وأجزاء تكميلية فيما يتعلق بمصر والبلاد العربية أو بما ينقصها من مادة في مجالها .

غير أن هذا الاتجاه لم يلبث بعد قليل أن تحول بدخول طائفة من الكتّاب السوريين المسيحيين الذين انحرفوا بالترجمة إلى مجال القصص والمسرحيات وفي مقدمتهم نجيب الحداد وإلياس فياض ، وطانيوس عبده ، وخليل بيدس ، وغيرهم .

فقد كانت هذه المرحلة مضطربة أشد الاضطراب ، وقد اختلط فيها

التعريب بالتمصير بالترجمة ، وبلغت فيها ديباجة الترجمة حداً بعيداً من الهزال والنزول ، فقد كان هدف المترجمين إرضاء القارىء وتسليته ، من أجل ذلك عمدوا إلى القصص المثيرة المتصلة بالجنس والغوايات ونقلوها نقلاً مشوهاً .

وكان سوء اختيار القصص والتركيز على الأدب المكشوف والماجن في هذه الفترة سبباً في ظهور حصيلة ضخمة من القصص التي فتحت لها الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية طريقاً إلى النشر ، كما صدرت سلاسل متعددة متخصصة في القصص والروايات ، وكان طانيوس عبده ونقولا رزق الله وأسعد داغر أكثر هؤلاء إسرافاً في هذا اللون الهابط من الترجمة ويحصى لطانيوس عبده وحده أكثر من ستمائة قصة ورواية من هذا النوع ، وقد كانت الترجمة بالنسبة له - كما ذكر نقاده ومترجموه - كسب عيش وليست عملاً فنياً ، هذا بالإضافة إلى جهله بقواعد اللغة العربية وضعفه في اللغة الفرنسية وقد وصفت ترجماته وترجمات نقولا رزق الله بالركاكة المتناهية .

وقد ذكر النقاد أن لغة طانيوس عبده « لم تكن تنال ما تستحقه من التهذيب والتشذيب ، فقد كان لا يأبه إلاّ لأداء المعنى ولا يتقيد بالأصل ولا يدقق في التعبير » وأشار مؤرخه كرم ملحم كرم أنه كان حريصاً على مجافاة التقيد بالأصل مع تشويه القصد ، وكان يقرأ الفصل في لغته الأصلية ثم يكتبه من عنده ويعطي لنفسه الحق في إدخال أشياء كثيرة إلى الأصل .

وقد امتدت هذه المدرسة واتسع نطاقها حتى لفتت نظر الباحثين الأجانب فقال (مرجليوث) : « إن أكثر ما ترجم إلى العربية من تأليف أهل الغرب إنما هي روايات مقصدها اللهو دون المنفعة وقل ما يوجد في أعمدتها من أسماء كتب جديدة موضوعها التاريخ أو الفلسفة أو فن من الفنون ، وقال (جب) : إن القصص التي ترجمت لم تترجم ترجمة سليمة ولم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبي للبلاد ، كما ندد

(جب) بالترجمات التي نقلت من اللغة الفرنسية والتي استهدفت الإثارة دون المنفعة .

وهكذا اختفى الطابع العلمي والرصين من مجال الترجمة مخلفاً هذا الاتجاه الذي اتسع بعد الحرب العالمية الأولى حين بدأت الترجمة تأخذ طابعاً أشد إمعاناً في الغزو الثقافي ، وفي مقدمتها المترجمات التي قدمها الدكتور طه حسين في جريدة السياسة اليومية أيام الاثنين وكلها قصص حسية مكشوفة .

وقد لفت هذا الاتجاه الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني فأشار إلى أخطاره ، كذلك أشار إليه الأستاذ محمد أحمد الغمراوي حين قال :

« خذ إليك مثلاً تلك القصص الفرنسية التي لخصها (طه حسين) من آن لآن يلهي بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيراً ، هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة ؟

وقد فتح الدكتور طه حسين بذلك باباً لم يغلق : باب ترجمة قصص الجنس والأدب المكشوف الغربي وقصص اليونان القديمة المسرفة في الإثارة والإباحة ، فمضى بعده الكتاب إلى أبعد مدى . كما ترجم شعر بودلير وهو شاعر منحرف الذات والذوق .

وقد أثار هذا بعض الباحثين وسجلوه كظاهرة خطيرة بالنسبة لحركة الترجمة وبالنسبة للغة العربية وأدابها ، وقد أثار الدكتور حسين الهراوي هذا الأمر بمثابة ظهور مجموعة (قصص اجتماعية) لمحمد عبد الله عنان فكتب تحت عنوان (فتنة القصص الغربي) فقال : «ناقشت الكثيرين من أنصار القصص الغربي بأن استفادة الشرق منه أدبياً لا تساوي ما يجره عليه من العناء الشخصي والقومي والخلقي ، فللشرق آدابه وقوميته . والقصص الغربي اليوم قد اندفع نحو وجهة واحدة هي وجهة الاستهتار الجنسي ، والروائيون في الغرب ليس لهم في هذه الأيام مصدر إلهام غير هذا الموضوع » .

ولا ريب كان هذا الانحراف في الترجمة دافعاً إلى وقوع البلاد العربية والإسلامية تحت سيطرة الاستعمار والنفوذ الثقافي لفرنسا وانجلترا وغيرهما ، ولعل هذا هو السر في تحول الترجمة عن أهدافها الأساسية وإرضاء رغبات القراء .

لقد كان هدف الترجمة الأساسي هو إغناء الفكر الاسلامي والأدب العربي بنقل الآثار النافعة التي تحقق قوة وإيجابية ، وقد استطاع النفوذ الأجنبي القائم على التغريب والغزو من إحداث انحراف خطير حول هذا الاتجاه نحو التسلية وترويج القصص المنحرفة والمثيرة .

ثم استشرى هذا الاتجاه بعد الحرب الثانية فأوغل في ترجمة الفلسفات المختلفة : من مادية ووجودية وبرجماتية ، كذلك اتسعت اتجاهات ترجمة المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية من كلا المعسكرين .

وبذلك ألقيت إلى الفكر العربي الإسلامي حصيلة ضخمة مختلفة متضاربة مما عرفته أوربا خلال أكثر من ثلاثمائة سنة على نحو تاريخي متسلسل بعضه إثر بعض .

ثم انتقل إلينا هذا الركام كله دفعة واحدة ، فكان له أثره البعيد في بلبلة الأفكار واضطراب المشاعر والعزلة عن أصالة فكرنا العربي الإسلامي (١) .

لقد انحرف منهج الترجمة في غياب الضوابط القادرة والمفهوم المحدد للنقل من اللغات المختلفة . وقد غلبت عليه القصة والملحمة الإغريقية في فترة ما بين الحربين ثم غلبت عليه في الفترة الأخيرة ترجمة المذاهب والفلسفات .

وقد أحصى الأستاذ يوسف أسعد داغر حتى أوائل الحرب العالمية الثانية أي عام ١٩٣٩ تقريباً (١٠ آلاف) قصة ترجمت ، وهو رقم مخيف مفزع ،

---

(١) سنتناول هذا البحث في مجال آخر غير بحث اللغة العربية .

فقد ترجم أغلب هذه القصص من اللغة الفرنسية أولاً وعني بترجمة اللون الجنسي والمكشوف والنازل والمنحرف ، وكان أغلبها بعيداً عن الأداء السليم في الترجمة . ومن بين هذا ستمائة قصة ترجمها طانيوس عبده .

وقد طغى على هذه الترجمات اللون الرخيص الزائف من كتابات ميشال زينكو وبونسون دي تيرايل وموريس لبلان وقد ترجمت قصص تخالف مفاهيمنا وقصص تزري بتاريخنا وتحرف مواقفه الضخمة كترجمة مؤلفات أجنبية عن صلاح الدين مما كتبه ولتر سكوت وغيره (١) .

وقد أحصى النقاد على هذه الترجمات عوامل نقص وتقصير مختلفة من أهمها :

أولاً : عدم التقيد بالأصل المترجم .

ثانياً : مسخ القصة وإضافة ما ليس منها .

ثالثاً : اللغة الركيكة المبتذلة .

ولقد بلغ من ضعف المترجمات أن أصحابها عجزوا عن استيعاب الكلمات في أصولها العربية فترجمت كلمة (الحمراء) باسم (الهميرا) وقد أشار إلى هذا الدكتور عبد العزيز برهام حين قال: «إن أكثر القائمين بأمر الترجمات لم يكونوا بصراء باللغة العربية بصرهم باللغة التي ينقلون منها ، فكانت تستعصي عليهم ترجمة كثير من الأساليب التي يستطيعون إيجاد مثيل لها في العربية لضعفهم فيها فالتوت لغة الترجمة ، وكثيراً ما عمد الناقل إلى الأسلوب أو التعبير الأجنبي فنقله بنصه دون مراعاة روح اللغة التي ينقل منها ، وكثيراً ما أدخل في اللغة العربية كلمات أجنبية لم يستطع المترجمون أن يجدوا لها مدلولاً في لغتهم فطغت على لغة الكتابة » (٢) .

---

(١) راجع بحثنا عن تطور الترجمة في الأدب العربي المعاصر .

(٢) الرسالة ١٤ / ٥ / ١٩٤٥ .

وهكذا نجد أن اللغة العربية في ديباجتها العامة قد تأثرت بالمترجمات تأثراً سيئاً واصبحت لغة هابطة ركيكة .

٥

وفي السنوات العشرين الأخيرة خرجت حركة الترجمة عن كل قيد وسارت بقوة في خطا التغريب والغزو الثقافي فقدمت نتاجاً غلب عليه الضعف والانحلال . ذلك أن حرص كثير من المترجمين على ترجمة الآثار الأدبية الأخيرة في الآداب الأوربية قد نقل إلى الأدب العربي واللغة العربية ما لسنا في حاجة إليه لأنه يصور المجتمع الغربي الآن في طور انهياره وتخلفه وتحلله .

فالغرب الآن يمر بمرحلة بطالة وترف بالغين ويخلد إلى لون من الحياة الرخيصة الخامدة التي سيطرت عليها عوامل التحلل والإسراف ، ومن هنا كان الإنتاج الغربي إنتاجاً يعكس القلق والتمزق واليأس والتشاؤم ، وهو يمثل في الأغلب في كتابات كامو ومارلو وسارتر وبرندلو ومورافيا وكفكا ، وجميع هؤلاء منحرفون عن الجادة قد اعتصرتهم الفكرة الوجودية المشوبة بالإلحاد والتحلل والقائمة على لون عجيب من الغثيان والرعب والإحساس بالوحدة والخوف ، وهي تتجه إلى معاداة المجتمع واحتقار أنظمته ، وتسخر من القيم الأخلاقية ، وتتنكر للعفة والشرف والرحمة ، وتهزأ بفكرة الأسرة والعائلة .

وقد وصلت الآداب الأوربية إلى ذلك بعد مراحل طويلة من التحول استمدت مفهومها الأساسي من الطابع المادي الحسي الذي يختلف مع طابع الأدب العربي والفكر الإسلامي الجامع بين الروح والمادة والعقل والنفس والذي لا يقبل المفهوم المادي الحسي الصرف ، ومن هنا فنحن نتقدم إلى هذه النماذج من الأدب الغربي في تحفظ كبير ، ونحن في نفس الوقت نواجه نهضة من نوع خاص يتميز بالكفاح والنضال ، ومن هنا فإن نقل طوابع الترف

والانحلال تفسد عزيمته وتضعف حركته .

ولا ريب أن نقل الآداب في هذه المرحلة له أخطاره وكذلك نقل الدراسات الفلسفية ، فإن له محاذيره وليس لنا إلاّ نقل العلوم التجريبية وحدها . فنحن نؤمن بأن المعرفة والعلم عامان وأن الثقافة والآداب والفنون خاصة لأنها ترتبط بالنفوس والأخلاق والقيم .

وليست النظرة العربية الإسلامية إلى الحياة نظرة مادية ولا إباحية ولا تشاؤمية ولكنها نظرة جادة متكاملة مضبوطة أخلاقية الطابع . ولا ريب أن قذف الأدب العربي والفكر الإسلامي العربي بهذه الموجات المتلاطمة من المترجمات إنما هو خطوة في طريق التغريب والغزو الثقافي الذي يحاول أن يطرح في أفق العرب والمسلمين هذه النماذج المتشائمة المتحللة حتّى لا تستقيم إرادة الحياة .

ولقد تعالت صيحات كثيرة تدعونا إلى أن نتحكم في تيار الكتب المترجمة إلى اللغة العربية ، وإلى أن نضع في يدنا إرادة الترجمة كما كانت في أيدي رجالنا في العصر العباسي ، وذلك حتّى نحمي اللغة العربية والأدب العربي والفكر الإسلامي والثقافة من محاذير وأخطار نتيجة تعسف الترجمات وتجاهلها للمزاج والعقلية والعصر ، ومن حقنا أن نقول إنه ليس كل مشهور يجب أن نترجمه بل نترجم النافع ، ولا ريب أن استنكار مسرحية أو كتاب ما هو إلاّ دليل على قوة شخصيتنا وأصالة ذهننا وليس العكس ، وعلينا أن نقدم هذه الآثار المترجمة بمقدمات ضافية تكشف عنها ، وقد استوعبت هذا المعنى الكاتبة العربية (نازك الملائكة) في بحث عنها قالت فيه : إن هناك طرقاً كثيرة تتحاشى بها الأمم أن تفقد شخصيتها في غمار ما يترجم من آداب الأمم الأخرى ، وإن القانون الأول للترجمة هو « الانتقاء » : انتقاء ما يلائم الحاجة العربية والظروف القائمة ، ونحن نعرف أن المسلمين والعرب في القرن الثالث حين ترجموا الفلسفات اليونانية وغيرها حذفوا منها الفلسفة الإلهية

وما يتعلق بالشرك وتعدد الآلهة وترجموا الرياضيات والمنطق كذلك فإنهم تركوا المسرح الإغريقي وشعر الملاحم لأنه لا يتفق مع طبيعتنا ومزاجنا النفسي والأدبي .

وتقول الكاتبة : إن مقاييس أمتنا الشخصية هي المقاييس ومصلحتها هي المصلحة ، أن لا نترجم إلاّ ما نحتاجه وما يتفق مع روحنا وأن علينا أن نخضع التراث الغربي كله للضرورة والحاجة وليس لأهواء المترجمين . لندرس ما يصنعه الأثر المترجم في الروح العربية ونتوسع فيما يهمّ ونغضي عما يضر .

ولا نقدم المترجمات إلاّ وهي مسبوقة بمقدمات ضافية تكتبها أقلام عربية رصينة متمكنة من الأدب العربي تشرح معاني هذا الأدب الوافد كما تشرح صلته بحياة الغرب وتياراته الفكرية ، وعلينا أن ندرس كل أثر غربي من وجهة النظر العربية ، فإذا كان فيه خروج على قيمنا وتقاليدنا وقفنا عنده وناقشناه ونقدناه وأثبتنا المفهوم العربي ، أما أن نقدم آداب الغرب بلا مقدمات فإن ذلك يبلبل قراءنا .

الفصل الثالث

العربية والعروبة

لعبت اللغات في العصر الحديث دوراً خطيراً في مجال الروابط السياسية للأمم تحت اسم الوطنية والقومية ، واستطاعت أن تثير حروباً وتسقط دولاً وتغير جغرافية القارات ، وذلك عندما تصاعدت الدعوات العنصرية والإقليمية في العصر الحديث وخاصة في أوربا لتعيد تشكيل الدول على أساس القوميات فكانت اللغة هي المصدر الأول والمنطلق الأساسي لهذه الحركات جميعاً .

ولقد امتد هذا التيار واتصل بالعالم الإسلامي بعد أن تعالت صيحات القوميات وخاصة القومية الطورانية في تركيا واستتبعت الدعوة إلى العروبة ثم جاءت نظريات القوميات الغربية وإيديولوجياتها المتعددة لتلقي بظلها في أفق العالم الإسلامي حتى لقد وضع دعاة نقل المفاهيم القومية الغربية اللغة العربية في موضع اللغات الأوربية مع الفارق البعيد بين مفهوم العروبة المرتبط بالإسلام وبين مفهوم القومية الغربية ، وبين دور اللغة العربية التي ربطت بين العرب والمسلمين منذ أربعة عشر قرناً بالقرآن وبين اللغات الأوربية المستحدثة التي ظهرت بعد أن تحرر الأوربيون من اللغة اللاتينية وترجموا الإنجيل إلى لغاتهم الوطنية .

لقد كانت هناك في الغرب مؤامرة اتخذت من اللغة مدخلاً إلى العنصرية والإقليمية وصراع الأجناس والعناصر وهذا غيرما يمكن تصوره بالنسبة لدور اللغة العربية في الرابطة العربية الإسلامية الجامعة . وإذا كانت بعض الأمم الغربية تسقط إذا زالت لغتها فإن ذلك لا ينطبق على الأمم الإسلامية فإن الجزائر قد زالت لغتها العربية أو كادت ، ومع ذلك فقد استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها التي تقوم على الفكر والعقيدة والدين ، كما تقوم الشخصية في مختلف بلاد العالم الإسلامي . كذلك فإن اللغة العربية إذا كانت لغة العرب القومية فإنها لغة المسلمين قاطبة : لغة فكرهم وثقافتهم وتراثهم وعقيدتهم ، فهي ليست بالنسبة لعلاقة الأمة العربية مع المسلمين من مختلف الأمم علاقة صراع ولكنها علاقة تقارب وامتزاج ، فقد جمع بين العرب والمسلمين ذلك الفكر الإسلامي العميق الواسع المتصل بكل أسباب الحياة من خلال لغة أعلى وأكبر من اللغة العربية هي لغة القرآن نفسه الجامعة التي تربط المسلمين جميعاً بما لا يربطهم به الحرف العربي .

٢

ولقد جرت محاولات دعاة نقل مفهوم القومية الغربية لتطبيقه على العروبة إلى القول بأن اللغة أساس من أسس الوحدة ، والواقع أنها ليست اللغة بمفهوم الحرف ، ولكنها اللغة بمفهوم الفكر ، فالفكر هو الجامع وهو علامة الوحدة النفسية والعقلية والاجتماعية . فالفكر وليس اللغة هو اساس الوحدة ولذلك فإن النفوذ الاستعماري التغريبي إنما يستهدف تحطيم وحدة الفكر الإسلامي بإدخال لغاته وترجماته .

ولذلك فإن المفهوم في إطار الإسلام يختلف عن المفهوم في إطار الفكر الغربي ، فإن اللغة عندما تضيع لا تضيع الأمة لأن الأساس هو الفكر وليست اللغة

ونحن نعرف جميعاً أن التركيز على اللغة كأساس من أسس القوميات

الغربية هو ما أورده ماكس نوردو في كتابه (روح القومية) وقد كان ذلك مقدمة للدعوة إلى القومية اليهودية وإحياء اللغة العبرية.

وقد قامت النظرية الألمانية (في القومية) (فون هيردر وهيجل وفخته ونيتشه) على اللغة واعتبرت أنها الأساس الأول في البناء القومي، وهي نظرية مستفادة أساساً من الفكر الإسلامي، وقد أشار إليها الإمام الشافعي.

ولقد كانت أوربا وهي تتحول - بجهود الصهيونية العالمية المختفية في ذلك الوقت تحت لواء الماسونية - من الوحدة السياسية المسيحية الخاضعة للكنيسة إلى الصراع القومي قد اتخذت من اللغة منطلقاً لها إلى هذه الدعوة، فقد بدأت بترجمة الإنجيل إلى لغاتها القومية وأخذت تبتعث تاريخها الاقليمي الخاص وفي ظل حركة الاستعمار العالمي المندفعة أخذت الحروب والصراعات تنشب في كل مكان لتعويض المجتمع الغربي المسيحي الموحد وإحياء القوميات وقد تناهت في ذلك الوقت الامبراطورية النمساوية وروسيا القيصرية وما كان للدولة العثمانية في أوربا من سلطان.

وأقيمت على أنقاضه قوميات جديدة هي ألمانيا وإيطاليا وبولندا ويوغسلافيا وفنلندا والنرويج والسويد وبلجيكا وهولندا واليونان ورومانيا وبلغاريا وألبانيا وتشيكوسلوفاكيا.

والموقف هنا يختلف اختلافاً واضحاً عن موقف البلاد العربية الإسلامية.

ولذلك فقد جاءت الدعوة إلى إعلاء اللهجات الإقليمية ومحاولة دفعها لتصبح لغات محاولة لتحقيق خطوة شبيهة بالخطوة التي اتخذتها دول أوربا حين اتخذت لغاتها الإقليمية مصدراً للدعوة القومية، وكذلك جرت المحاولات للمقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية، وبين هذه اللهجات ولغات أوربا عند انفصالها عن اللغة الأم، ودعانا ويلكوكس إلى أن نعرف سر عظمة أمم الغرب فقال إن ذلك يرجع إلى أنها استقلت بلهجاتها وبدأت منها نهضة علمية

وطالبنا بأن نفعل ذلك ، وفي هذا الطريق جرت الدعوة إلى ترجمة القرآن وهي دعوة أحبطت منذ اللحظات الأولى حين استجاشت القوى التي كشفت عن زيفها وخطلها ، والتي أعلنت أنه لا سبيل إلى ترجمة القرآن نفسه وإنما يمكن ترجمة معاني القرآن فحسب .

ولقد كانت محاولة إسقاط الدولة العثمانية وإعلاء الدعوة الطورانية بذلك الأسلوب الصارخ من العنصرية والمغالاة واستحياء تاريخ قديم بائد ، وليس الدعوة إلى القومية التركية وحدها ، من الأعمال التي أريد بها نقل مفاهيم القوميات الغربية وصراعها في عالم الإسلام فقد قام فعلاً دعاة الطورانية العنصرية من الاتحاديين فعلقوا العرب على المشانق على نحو أريد به إثارة الفتنة بين العرب والترك الذين تجمعهم وحدة فكر أساسية ورابطة القرآن في لغته الأساسية . ثم لما أخذ العرب يتخذون الوحدة العربية سلاحاً للتجمع بعد أن عزلتهم الدعوات الإقليمية الصارخة كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والآشورية في العراق ، لم تلبث قوى الغزو الفكري أن تدخلت عن طريق رجال يكتبون باللغة العربية لتفرض مفهوماً للعروبة مبتعثاً من مفهوم القومية الأوربية ، وكان ساطع الحصري علامة بارزة على هذا التيار .

ولقد ركز هؤلاء الدعاة على اللغة وعلى التاريخ ، وحاولوا أن يوجدوا للغة مفهوماً وتاريخاً ومساراً منفصلاً عن الإسلام والقرآن ، ولكنهم عجزوا عن تمثل ذلك في النفس العربية الإسلامية ، وقد تعالت الصيحات من كل مكان تدحض هذا المفهوم الجزئي وتقول إن اللغة وحدها لا تكفي لأن تصور جوهر الوحدة وأن التاريخ لا يستطيع أن يشكل كياناً أو مقوماً ، ربما تكون اللغة ويكون التاريخ في واقع أوربا يستطيع أن يكون كذلك ، أما في أفق عالم الإسلام وفي مفهوم العروبة فإن الأمر يختلف اختلافاً عميقاً ، ذلك أن أبرز ما تتمثل به الثقافة العربية وهي وليدة الفكر الإسلامي هو تكامل العناصر .

وقد أشار إلى هذا المعنى باحث غربي ومستشرق هو « ألبرت حوراني »

حين قال : « انطلقت القومية (وهو يعني العروبة) من الشعور الإسلامي إذ إن الثقافة العربية والتاريخ العربي هما وثيقا الارتباط بالإسلام ، ولذلك فإن الشعورين العربي والإسلامي لا يمكن أبداً فصلهما فصلاً كاملاً .

« والإسلام بشكل عام لا يعترف بوجود أجزاء منقسمة بشكل حاد في داخل الأمة وليس فيه تمييز واضح ما بين الأمور الزمنية والروحية ، وعلى هذا فإن الحركات القومية في جميع البلاد الإسلامية تحتوي عنصراً إسلامياً مستتراً لا يلبث أن يطفو في أوقات الشدائد والأزمات » (١) .

ولن تستطيع نظرية القومية الوافدة أن تقدم مفهوم العلاقة بين العروبة وبين عالم الإسلام لأنها تقوم على التجزئة في المفاهيم وفي فصل اللغة عن تاريخها وموثرها الأول والأكبر وهو القرآن والإسلام ، ثم إنها تستمد مداولاتها من مفهوم القومية الغربية الذي يقوم على الخلاف والخصومة والصراع مع القوميات الأخرى بينما نجد اللقاء الواضح المتكامل بين العروبة وبين الأمم الإسلامية كالفرس والترك والهنود وغيرهم .

إن العرب من حيث تقوم مفاهيمهم على وحدة الفكر الإسلامي ينفتحون مع البربر والفرس والترك والزنوج وليس الأمر يقف عند حدود الانفتاح بل يصل إلى حدود التكامل .

إن الفكر الإسلامي لا الأجناس والعروق والدماء هو أساس وحدة الأمة الإسلامية ، والفكر الإسلامي الذي استمد وجوده من القرآن أصلاً لم يصنعه جنس معين ، وهو ليس للعرب وحدهم فلا عبرة بما يقال من تقدم جنس على جنس في هذا الميدان أو ذاك ، ذلك أن القرآن هو الذي صنع الفكر الإسلامي وأقام دعائمه .

ولا ريب أن هذه اللهجات العامية في البلاد العربية لن تستطيع مهما حاول

---

(١) ألبرت حوراني كتابه (النهضة العربية الحديثة) .

الذين يقفون وراءها أن تتحول إلى لغات ذلك لأن وحدة الفكر الإسلامي القائمة على القرآن المستمدة منه تقف سداً مانعاً دون هذه التجزئة .

ولقد كانت رسالة الإسلام في الوحدة ولا تزال تقوم على تعريب المسلمين لا على ترجمة القرآن إلى لغات المسلمين ، أي أن كل مسلم عليه أن يصبح عربياً فكراً باللغة والقرآن وما بعدهما ، ومن هنا ساق أئمة الفكر الإسلامي الدعوة متصلة إلى المسلمين لتعلم اللغة العربية كأساس لإقامة وحدة الفكر الإسلامي (١) .

---

(١) راجع رأينا في علاقة القوميات الغربية بالعروبة في كتابنا (العروبة والإسلام) .

الفصل الرابع

مستقبل العربية الفصحى

إن البحث في مستقبل العربية الفصحى مرتبط إلى حد بعيد بمكانة هذه اللغة ومقدرتها الفائقة على حمل الرسالة التي وكلت إليها عبر الأجيال على النحو الذي يكشف عنه تاريخها خلال المراحل المختلفة من حياتها ومن حياة عالم الإسلام.

فهي قد امتدت واتسعت وأصبحت لغة العلم والسياسة والحضارة خلال أكثر من ألف عام لم تستطع اللغات المختلفة أن تنازعها هذه المكانة ، وتركت خلال ذلك بصماتها في كل قواميس اللغات العالمية ، بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فقد ظلت المصطلحات التي أقامها أهلها تتحرك في كل مكان بوصفها مصطلحات عالمية وخاصة في علوم الكيمياء والفلك وعلوم البحار .

وقد أكد الباحثون أن الغالبية العظمى من أسماء النجوم وضعها العرب غير قسم ضئيل منها احتفظ بالأسماء اللاتينية والإغريقية ، فقد استطاع العلماء الفلكيون الغربيون أن يسترجعوا هذه الأسماء بعد أن أخذوا علمهم كله عن العرب ومثال ذلك الشعرى اليمانية والعيوق والسماك (أو الرامح) والنسر الواقع وقلب العقرب والدب والمنزر والمعرق والفخذ والنجم القطبي والفرقد ومجموعة العقرب والحاوي والحية والدب الأكبر والدب الأصغر(1)

---

(1) راجع مبحث الدكتور عبد الرحيم بدر (العربي – أكتوبر ١٩٦٢) .

٢

بل إن الأبحاث العلمية الدقيقة قد أكدت مكانة اللغة العربية بالمقارنة إلى اللغات المختلفة وتغلغلها في كل اللغات العالمية . يقول عبد المجيد شوقي السكري في كتابه (أم اللغات وعلم الاشتقاق والمقابلات) ما يلي : لقد قمت بإجراء مقابلات واضحة مدة عشرين سنة .

وقد وقفت إلى وجود ١٦٥٠ كلمة قرآنية في ٢٢ لغة من لغات العالم الحية : : وهي الانجليزية والفرنسية والروسية والإيطالية والفارسية والكردية واللاتينية والتركية والألمانية والإسبانية والبرتغالية والأفغانية واليهودية (أي الكنعانية التي يتكلم بها اليهود الآن) والسريانية السورية والآرامية والآشورية والحبشية واليونانية والأرمنية والألبانية والكرواتية والرومانية البلقانية .

وبالنسبة للغة الانجليزية أكثر من ٣٤ طائفة من اللغة الانجليزية تشكل العمود الفقري للغة وهي بعض أسماء : البدن والعائلة والقرابة والبيت والملابس والأواني والحيوان الأهلي والبري والنبات والأثمار والطعام والأدوات والجو والطبيعة الأرضية والسلاح والأعداد والإشارة والضمائر والأماكن والدين والحاصلات والأوصاف والصناعات والألوان وأسماء بعض العلوم والفلك » .

٣

ولقد تردد القول في السنوات الأخيرة بالدعوة إلى ترشيح اللغة العربية لتكون اللغة العالمية المرتجاة ، أشار الباحثون إلى أحقية اللغة العربية لذلك دون لغات العالم جميعاً نتيجة اتساعها (١) الزمني حيث عاشت أكثر من ١٥٠٠ عام « ولا تزال نابضة بالحياة حافلة بالقوة والنماء ، كذلك امتازت عن جميع

(١) من مبحث الأستاذ علي عبد العظيم (عن عالمية اللغة العربية) مجلة الأزهر سنة ١٣٩١ /١٣٩٢هـ.

لغات العالم بامتدادها المكاني حيث فرضت وجودها من حدود الصين إلى شواطىء المحيط الأطلسي ولا يزال تراثها معروضاً للبحث والدراسة في جميع جامعات العالم الكبرى مما يرشحها لتكون اللغة العالمية التي يتطلع إليها العالم كله » ويؤهلها لذلك أنها « كانت اللغة العالمية الأولى منذ القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وكانت جامعاتها الكبرى قبلة طلاب الثقافة العالمية في أنحاء الأرض » .

كذلك أشار الباحثون إلى أحقية اللغة العربية في ذلك حين تقوم المقارنة بين اللغة العربية واللغات ذات الصفة العالمية الآن ، ولقد استطاعت اللغة الفرنسية أن تأخذ مكانة واضحة في العقود الأولى من القرن العشرين ، ثم انفردت اللغة الانجليزية بذلك بعد الحرب العالمية الثانية .

واليوم تعترف هيئة الأمم المتحدة بأربع لغات الدول الكبرى ذات المقاعد الدائمة في مجلس الأمن (الانجليزية – الروسية – الفرنسية – الصينية) بالإضافة إلى الإسبانية التي تتحدث بها إسبانيا وأمريكا اللاتينية .

كما اعترفت باللغة العربية .

غير أن العالم ما يزال يتطلع إلى لغة واحدة موحدة له .

ولا نعتقد أن هناك لغة تصلح لذلك غير اللغة العربية التي يجب أولاً أن تكون اللغة الأولى للعالم الإسلامي وذلك يؤهلها لأن تتصدر دعوة العالمية غير أن هناك محاولات متعددة تقف دون تمكين اللغة العربية من أن تكون لغة موحدة للعالم الإسلامي ولا ريب أن هذه المحاولات مرتبطة إلى حد كبير بدعوى التغريب والغزو الثقافي والنفوذ الاستعماري وكذلك النفوذ الصهيوني الذي أعلن أنه يقاوم وجود لغة واحدة في العالم الإسلامي .

غير أن المستقبل يؤكد صلاحية اللغة العربية لأن تكون لغة عالمية بعد أن تكون اللغة الأولى للعالم الإسلامي نفسه ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة تميز

اللغة العربية وتجعلها أهلاً لهذا المكان الفريد .

أما الدول الإسلامية فهي لا تتردد في قبول اللغة العربية لغة عامة لها لأنها ترتبط بها ارتباطاً عضوياً بالفكر والعبادة والثقافة ، وقد كان لبعض الدول الإسلامية مطالبات واضحة بأن تكون العربية هي لغتها الأساسية لولا نفوذ اللغات الأجنبية بها وعمل الاستعمار على إدامة هذا النفوذ وترسيخه .

غير أن من أكبر الأعمال التي تمكن للغة العربية في الأرض وتؤهلها لأن تأخذ مكانتها الصحيحة هو أن تقتحم هذه اللغة الفكر الغربي العلمي التكنولوجي وتنقله إليها فلا تكون عالة عليه ولا يجري في بلادها بلغة غيرها ، وإن هذه العقبة هي من أوليات الأعمال التي يجب أن يقتحمها المسلمون والعرب في طريق تقدمهم الحثيث للدخول في عصر العلم الواسع بالاصالة والحق .

٤

ونحن إذا تعمقنا النظرة إلى المستقبل وجدنا أن هناك خطين منفصلين يفرضان وجودهما إزاء عالمية اللغة العربية الفصحى ومكانتها :

الخط الأول : هو خط نموها وتخطيها الدائم للحواجز في سبيل الوصول إلى مكانتها الصحيحة .

والخط الثاني : هو خط مقاومتها ومعارضتها والعمل الدائب على إيقاف نموها وهدم قيمها .

(١) أما بالنسبة للخط الأول فإن محاولات تقويم اللغة العربية وقياس آثارها العميقة في مجال الفكر والآداب في العالم الإسلامي ما زالت مستمرة بنفس القوة كما كانت في العقود الأولى من هذا القرن وما تزال تتجدد هذه الأبحاث على أيدي باحثين مختلفي اللغة والجنس :

وفي السنوات الأخيرة (العقد السابع من القرن العشرين) ما تزال

نرى أبحاث جاك بيرك المستشرق الفرنسي وتوينبي المؤرخ الانجليزي و...

وهي أبحاث ما تزال تقايس أثر اللغة العربية ونفوذها على النحو الذي سارت عليه من قبل أبحاث لويس ماسنيون ونولدكه وبروكلمان وكثير غيرهم .

ذلك أن اللغة العربية التي انحسرت في منتصف القرن التاسع عشر وتوقف نموها وامتدادها في المناطق التي سيطر عليها الاستعمار الفرنسي والانجليزي والهولندي وخاصة في مناطق جنوب شرق آسيا والأقطار الإفريقية ، هذا الانحسار قد بدأ ينفك قليلاً قليلاً مع منتصف القرن العشرين ، بعد أن بدأت تتحرر أقطار كثيرة في أفريقيا وتعاود النظر إلى روابطها القديمة وتتصل باللغة العربية من جديد .

ولقد كشفت هذه السنوات الطويلة التي تزيد على المائة من الأعوام قدرة اللغة العربية على البقاء وصمودها بالرغم من كل ما وجه إليها من ضربات قاتلة :

فقد قاومت اللغة العربية في معركتها العنيدة في ميدانين :

(أولاً) قاومت العاميات التي حاولت أن تفرض عليها الانحدار .

(ثانياً) قاومت اللغات الأجنبية الزاحفة مع الاحتلال لتفرض عليها الانحسار .

فقد كانت حركة الاستعمار والنفوذ الغربي تستهدف التجزئة والتفرقة بتشجيع اللهجات العامية ومحاولة فرضها لغات وإتاحة السيطرة الفعلية للغات الأجنبية .

وقد حاول جاك بيرك أن يصور هذه الحركة حين قال :

« إن العرب في ظل الاستعمار لجأوا لحماية هويتهم وأصالتهم

إلى اللغة العربية التي ناضلت بنجاح لا ضد غزو اللغات الغربية المسلحة بقدرة عملية على الاتصال وحسب ، وإنما كذلك ضد اللهجات التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة .

« وواضح أن اللغة العربية قد تمكنت من مقاومة لغات عالمية كالفرنسية والانجليزية بسبب ما تتمتع به من إمكانيات تفوق حد مهمة الاتصال والإعلام وتصل إلى حد وظيفة الإيحاء والإثارة .

« وهذه الخصائص هي التي تجعل من كل لغة وبوجه خاص اللغة العربية منزلاً وبيتاً للكائن البشري » .

كذلك يشير (أرنولد توينبي) إلى أهمية اللغة العربية الفصحى وأنها (١) الرباط الوثيق الذي يمنع البلاد العربية من التفكك من شواطىء الأطلسي إلى شواطىء الهادي .

كما أشار الباحث الغربي (دورا باسيسو) إلى « الأهمية المتزايدة للغة العربية في مجال التفاهم الدولي سياسياً واقتصادياً وثقافياً بالإضافة إلى دورها التاريخي وكفاءتها واستيعابها لمختلف المعارف الإنسانية وكونها لغة البلاد العربية ولغة القرآن والدين الذي يعتنقه العالم الإسلامي الممتد من المغرب على المحيط الأطلسي غرباً إلى أندونيسيا على المحيط الهادي شرقاً » .

ومن أحدث ما نشر في الحديث عن العربية الفصحى ما نشرته جريدة لوموند (٩ يوليو ١٩٦٨) بقلم (هنري لوسل) تحت عنوان :

(اللغة العربية والحضارة العربية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة إلى العالم) يقول : إن التلميذ أو الطالب (الغربي) يجد في العربية معاني لغوية تختلف اختلافاً كبيراً عن معاني الفرنسية أو اللاتينية أو أي لغة أوربية أخرى ، وعن طريقها يتعرف المتكلم على عقلية العرب .

---

(١) عبارة محمود محمد شاكر عن كتاب العالم والغرب لأرنولد توينبي .

« يجد نفسه أولاً أمام الأبجدية العربية ، وربما كان فيها بادىء الأمر موضع للنقد ، ولكن سرعان ما يجد لها جاذبية خاصة ويستوقف نظره في الوقت نفسه سير الكتابة العربية من اليمين إلى الشمال . ولكن هذا السير يبدو مطابقاً لحركة فيزيولوجية هي أكثر اتفاقاً مع الطبيعة ثم إذا به يكتشف كلمات ذات أصول ملحنة واضحة ونسقاً (مرفولوجياً) مبتكراً داخل الكلمات يستبعد كل إضافة خارجية من المقاطع لأوائل الكلمات وأواخرها وينتج ثروة من الاشتقاق عن الأصل الواحد .

« وتقدم العربية أيضاً نسقاً من قواعد الإعراب بسيطاً وفيه قدر كبير من المرونة كما تقدم أساليب في تركيب الكلام تجمع بين السذاجة والدقة ونسقاً من الأفعال يتسم بالبساطة ويحير الناظر لأول مرة ، لكنه مع ذلك قد بلغ من التمام في منطقه ما بلغه النسق الفرنسي ، هذه الخصائص وغيرها تزود المتعلم من غير وعي منه بتصوير للتعبير الإنساني الجديد حقاً فيه خصوبة وثراء » الخ .

ولا ريب أن تمتع اللغة العربية بقدر ضخم من الحيوية والنفوذ والانتشار هو الذي فرض اتخاذها لغة رسمية في المنظمات الدولية .

(٢) أما الخط الثاني فإن محاولاته لم تتوقف . فما تزال الحملات على اللغة العربية مستمرة وما تزال قاسية وما تزال كتابات المستشرقين في محاولة انتقاصها وتصويرها بأنها لغة دينية (كما يقول توينبي) أو لغة تقليدية (كما يقول جاك بيرك) هذه المحاولة ما تزال مستمرة تغذيها القوى التي لا تريد لهذه الأمة ولا فكرها أن تحقق وجودها .

وقد ظل الاستعمار البريطاني والفرنسي يغذيان هذا الاتجاه ، حتى إذا انحسر ظلهما قامت بدلاً منهما قوى أخرى منها الصهيونية العالمية والنفوذ الأمريكي .

يقول الأستاذ محمد جبر : تسلم الأمريكيون علم محاربة اللغة

العربية عام ١٩٤٥ ودعوا البعض إلى زيارة أمريكا فعاشوا فيها عاماً أو أكثر ثم عادوا يدعون إلى التعليم باللغة العامية وداعين إلى التخلي عن التعليم بالعربية . في كتاب (شرشر) وغيره بما فيه من عبارات .

(البط كل الفت ، الوز كل الرز)

وكان هذا سبباً في أن الجيل الذي تلقى تعليمه منذ عام ١٩٤٥ بهذه الطريقة لا يكاد يكتب كلمة واحدة صحيحة . ولعل هذا هو السبب في انصراف هذا الجيل عن القراءة الأدبية إلى قراءة التافه من الكتب العامية » ا . هـ .

أما الصهيونية العالمية فقد عمدت في السنوات العشرين الأخيرة إلى محاولة خلق جو من الاحتقار للغة العربية بتحقير القائمين بها وهي نفس الخطة التي سار عليها (دنلوب) قبل ثمانين عاماً . فقد كان الاستعمار يسعى إلى إعلان حقده على اللغة العربية بازدراء القائمين بتعليمها (كذلك سعى إلى محاولة الغض من شأن الإسلام بالعمل على الغض من قدر القائمين بدراسته والدعوة إليه)

٣

وقد كان للمحاولة التي قامت بها تركيا بكتابة لغتها بالحروف اللاتينية منذ عام ١٩٣٠ وما بعدها أثرها البعيد في مصر ، فقد تعالت مثل هذه الصيحات غير أننا نرجو أن تكون عبرة ما حدث في تركيا أصبحت كافية الآن لرد هذه الدعوة وتقليص ظلها ، فقد قطعت تركيا نفسها عن التراث الإسلامي قطعاً تاماً ، وبعد أن كانت مصدراً في نهضة التراث من فقه وعلوم انقطع ذلك انقطاعاً تاماً ، وأصبحت لا تستطيع أن تصل إليه الآن إلا عن طريق القواميس والترجمة .

وفيما يتصل بهذه الحرب المعلنة المستعرة نجد (مؤسسة اليونسكو) وهي

تواجه اللغة العربية بشيء كثير من الإنكار والغض من مكانتها الحقة (والمعروف أن موسسة اليونسكو تسيطر عليها بعض العناصر الصهيونية) فقد أشارت في إحدى أبحاثها بصدد استخدام اللغة العربية كلغة عمل في المنظمة إلى أن هناك صعوبات عديدة تقف حائلة دون استخدام اللغة العربية وأن الترجمة إلى العربية تتطلب ضعف الوقت اللازم للترجمة إلى أي لغة أخرى وأن حجم الترجمة العربية يزداد عن بعض اللغات .

ولما كانت هذه الشبهات غير قائمة حقيقة فقد أثبت مجمع اللغة العربية في رده عكس ما ذهبت إليه منظمة اليونسكو وكشف عن أن اللغة العربية لغة إيجاز على عكس كثير من اللغات الأجنبية وأن هذا الإيجاز من شأنه أن يتيح النص العربي أن يأخذ حيزاً في الطباعة أقل بكثير مما يأخذه النص الأجنبي .

كما أثبت معهد الألسن أن اللغة العربية لغة إيجاز معنى وتركيباً ، وأن اللغات الغربية تستعمل سوابق للكلمات ولواحق الدلالة على معان جديدة على حين تكتفي اللغة العربية بالاشتقاق والتصريف ، ولا يزيد هذا عن تغيير ترتيب الحروف أو إضافة حرف أو حرفين إلى بناء الكلمة العربية .

وإن اللغة العربية لا تستعمل الأفعال المساعدة إلاّ نادراً على حين أنها شائعة شيوعاً كبيراً في اللغات الأجنبية .

٣

وما تزال المحاولات التغريبية الاستعمارية التي هي في حقيقتها مخاصمة صريحة للغة العربية ومحاولة لهدمها ، ما تزال هذه المحاولات تتشكل في صور رقيقة ناعمة في محاولة لخداعنا وللوصول إلى أول الطريق لتحقيق ما يسمونه (كسر رقبة اللغة) وهذا ما نراه واضحاً في عبارات أمثال (جاك بيرك) وما دعا إليه توفيق الحكيم وغيره مما يطلقون عليه لغة وسطى أو خلق عامية راقية

أو تطوير اللغة العربية . وكل هذه الدعوات لا يخدعنا ظاهرها البراق عن هدفها الخفي .

فلسنا مطالبين بأن ننحدر باللغة الفصحى إل لغة وسطى أو لغة عصرية ، وإنما نحن نطالب بأن نرتفع بالثقافات إلى مستوى البلاغة العربية والبيان العربي الأصيل فنقترب نحن من لغة القرآن لا أن نباعد بيننا وبينها ، وليست اللغة الفصحى هي لغة تقليدية كما يسمونها ، بل هي القاعدة الأساسية التي نتحرك حولها والتي يؤدي انتشار التعليم والثقافة إلى الوصول إليها . وإن جميع الناس الذين يقرأون الصحف ويستمعون إلى الإذاعات يفهمون هذه اللغة الفصحى لأنها قريبة منهم جداً حيث تتردد آي القرآن الكريم بين أيديهم صباح مساء وهي أعلى نموذج في البيان العربي .

٤

وإذا كان بعض وزراء المعارف في الماضي قد طالبوا بتبسيط اللغة العربية في هجائها وإملائها على النحو الذي يورده أحمد شفيق باشا في كتابه (أعمالي[١] بعد مذكراتي) فإن هذا القول مردود على أصحابه لأنهم يعلمون أن مناهج وزارة المعارف قد تغيرت بالنسبة لتعليم اللغة العربية التي كانت تبدأ بتحفيظ القرآن ، وهو المنطلق إلى اللغة وإلى النحو وإلى الهجاء وإلى الإملاء ، وقد فرض النفوذ الاستعماري على وزارة المعارف في عهود الاحتلال التخلي عن هذا الأسلوب ، ومن ثم عجزت مناهج التعليم عن توصيل اللغة العربية إلى الطلاب .

---

(١) أورد شفيق باشا ما أسماه قضية اللغة العربية وأشار إلى تصريح لبهي الدين بركات وزير المعارف يتحدث عن غرابة اللغة العربية عن الطلاب (١٩٣٨م) .

٥

كذلك جرت المحاولات في خلق أسلوب توراتي عامي حين عمد دعاة التبشير الغربي (الأمريكيون البروتستانت واليسوعيون الكاثوليك) في منتصف القرن التاسع عشر إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية (فقد حرص الفريقان على أن تكون لغة الكتاب المقدس ولغة الأناجيل خاصة قريبة جداً من العامية بألفاظها وتراكيبها، وقد فضلوا الأسلوب القريب من العامية في نقل الأناجيل ظناً منهم أنهم سيكسبون العامة ونسوا أن سليقة العربي تقوم على الجزالة والإيجاز والمتانة وهي بالفصحى ألصق منها بالعامية (١).

ولقد حاول ناصيف اليازجي وكان من الذين يعملون معهم في هذا المجال إلى تحرير اللغة فحالوا بينه وبين ذلك، وهكذا مالت دوائر التبشير والإرساليات عن اللغة الفصحى لأنها لغة القرآن واستهدفت دعم العامية وخلق تيار عامي في الأسلوب الغربي، ثم جاءت المرحلة التالية حيث أخذ كتاب المهجر (جبران وميخائيل نعيمة) يستخدمون هذا الأسلوب التوراتي العامي ويتخذونه منطلقاً لهم فاتكأوا على أسلوب الأناجيل في التعبير في محاولة للتأثير في أسلوب اللغة العربية الفصحى، وتبعهم في هذا الاتجاه قلة قليلة، ثم جاء بعض كتّاب لبنان في الخمسينات فاصطنعوا هذا الأسلوب في النثر وفي الشعر الجديد وتابعهم بعض كتاب العرب وما يزال أسلوبهم يكشف عن هويتهم، ولقد كان هؤلاء وأولئك أداة محاولة بناء أسلوب عربي زائف ولكن هدفهم لم يتحقق فقد واجه المنفلوطي أسلوب جبران ونعيمة واستطاع بسياقه القرآني البليغ أن ينتصر عليه وأن يهزم ذلك التيار، وبعثت مدرسة النثر الفني بعد المنفلوطي بالرافعي والبشري والزيات.

---

(١) بتصرف عن نص لأحد الكتاب.

٦

كذلك ظهر من دعاة التغريب من يقول : ادعوا إلى قتل الفصاحة والبلاغة ، وهي صيحة علت حين أخذت الشعوبية تقرع طبولها في الستينات ولكنها لم تلبث أن خفتت وعجزت عن المتابعة لأن تيار البيان العربي كان أكبر منها . وقد غاب عن هؤلاء حقيقة أصيلة هي أن (١) الإفصاح هو منهج واضح من مناهج اللغة العربية في أدبها الذي يعرف لها من العصر الجاهلي حتى هذا العصر . وأن الشيء الذي لا يمكن أن يمتد إليه طموح المجددين ، هو تلك الميزة التي لا تفارق اللغة وبيانها وذلك هو الإفصاح الكاشف لكل ما يختبىء في الفكرة من دقيق المعاني وخفيها ، إذ لا سبيل أن يتولى أدب الغموض شيئاً من ذلك لأنه يعتمد غالباً على الإحالة في البيان على أشياء مجهولة تحتاج هي نفسها إلى شرح وإفصاح ، والدقيق الخفي — كما هو معلوم — لا يفسره غموض أو إخفاء .

« واللغة العربية من أدق اللغات وأبرعها في استخدام كل ما يحرك النفس ويهيج الخاطر ، ولها في الإيحاء المفصح مسالك يدركها من درس أسلوبها البلاغي . « إن الإفصاح روح اللغة وجوهرها مهما دق المعنى أو بعد » .

٧

كذلك فإن الدعوة إلى التزام البساطة في الإنشاء هي من مخططات إهمال اللغة الفصحى واستخدام العامية كلغة للكتابة . فإن الأسلوب العربي الأصيل قادر على استيعاب كل دقائق المسائل وسردها في يسر دون الالتجاء إلى هذا النوع من البساطة التي يدعو إليه خصوم اللغة العربية ، وإن ثراء اللغة العربية

(١) دكتور عبد الرحمن عثمان

من حيث المفردات وغناها في التراكيب كل ذلك مما يؤهلها للأداء الصحيح .

وقد كذبت كل الوقائع تلك الدعوى الباطلة التي تقول بصعوبة اللغة العربية . يقول العالم الفرنسي (مارس) إنّ الفعل العربي لعبة أطفال إذا قيس بالفعل اليوناني أو بالفعل الفرنسي ، فليس هناك صعوبة بالاشتقاق ، أما النحو فهو لا تعقيد فيه مطلقاً ، وذو الذهن المتوسط يستطيع تحصيل اللغة العربية في أشهر قليلة وبجهد معتدل .

٨

ونستطيع أن نصل في نهاية البحث إلى استخلاص الحقائق التالية :

أولاً : ليست اللغة العربية قاصرة عن التعبير عن المفاهيم في أي مادة من مواد العلوم كالدين والفلسفة والتاريخ والقانون والجغرافيا والاجتماع والنفس والأخلاق ، وفي إمكان العربية الفصحى أن تستوعب كل العلوم والفنون الحديثة وأن تهضم كل ما يستجد من أفكار ومخترعات ، في وسعها أن تصبح أدق لغة علمية إلى جانب كونها لغة فكر وعقيدة .

ثانياً : ليست اللغة العربية لغة دينية أو لغة وطنية قومية ، ولكنها لغة عالمية . . . لغة فكر ومجتمع وثقافة ، وليس في اتصالها بالإسلام ما يجعلها توصف بأنها لغة دينية ، ذلك أن الإسلام نفسه ليس ديناً بالمفهوم الغربي اللاهوتي ، ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع وحضارة كاملة الدين جزء منها .

وهي لكونها مرتبطة بالقيم الإنسانية والمعنوية والروحية ليست ملكاً لرجال الدين ، ولكونها مرتبطة بالعرب فهي ليست ملكاً لرجال القوميات والوطنية ولكنها لغة جامعة ترتبط بالقرآن من ناحية فتضفي وجودها الفكري على ثقافة ٧٠٠ مليون مسلم وتضفي وجودها القومي على مائة مليون من العرب .

فهي بهذا تختلف عن علاقات اللغات الغربية بأممها أو علاقة اللغة اللاتينية

بالكتاب المقدس . وما قيست به هذه العلاقات لا ينطبق عليها .

ثالثاً : ليست هناك لغتان : إحداهما فصحى والأخرى عامية ولكن هناك لغة واحدة هي اللغة الفصحى ، أما العامية فهي ليست لغة ولكنها لهجة .

وإن تعويق اللغة العربية وعزلها عن التوسع بين مسلمي العالم هو هدف أساسي من أهداف الاستعمار ، والاستعمار هو الذي قطع الطريق على توسع اللغة العربية بفرض لغته وإحياء اللهجات ، وقد اهتم الاستعمار باللهجات المحلية لتشجيع الإقليمية وتمزيق وحدة المسلمين الفكرية ووحدة العرب القومية . ولقد تمثلت عمليات الهدم التي حاولها النفوذ الاستعماري في الدعوة إلى العامية وإلى نبذ الحروف العربية وإلى نبذ الإعراب وإلى محاولة اتهام الفصحى بالقصور وإلى تحطيم عمود الشعر .

واللهجات العامية هي في حد ذاتها تحريف عن الفصحى وتشويه لها ولن تقوى على اقتحام أسوار التراث العربي المنيع الأصيل ، ولا توجد لغة في العالم تخلو من العامية والفصحى تبعاً لاختلاف طبائع الشعوب ومستواها الثقافي والاجتماعي .

رابعاً : معرفة اللغات الأجنبية أمر ضروري في هذا العصر شريطة أن يتم في دائرة اللغة العربية ومن خلال الفكر الإسلامي العربي نفسه ، ذلك أن هذه الدعوة إلى تعلم اللغات الأجنبية بدون احتياط إنما تستهدف القضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وإحلال فكر اللغات الأجنبية مكانه في نفس العربي والمسلم .

خامساً : اللغة العربية باعتراف مختلف الباحثين أقدر اللغات على التوالد والاشتقاق وأغنى اللغات بالمترادفات ، وقد استوعبت جميع مفردات الكلمات العلمية القديمة في اليونانية وقد امتصت حوالي ٥٠ ألف كلمة من مختلف اللغات ودمغتها بالطابع العربي وأسبغت عليها الصفة العربية الأصيلة .

سادساً : أثبتت الأبحاث التي قدمها علماء أجانب منصفون في علم اللغات المقارن أن العربية أسهل من الانجليزية في هجائها ، وأن الخط العربي أسهل من الخط النرويجي والأسوجي ، ولا نذكر صعوبة الياباني والصيني ، ومع ذلك فقد رفض الصينيون تغيير حروفهم المعقدة بحروف لاتينية ، والمعروف أنه إذا أراد الإنسان أن يكتفي من اللغة الصينية بفهم اللغة الصحفية أو مبادلة الرسائل في الضروريات فإنه يستطيع أن يكتفي بألف ومائتي علامة واللغة الصينية يتكلمها ٦٠٠ مليون من البشر .

سابعاً : « اعتقد المسلمون بحق أن لغتهم جزء من حقيقة الإسلام لأنها كانت ترجماناً لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولساناً لدعوته ثم هذبها النبي الكريم بحديثه ونشرها الدين بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده ، فالقرآن لا يسمى قرآناً إلاّ منها والصلاة لا تكون صلاة إلا بها » (١) .

ثامناً : ليس في العربية كلمة بمعنى Faith وكلمة بمعنى Credat فالإيمان دائماً يقين واليقين دائماً معرفة لا نقل .

تاسعاً : من قصور النظرة وانشطاريتها (وهي طابع الفكر الغربي) النظر إلى اللغة من زاوية الدين أو النظر إليها من زاوية القومية . والمفكرون المسلمون ينظرون إلى اللغة نظرة جامعة متكاملة . فالعقيدة والقومية مرتبطتان لا تفترقان .

عاشراً : بالإسلام فقدت أكثر اللغات خصائصها الجاهلية وألزمت نفسها بالدخول في عربية القرآن (لغة فارس ولغة الترك ولغة الأكراد) .

ولقد قدمت عربية القرآن إلى هذه اللغات آلاف الألفاظ والمصطلحات .

حادي عشر : إن الغربي لا يستطيع أن يقرأ من تراث لغته أكثر من قرنين أو ثلاثة . وشكسبير الآن لا يقرأ في اللغة الانجليزية إلاّ بقاموس مع أنه

---

(١) هذا النص منقول من أحد الكتاب النوابغ .

توفي عام ١٦١٦ وكذلك يفعل الفرنسيون مع راسين وهيجو .

بينما نحن العرب نقرأ الآن لعمرو بن كلثوم وعنترة وامرىء القيس وهم يسبقون عصرنا بألف وخمسمائة عام .

ولقد نالت العربية إعجاب أمم غير العرب ، شاركوا في الكتابة بها وفضلوها على لغاتهم الأصلية ومنهم البيروني والغزالي .

ولقد كانت العربية في عصرها الزاهر جواز سفر لكل مسلم وعربي فكان الرحالة يتنقلون من جبال البرانس في شمال إسبانيا إلى أواسط أفريقيا إلى مصر والسودان إلى فارس والهند وجزر الهند الشرقية والصين لا يتفاهمون إلاّ بالعربية ومن هؤلاء ابن جبير وابن بطوطة .

ثاني عشر : العربية ليست لغة العرب وحدهم وهي لغة فكر سبعمائة مليون من المسلمين وهي مدينة للإسلام باستمرارها ونموها ، وهي دعامة الفكر الإسلامي والثقافة العربية وليس لغير المسلمين ثقافة غير الثقافة العربية الإسلامية . والعروبة في هذا معنى واسع فإن كل من تكلم بالعربية فهو عربي واللغة فكر قبل أن تكون ألفاظاً .



ملحق

مجموعة من آراء كتاب الغرب عن اللغة العربية الفصحى



(١) عبد الكريم جرمانوس :

إن في الإسلام سنداً هاماً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة ، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد .

ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء .

والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تبارى فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام .

(٢) لويس ماسينون :

استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميين في معالجة التعبير عن أدق خلجات الفكر سواء كان ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها .

واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي . والعربية من أنقى اللغات ، فقد تفردت بتفردها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي . إن التعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى لم يتناوله القدم ولكنه

وقف أمام تقدم القوى المادية فلم يتطور .

أما الألفاظ المعبرة عن المعاني الجدلية والنفسانية والصوفية فإنها لم تحتفظ بقيمتها فحسب بل تستطيع أن تؤثر في الفكر الغربي وتنشطه .

ثم ذلك الإيجاز الذي تتسم به اللغة العربية والذي لا شبيه له في سائر لغات العالم والذي يعد معجزة لغوية كما قال البيروني .

(٣) يوهان فك الألماني :

إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة ، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية . لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر ، وإذا صدقت البوادر ولم تخطىء الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية .

(٤) المستشرق اربري :

إن اللغة العربية لغة حية ، وحضارة العرب هي حضارة مستمرة فهي حضارة الأمس واليوم والغد ، وعن طريق العرب عرفت أوربا الحضارة ، فقد كانت أوربا تغط في سباتها العميق حين كان العرب يصنعون الحضارات ، وكانت جامعاتهم تخرج كثيراً من العلماء في حقل الآداب والعلوم والفنون والطب والهندسة .

(٥) وليم مرسيه .

أما في العربية فللعبارة من المتانة ما لا يبقى منه شيء يحجب مصدرها عن الناطق بها .

فالعبارة العربية كالمزهر إذا نقرت على أحد أوتاره رنت لديك جميع الأوتار وخفقت وهي تبعث في نفسك – زيادة عما لها من صدى خاص – جميع الأصداء الخفية لكل ما ينتسب إليها من مفردات أو يلحق بها ، ثم تحرك في أعماق النفس من وراء حدود المعنى المباشر موكباً من العواطف والصور . لقد كان نشوء هذه اللغة وتطورها مبنياً على أعظم قسط من مفرداتها على التداول بين المقاطيع المقصورة والمقاطيع الممدودة .

(٦) الدكتور زويمر (كبير المبشرين) :

يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار ومجال الدعوة إلى الله وهما الانجليزي والعربي وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء : مستودع النفوذ والمال ، يريد كل منهما أن يلتهم الآخر وهما المعضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشري : أعني النصرانية والإسلام

(٧) الدكتور فرنباغ (الألماني) :

ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب ، بل إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد ، وإن اختلافنا عنهم في الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية وبين ما ألفوه حجاباً لا يتبين ما وراءه إلا بصعوبة .

(٨) الأستاذ ميليه :

إن اللغة العربية لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها الناشىء من كونها لغة دين ولغة مدنية ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المبشرون ولمكانة الحضارة التي جاءت بها الشعوب النصرانية لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية

ولم تبق لغة أوربية واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي المبين حتّى اللغة اللاتينية الأم الكبرى ، فقد صارت وعاء لنقل المفردات العربية إلى بناتها .

(٩) جاك بيرك (الفرنسي)

إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية ، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا . إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية ، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية .

(١٠) ريجستير بلاشير (الفرنسي) :

اللغة العربية مبنية على المفاهيم على خلاف لغتنا مثلاً لذلك ينبغي أن تبقى المعاجم اللغوية على حالتها القديمة لأنها الأساس .

إن من أهم خصائص العربية هي قدرتها على التعبير عن معان ثانوية لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها ، فالفرنسية مثلاً لا تعنى إلاّ بالتعبير الواحد ، وفي العربية مذاهب وأساليب تعرب عن مختلف الأحاسيس ، فضلاً عن استعمال العربية للحركات الطويلة والقصيرة في بقية اللفظ ، فتحصل على مشتقات لأنها عديدة مختلفة المعاني مع بقاء الأصل ثابتاً واضحاً للعين .

وإني أشد الناس حفاظاً على وحدة اللغة العربية ، ولي حجة تغاير بعض المغايرة ما عندكم وما في أفكاركم فيما يتعلق بمعنى الوحدة العربية ، إني ألاحظ أن هذه الوحدة ، هي لغة لغوية أخلاقية دينية ، ولكنها قبل كل شيء مؤسسة على وحدة تاريخ اللغة ، إننا كلما درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها قد تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً ، فإذا قارنا اللغة الفرنسية في القرون الوسطى وجدنا أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع

عشر ، وهذه مختلفة أيضاً عن لغتنا اليوم ، هذه الوحدة في اللغة الفرنسية لا تتضح لنا إلا بالبحث والمقارنة . في حين أن وحدة اللغة العربية تتضح للقارىء ولو كان أجنبياً لأول وهلة ، لغة القرآن لا تزال هي لغة اليوم وهذا ما تتميز به العربية عن اللغات الأخرى .

(١١) بروكلمان :

بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا ، المسلمون جميعاً يؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى .

(١٢) جورج سارطون :

إن الوحي نزل على الرسول باللغة العربية ، وهكذا كانت العربية لغة الله ولغة الوحي ولغة أهل الجنة ، وقد أكد الرسول وجوب قراءة القرآن باللغة العربية فكان من نتائج هذا : ذلك الاتجاه العقلي الواحد في التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية ، أن أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى ، وهي اليوم لم تزل لغة أمة موزعة في جميع بقاع الأرض . ولقد اتفق أن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات في الوجود ، إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان على نظام معين .

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب ، كانت بهذا التجديد كاملة ، وها نحن هنا أيضاً أمام اتفاق عجيب ، فإن الرسول مع أنه أمي كان يملك

ناصية اللغة إذ آتاه الله بياناً ووهب اللغة العربية مرونة جعلها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولفتاته وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة ، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد ، وهكذا جعل القرآن الكريم من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة .

(١٣) جوستاف جرونيباوم :

عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها « قرآناً عربياً » والله يقول لنبيّه « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً » وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها ، فهي الوسيله الي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان ، أما السعة فالأمر فيها واضح ومن يتبع جميع اللغات لايجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية ويضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات ، وتزين الدقة ووجازة التعبير لغة العرب ، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز ، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى ،و للغة خصائص جمة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف لها نظائر في أي لغة أخرى ، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني ، وفي النقل إليها ، يبين ذلك أن الصورة العربية لأي مثل أجنبي أقصر في جميع الحالات ، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية انه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبحت وخست ، وإذا نقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوة وحسناً . وإن الفارابي على حق حين يبرر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجنة وهو المنزه بين الألسنة من كل نقيصة والمعلى من كل خسيسة ولسان العرب أوسط الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً .

(١٤) أرنست رينان :

إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره : انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء بدء فبدأت فجأة في غاية الكمال سلسة أي سلاسة غنية أي غنى كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومها هذا أي تعديل مهم . فليس لها طفولة ولاشيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى، ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم أن علمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر حتى أنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة.

(١٥) فتيجو :

على العرب أن يقاوموا الدعاية المؤلمة التي تطالبهم بالتخلي عن شرفهم وتقاليدهم وإبائهم وأن يستسلموا إلى القوى المستعمرة ورؤوس أموال البنوك وأن يخضعوا طريقتهم في التفكير والعمل إلى تلك المدنية الزائفة التي لا تؤمن بالله ، وتطمح إلى إخضاع العالم لجو من المختارات الأمريكية المكتوبة بلغة إنجليزية سقيمة وستسقط جميع هذه المصنوعات المقلدة الزائفة في وقت قريب وليقاوم العرب ويثابروا فالعالم في حاجة إليهم ، وعلى العرب أن يتمسكوا بلغتهم : تلك الأداة الخالصة من كل شائبة والتي نقلت الإنتاج الفكري العالمي من غير محاولة نقصه أو خفضه .

(١٦) جورج بوست :

لغة العرب تفوق كل لغة في الانتشار إذا نظرنا إلى اتساع الأقطار التي لها فيها سلطان ، وهي تفوق أيضاً كل لغة إذا نظرنا إلى التأثير في مستقبل الأعمال البشرية .

(١٧) كارلو نلينو :

اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقاً وغنى ، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها .

(١٨) فان ديك :

العربية : أكثر لغات الأرض امتيازاً ، وهذا الامتياز من وجهين : الأول من حيث ثروة معجمها والثاني من حيث استيعاب آدابها .

(١٩) فيلا سبازا :

إن الذين حولوا كل قواهم إلى التعلم باللغات الأجنبية جاعلين لغة أجدادهم في المنزلة الثانية أو في طيّ الإهمال قد سدت دون مواهبهم منازل الألمعية . إن ما أتمناه لهذا الوطن هو سيادة لغته . أما لغات أوربا فيجب أن تكون لنا البحر الذي نستخرج منه الدرر المشاعة لكل مستخرج لأنها ملك للناس جميعاً .

واللغة العربية من أغنى لغات العالم بل هي أرقى من لغات أوربا لتضمنها كل أدوات التعبير في أصولها في حين أن الفرنسية والانجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة ولا تزال حتى الآن تعالج رمم تلك اللغات لتأخذ من دمائها ما تحتاج إليه .

إني لأعجب لفئة كثيرة عدوها من أبناء هذا الشرق العربي تنفرط من عقد قوميتها ويتظاهر أفرادها بتفهم الثقافات الغربية تفهماً تاماً ، فهم يعجزون بابتعادهم عن لغة قومهم وغرائزهم ولكم رأيت في هذه البلدان العربية أناساً يخدعون أنفسهم ليقال عنهم إنهم متمدينون راقون متعالون إلى أسمى درجات المدنية .